خزانة الدراسات القرآنية

دراسات في علم الانتصار للقرآن الكريم

تأليف
الأستاذ الدكتور محمد بن زين العابدين رستم
أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال المملكة المغربية

تقديم
سماحة العلامة الدكتور
فهد بن عبد الرحمن الرومي
أستاذ الدراسات القرآنية بجامعة الملك سعود - بالرياض

دار الخزانة الأزهرية
للدراسات والنشر

حيّ على الأصالة

دراسات في

[illegible] القرآن الكريم

دار الخزانة الأزهرية
للدراسات والنشر

فهرست الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية:
رستم، محمد زين العابدين.
دراساتٌ في علم الانتصار للقرآن الكريم
تأليف: أ.د. محمد بن زين العابدين رستم.
تقديم: فهد بن عبدالرحمن الرومي
١. القرآن الكريم - علوم
٢. القرآن الكريم - تفسير
٣. القرآن الكريم - ألفاظ
٤. الرومي، فهد بن عبدالرحمن (مقدم)
٥. العنوان ٢٢٠
ط- 1 القاهرة 1440هـ/ 2019م.
دار الخزانة الأزهرية للدراسات والنشر
ص- 20X14 سم
عدد الصفحات: ٣٨٤ صفحة
رقم الإيداع: 2746 / 2019 .

الطبعة الأولى
1440هـ/ 2019م
(هذا الكتاب قد خضع للتحكيم)

دار الخزانة الأزهرية
للدراسات والنشر

الناشر دار الخزانة الأزهرية للدراسات والنشر
مؤسسة علمية ثقافية تراثية
أسسها عبد العظيم إبراهيم عبد الحليم
سنة 1435هـ - 2015م.

تهتم بنشر نفائس التراث الإسلامي بكافة صوره وأشكاله وفق أُسس التحقيق العلمي وتركز على الجديد المفيد مما لم ينشر من قبل أو إعادة ما نشر ولم يلق العناية تضم نخبة من الباحثين، ويشرف على أعمالها كوكبة من كبار العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، وتهدف إلى نشر العلم والثقافة، وليس لها أي توجه سياسي أو أي انتماء حزبي أو طائفي.
بل على العكس من ذلك إذ تسعى الخزانة من خلال أعمالها إلى نشر ثقافة السلام وتعزيز قيم التعايش، ومحاربة التطرف من خلال منهج إسلامي أزهري وسطي.

00201146118471
00201227348024
00201014616909

Daralkhezana@gmail.com

Daralkhezana@hotmail.com

dar al-khezana al-azhareya.com

(الآراءُ الواردةُ في الكِتاب لا تُعبِّر بالضرورة عن رأي دار الخزانة الأزهرية للدراسات والنشر)

خِزَانَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرآنِيَّةِ

دِرَاسَاتٌ فِي

عِلْمِ الانْتِصَارِ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ

تأليف

الأستاذ الدكتور محمد بن زين العابدين رستم

أُستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة السلطان مولاي سليمان

بني ملال المملكة المغربية

تقديم

سماحة العلامة الدكتور

فهد بن عبد الرحمن الرومي

أستاذ الدراسات القرآنية بجامعة الملك سعود - بالرياض

دار الخزانة الأزهرية

للدراسات والنشر

تقديم

سماحة العلامة الدكتور فهد بن عبدالرحمن الرومي

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن اجتبى.

أما بعد:

فحين يتصدى أخي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد زين العابدين رستم أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة مولاي سليمان بني ملال في المملكة المغربية الشقيقة لكتابة بحث أو بحوث في الدراسات القرآنية، فإنها تجمع بين العمق والأصالة والابتكار وحسن الاختيار.

ولفضيلته بحوث عدة منشورة ورقيًّا وغير منشورة.

وقد رغب -حفظه اللَّه- في اختيار عدد من بحوثه غير المنشورة ورقيًّا لنشرها؛ ليعم النفع بها؛ والاستفادة من موضوعاتها وأفكارها ونتائجها.

وهي بحوث كالمائدة العامرة تجمع بين أنواع من الدراسات القرآنية؛ انتصارًا للقرآن ونقدًا لتحريفات العلمانيين والحداثيين لمصطلح التأويل، وردًّا لشبهات بعض المستشرقين في جمع القرآن الكريم، وتفنيدًا لدعوى ما اصطلح عليه بالقراءة الجديدة للنص الديني عند الحداثيين.

حتى علم القراءات كان له نصيب من إبداع دكتورنا الفاضل رستم، حيث كتب دراسة طريفة عن طرق تحمل القراءات عند المقرئين؛ انتصارًا للقراءات، ودفعًا لأراجيف بعض المبتدعة الذين أرادوا التشكيك في سلامة نقل القراءات.

ثم ختم هذه البحوث القيمة بدراسة عن علم الانتصار للقرآن الكريم في رحاب كليات الشريعة والدراسات الإسلامية.

وبهذا أحسب أن فضيلته قد قدم مأدبة قرآنية حافلة بالبحث العلمي الجاد، الذي يجد فيها العالم بغيته، وتنير للمبتدئ طريقه، وترسم له معالم البحث العلمي الجاد.

أسأل اللَّه تعالى أن ينفع بهذه الأبحاث العلمية كما نفع بعلم صاحبها وأن يجزيه عن كتابه خير الجزاء.

وصلي اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه

أ.د فهد بن عبد الرحمن الرومي

أستاذ الدراسات القرآنية جامعة الملك سعود بالرياض

في الحرم المكي

يوم الخميس ليلة الجمعة

التاسع من شهر صفر ١٤٤٠هـ

الموافق ١٨/١٠/٢٠١٨م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

نحمدك اللهم أكرمتنا بخير كتابٍ أنزل، وأفضل نبيٍّ أرسل، وجعلتنا من خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن باللَّه، والصلاة والسَّلام على محمَّد ابن عبد اللَّه القائم بأمر اللَّه، الداعي إلى خير الدنيا والآخرة، المنتصر لأسمى الفضائل الإنسانية، والذائد عن حياض دين اللَّه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وشبهات المرجفين، وعلى آله وصحبه الذين نصروا ما تركهم عليه نبيهم، من محجَّة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا يؤفك عنها إلا من كان في قلبه زيغ أو مرض، فبادوا إلى الانتصار للحق الذي جاءهم، ونافحوا عنه بالغالي والنفيس، حتى نقلوه إلى منْ بعدهم غضًّا طريًّا، وصافيا نقيًّا، وعذبا زلالا، فرضي اللَّه عنهم أجمعين، وتواصل ذلك لهم إلى يوم الجزاء والدين.

أما بعد: فلقد منَّ اللَّه عليَّ بكتابة بحوث ودراسات في الانتصار للقرآن الكريم في مناسبات علمية شاركت فيها داخل المغرب وخارجه، ولم يقدَّر لهذه البحوث أن تطبع ورقيًّا، وإن كان أغلبها قد نشر على صفحات مواقع عديدة على الإنترنيت، ولقي استحسانا وقبولا من قِبل جمهور من المعتنين.

ولقد رأيتُ أن يُضَمَّ بعضُ هذه البحوث إلى بعض، فتخرج مطبوعةً في كتابٍ مفرد، لما بينها من رابط معنوي، وسببٍ واصلٍ، لما في ذلك من عظيمِ الفائدة لجمهور المعتنين، وجزيل العائدة لعامة المتخصصين.

إن الكتابة في موضوع علم الانتصار للقرآن الكريم في العصر الحديث تنظيرا وتقعيدا، لا يكاد يوجد منها إلا النزر القليل، والشذرة بعد الشذرة، وأما التصدي لموضوعاته ومجالاته فكثيرةٌ الدراسات والبحوث فيه قديما وحديثا.

ولقد افتتح الكاتبُ هذه الدراسات ببحثٍ في بيان موضوع علم الانتصار للقرآن الكريم، وبيان أهمية الاطلاع عليه من قِبل المتخصِّص في الدرس القرآني المعاصر، وذكر العلوم التي يجب معرفتها بالنسبة للمنتصر للقرآن الكريم، مع التعريج

على مجالات التطوير في الدراسات القرآنية الخاصة بعلم الانتصار للقرآن الكريم، وكأنَّ هذا البحث مدخلٌ تعريفيٌّ لهذا الذي يُقال له علم انتصار للقرآن الكريم، وتمهيدٌ لما يأتي بعده من بحوث ودراسات تدور في معناه، وتنوه بمبناه.

وكان البحثُ الثاني في كيفية توظيف الاتجاه العلماني الحداثي لمصطلح «التأويل»، ذلك المصطلح القرآني الذي أُريد تحريفه عن معناه الأصيل إلى معنى حادثٍ طارئٍ دخيل.

ودار موضوعُ البحث الثالث على دراسة مواقف المستشرقين والحداثيين من جمع القرآن الكريم بسطا لآراء الفريقيْن في هذه القضية، ووقوفا عند تقويم منهج الطائفتيْن في تناول القول في هذه المسألة.

وكان موضوع البحث الرابع والخامس دراسة ظاهرة جديدة في فهم القرآن الكريم ومحاولة تفسيره، وذلك الذي اصطُلح عليه عند كثير من الحداثيين بالقراءة الجديدة للنص الديني.

وكان مدارُ البحث السادس على دراسة بعض مواقف الأقدمين من رسم المصحف، مع التعريج على دراسة آراء بعض المعاصرين من مستشرقين وعرب في هذا الموضوع.

ربنا آتنا من لدنك رحمة واغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا وتوفَّنا وأنت راض عنا، وصلَّى اللَّه وسلَّم على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أ.د/ محمد بن زين العابدين رستم

في الدار البيضاء المحروسة بالمغرب الأقصى

في ١٦ ذي القعدة ١٤٣٤هـ

علمُ الانتصار للقرآن الكريم وعلومه

مجالٌ خِصْبٌ لتطوير الدراسات القرآنية في العصر الحديث[1]

المقدمة

القرآن الكريم: كلمةُ السماء إلى الأرض، ووحيُ اللَّه للبشر طُراً، ودستوره للمسلمين هديا وتشريعا، وتقنينا ومنهجا وسلوكا - قد تعرض في القديم والحديث، لحملات تشويه وتزوير، وتضليل وتحريف، فانبرى علماء هذه الأمة التي خوطبت به ذباً ودفاعا، ومدافعة وبيانا، فنشأ من ذلك علم سمي بعلم الإنتصار للقرآن الكريم، وصلتنا في مجالاته كتبٌ ودواوين، ورسائل وتصانيف.

وفي هذا العصر الذي نجمَ فيه التَّحدي، واتسع فيه الخُرق على الراقع، عظُمت الحاجةُ إلى الكلام في هذا العلم تنظيرا

---

(١) بحثٌ مقدَّم إلى المُؤتمر الدولي لتطوير الدِّراسات القرآنية الذي نظمه مركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض بالتعاون مع جهات أخرى في ٦- ١٠/ ١٤٣٤هـ.

وممارسة، وتأليفا ومحاضرةً، بما بُسط فيه القولُ من مناحيه التي لم تكن بالمسلمين حاجة إلى الخوض فيها قديما، إذ تتعددت اليومَ الشبهاتُ والأراجيفُ، وتدَّثرت بِمُسُوح العلوم الإنسانية الحديثية من لسانيات وصوتيات، وعلم تاريخٍ وفلسفات، وعلم اجتماع وحفريات إلخ . .

فكان لابد لمن رام الانتصار للقرآن الكريم منْ أن يضرب في هذه العلوم بسهمٍ، ويكون منها على ذُكْر، ويغْرف من حيث غرفَ المناوئون، وينهل من حيث نهلَ المخالفون، حتى يستقيمَ له سبيلُ الفلْجِ بالحجة، والظَّفر بالدليل، والسَّلامة في المناظرة.

وتأتي هذه المشاركةُ في هذا المؤتمر العلمي المبارك -في بيانٍ **لموضوعها**- لكي تجلِّي صورةَ المنتصر للقرآن الكريم، وترسمَ له الضوابط والقواعد التي يجب عليه أن يترسَّمها، في مساهمةٍ حثيثة لتطوير الدراسات القرآنية في هذا العصر الذي طرحت فيه عشرات الشبهات، واختُلقت فيه مئات الأراجيف والأُغلوطات.

ويقترح الباحثُ أن تكون معالجته لهذا الموضوع من خلال

العناصر التالية:

- **المبحث الأول:** التعريف بعلم الانتصار للقرآن الكريم، وذكر أهميته وبيان حاجة الدراسات القرآنية المعاصرة إليه.

- **المبحث الثاني:** العلوم التي يجب الاطلاع عليها بالنسبة للمنتصر للقرآن الكريم في هذا العصر.

- **المبحث الثالث:** مجالات التطوير في الدراسات القرآنية الخاصة بعلم الانتصار للقرآن الكريم.

- خاتمة جامعة في مقترحات وتوصيات لإثراء الإضافة العلمية للموضوع المبحوث فيه.

ويتوقع الباحثُ أن يحقق بحثه **الأهداف والغايات التالية:**

- التنويهُ بعلم عظُمت الحاجة إليه في هذا العصر بالنسبة للمنتصر لكتاب اللَّه جلَّ وعلا.

- التنبيهُ على مجالات تطوير الدراسات القرآنية التي تُعنى بالانتصار للقرآن الكريم.

- المساهمةُ في إثراء الدرس القرآني المعاصر بما يكفل له الاستمرارية والعطاء، ومواكبة روح العصر، والتفاعل مع تحدياته.

ولعل المنهجَ المختارَ في مثل هذا الضَّرب من البحوث هو المنهجُ التحليليُّ الذي يناقش ويحلل، ويوازن ويرجِّح، مع ما قد يعضُدُ ذلك من سلوكٍ لمنهج الاستقراء الذي يوفِّر المعلومةَ المناسبةَ، ويجلب المثالَ الموضِّح، واللَّه وليُّ التوفيق، وصلَّى اللَّه على محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

* * *

المبحث الأول:

التعريف بعلم الانتصار للقرآن الكريم وذكر أهميته وبيان حاجة الدراسات القرآنية المعاصرة إليه

سنُعرِّج في هذا المبحث على التَّعريف بعلم الانتصار للقرآن الكريم، تمهيدا للكلام على مجالات تطوير الدراسات القرآنية المعاصرة التي تدخل في نطاقه، كما أننا في هذا المبحث سنذْكر أهميةَ الاطلاع هذا العلم عموما، وبالنسبة للدراسات القرآنية المعاصرة خصوصا.

أولا: التعريف بعلم الانتصار للقرآن الكريم:

لا توجد -حسَب علمي- في العصر الحديث دراساتٌ تأصيليةٌ تنظيريةٌ كثيرةٌ مبسوطة في الكلام على علم الانتصار للقرآن الكريم[١]، ولذلك سيكون من الصَّعب الإلمام بجملة

---

(١) وممن وقفتُ بعدُ على كتابته في علم الانتصار للقرآن الكريم تأصيلًا وتقعيدًا:

- صديقنا د/ عبد الرحيم الشريف في بحثه: «علم الانتصار للقرآن =

وفيرةٍ من التعاريف لهذا العلم المراد بيانِ ما المقصودُ منه هنا، وسنسوقُ من هذه التعاريف نموذجا واحدا هو الذي أوقفنا عليه البحثُ.

- **التعريف اللغوي**: وسنقتصر هنا على تحديد معنى الانتصار دون سواه من ألفاظ العلم المنوَّه به[1]، لظهور معاني تلك الألفاظ فمن ذلك:

تحديد معنى الانتصار: والانتصار كلمة مأخوذة من النصر

= الكريم وموقعه من علوم القرآن الكريم» المنشور في مجلة تبيان للدراسات القرآنية بالرياض في العدد١٣ / ١٤٣٣هـ.

- د/ أحمد بوعود في بحثه: «الانتصار للقرآن ....إسهام في التقعيد» المنشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي لتطوير الدِّراسات القرآنية الذي نظمه مركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض بالتعاون مع جهات أخرى في ٦- ١٠/ ٤١٤٣٤هـ.

- الأستاذة سهير قنبر في بحثها: «علم الانتصار للقرآن الكريم: دراسة تأصيلية» التي شاركت به في ضمن أعمال المؤتمر الدولي لتطوير الدِّراسات القرآنية الذي نظمه مركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض بالتعاون مع جهات أخرى في ٦- ١٠/ ٤١٤٣٤هـ.

(١) ولأن بقية الألفاظ معروفة المعاني لدى طلبة العلم وشداته.

ومعناه: «العون»، ويقال: انتصر الرجل: انتقم[١].

والنَّصر أيضا إعانةُ المظلوم، إذ يقالُ: «نصَرهُ على عدوِّه ينصره ونصرَه ينصره نصْرا... وانتصرَ الرجلُ إذا امتنع من ظالمه، قال الأزهري: يكون الانتصار من الظالم الانتصاف والانتقام»[٢].

والأقربُ هنا في وِجدان العلاقةِ بين المعنى اللغوي والاصطلاحيِّ لمعنى الانتصار، أنْ يقال إنَّ من لوازم معاني الانتصارِ الغضبَ والانتقامَ لمن وقع عليه ظلمٌ، أو لحقهُ حيفٌ أو جنايةٌ، فكأنَّ المنتصرَ للقرآنِ الكريمِ غاضبٌ لأنه انتُهكت حرمتُه، ودُنِّست قدسيتُه، وتُسوِّر على علومه وتفسيره بغير علمٍ، أو منْ غير وجْه حقٍّ.

- **التعريف الاصطلاحي**: لقد عُرِّف علم الانتصار للقرآن

(١) مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي مادة نصر ٣/ ٨٧٠ دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور مادة نصر ٥/ ٢١٠ دار صادر بيروت بلا تاريخ.

الكريم بأنه «العلم الذي يبحث في فهم الشبهات المثارة حول القرآن الكريم، والانتصاف منها بالحجة المؤيَّدة بالدليل الصَّحيح»[(١)].

ثانيا: شرح التعريف:

فالقولُ بأنه علمٌ يفهمُ منه أنه تخصصٌ قائم الذات، له مقررات ومناهج ليس هناك بدٌّ من الإلمام بها والتعريج عليها لمريد القيام بالانتصار للقرآن الكريم.

والقولُ بأنَّ الشُّبهات المثارة حول القرآن الكريم لابد من فهمها لمريد الانتصار للكتاب العزيز، يُفهم منه أنَّ موضوعَ هذا العلم هو الشُّبهات نفسُها، والأراجيفُ التي ينشرها حول القرآن الكريم كلُّ من سوَّلتْ له نفسُه النيلَ من قدسية الكتاب، والتنقيص من منزلته عند المسلمين.

---

(١) نحو إنشاء علم جديد من علوم القرآن الكريم (علم الانتصار للقرآن الكريم) لعبد الرحيم - هكذا مهملا من غير تعيين وأرجح أن يكون د/ عبد الرحيم الشريف، لأن هذا التعريف لعلم انتصار القرآن الكريم هو الموجود في بحثه المنشور في مجلة تبيان للدراسات القرآنية العدد ١٣/ ١٤٣٣هـ ص٤٥٢: - بحث منشور على ملتقى أهل التفسير انظر الرابط التالي/ http://www.tafsir.net/vb/tafsir4632/

وعُلم من قوله: «والانتصاف منها بالحجة المؤيَّدة بالدليل الصَّحيح»، أنَّ الغايةَ من فهْم الشُّبهات المثارة حولَ القرآن الكريم هو تفنيد الشبهة، و بيان بطلانها، وذلك وفقَ مقتضياتِ المنهجِ العلميِّ القائمِ على الحجَّة والدليلِ والبرهانِ.

ثالثا: أهمية الاطلاع على علم الانتصار للقرآن الكريم:

إن ظاهرة الانتصار لدين وثوابت هذه الأمة ظاهرة مؤصَّلٌ لها من كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، ألم يرغِّب اللَّه عزَّ وجل في النكير على المغير المبدّل؟؟، ألم تكن رسالة النبي العدنان في جوهرها دعوة إلى التغيير والنكير على قريش وما كانت فيه من انحراف في العقيدة والسلوك؟؟.

إن الإنكار لما يقوله من يفهم القرآن الكريم أو السنة النبوية المشرفة فهما جديدا، أو يستعمل التأويل أو يوظِّف منهجا غربيا شاذا لا يصحُّ تنزيله في البيئة الإسلامية، في قراءة الأصليْن العظيميْن واجبٌ ديني يدعو إليه النقل والعقل.

فأما النقل فواضحة أدلته من الكتاب والسنة، وأما العقل فأقربُ ما قد يقال ههنا: أيُّ عظيم أعظم في الإنكار والتشهير والدفع في الصدر مِن قول من يقول: إننا يجب علينا أن نحفظ الناس من الوقوع في أيدي رجال الدين قلت يريد ما يردده

رجال الدين من أحكام القرآن والسنة، إنه حسن حنفي القائل بهذا أليس هذا قولا يوجب الانتصار لدين اللَّه الذي يرى حسن حنفي رجالَ الدين عندنا عليه أوصياء؟؟؟؟

أليس يوجب العقل السليم أن ندفع ما يردده هذا الرجل في بعض كتبه من أن المرحلة الفكرية التي تمر بها الأمة اليوم توجب طرح ما تعتمده الثقافة العربية الإسلامية حجة عندما يقول قائل الفتيان فيها: «قال اللَّه وقال رسوله»، وأن نستبدل ذلك كله بأن نقول: «ماذا يقول العقل، ماذا يقول الواقع»(١).

فالانتصار للَّه ولرسوله فريضة إسلامية، وواجب إيماني يفرضه على المسلم حبه للَّه ولرسوله، وقطعه الجازم أن ما عداهما ليس يكون فوقهما. وما كان أسفل منهما فلا يعلو عليهما، وهو أي الإنتصار تؤيده مقولات العقل الصريح، إذ رُكز في الفطر السليمة الدفاع عن المحبوب، والموتُ دونه، والدفع في صدر من يريده بشر(٢).

---

(١) حوار في علوم مهمة للقائم بالانتصار للقرآن الكريم د/ محمد بن زين العابدين رستم، حاوره د/ حاتم القرشي في ملتقى أهل التفسير على الرابط التالي: http://www.tafsir.net/vb/tafsir 27087/

(٢) المصدر السابق.

والانتصار للَّه ورسوله بعدُ نتيجة حتمية للتجاسر على اللَّه ورسوله في زمن تكلم فيه في كل شيء، ولم يقدَّر ويحترم الدين وثوابته، إذ أصبح الحمى مستباحا. . . وكلأً حلالا.

فأهون الخلق ممن سمي مفكرا أو مستشرقا أو حداثيا، أو أديبا قصصيا أو روائيا أو شاعرا، أو كاتبا أو صحفيا، أو فيلسوفا أو مؤرخا أو عالم اجتماع أو عالم نفس، أو حتى مهندسا أو متطببا، كلٌّ هؤلاء قد تطاولوا في هذا العصر على القرآن الكريم، وسوَّلت لهم أنفسهم أن يقولوا بقولٍ عظيم في أقدس كتاب، كلٌّ ذلك بدعوى الاجتهاد والتجديد، أو بدافع ممارسة حرية الفكر أو حرية الإبداع أو حرية الصحافة والنشر، أو حرية الكلمة !!

وهناك ضرورة ماسة بطالب العلم الشرعي عموما وطالب التفسير على وجه أخص- اليومَ في أن يعرف علوم العصر من مناهج تحليل الخطاب لسانيات وبنيوية وتفكيكية، والفلسفة والمنطق والمنهاج العقلي القائم على الحجاج وغير ذلك مما يؤهله لكي يكون محاورا جيدا للفكر الوافد، سواء أكان هذا الفكر غربي المنزع، أو حداثي المنحى، أو عدائي الإتجاه.

ومن مبررات قولنا إن طالب العلم الشرعي لابد له أن يطلع على علوم العصر لكي يسلم له الإنتصار للَّه ولرسوله، أن الآخر حداثيا كان أم استشراقيا أم غير ذلك يوظف هذه العلوم في قراءة تاريخ وفكر وحضارة الإسلام قراءة مشوهةً يحسبها جديدة، ومحرفةً يظنها حديثة.

إن طالب العلم الشرعي اليوم مطالب بأن يتقن لغة العصر من معرفة باللغات الحية المعروفة، ومن إتقان لتقنية الاتصال من استعمال جيد للإنترنيت وما فيه من أساليب التواصل الاجتماعي كالفيسبوك والتويتر وغير ذلك، لأن الخصم مهما كان انتماؤه واتجاهه وظف لغات العصر كالفرنسية والإنجليزية فقرأ بها فكر الغرب وتشبع به ومن ثَمَّ حاول أن يُسقطه على تاريخ وحضارة الإسلام، فكانت القطيعة وكان الصراع بين القديم والجديد، كما أن هذا الخصم ماهر حاذق لوسائل الاتصال الحديثة يعرف كيف يوظف كل ذلك من أجل تمرير رسالته التي تنادي بالخصومة بين العلم - أي علم كان.

***

المبحث الثاني:

العلوم التي يجب الاطلاع عليها بالنسبة للمنتصر للقرآن الكريم في هذا العصر

تبدو حاجة علم الإنتصار لكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه إلى ثقافة العصر ومناهج البحث فيه ملحة وضرورية للمشتغل به، لأن القارئين الجدد للأصليْن العظيمين لم يتورعوا عن إسقاط كل منهج بحث جديد طارئ على القرآن والسنة بدعوى التجديد والتنفيس قلت بل التحريف والتبخيس.

فمن هذه المناهج الغربية الموظفة توظيفا شائنا في قراءة القرآن وعلومه والسنة وعلومها المنهاج المادي الماركسي الذي تولى كبر استعماله في المغرب مثلا عبد اللَّه العروي الذي حصل على الدكتوراه في باريس، وألف الإيديولوجية العربية المعاصرة، والعرب والفكر التاريخي والسنة والإصلاح وغير ذلك قارئا تاريخ وثقافة الإسلام قراءة مادية جدلية تعلي من شأن الواقع وتحكمه في حركة الفكر والتاريخ والدين.

ومن المناهج الموظفة في القراءة الجديدة للقرآن والسنة منهاج تحليل الخطاب القائم على المعرفة باللسانيات العلم الوليد حديثا في أوروبا مع دوسوسير وغيره، والذي أفرز عدة مناهج فرعية تقوم على التفكيك ودراسة البنية والجزء، وهكذا تبنى البنيوية جماعةٌ من القارئين الجدد للنص القرآني من بينهم محمد أركون الذي درس في السربون ودرس فيه، وأغدقت عليه فرنسا مالا وفيرا، وكان نظر أركون للقرآن الكريم على أنه نص ديني ذو حمولة طقوسية فيها رموز وعلامات ودلالات وإشارات ينبغي أن تدرس بُناها أو بنيتها أو بنيويا، أو قل ما شئت من الألفاظ والمصطلحات التي يحذق هؤلاء اختراعها وكأنهم أهل لغة واشتقاق؟؟

وقد يلحق بعضُ علماء المناهج . بمناهج تحليل الخطاب الوجودية والسريالية والرمزية والحداثة وما بعد الحداثة، وإن كنت أعدها مذاهب في الأدب - في سلسلة من المناهج تكثر مسمياتها ولا طائل تحتها اللهم إلا التكثر والتعالم، بيْد أنها تفضي في الغالب إلى القول بلذة النص وأنه أهم من منشئه أو قائله أو مؤلفه، ولذلك قال المتبنون لهذه المناهج بموت صاحب النص، وأن النص لا دلالة له نهائية في ذاته، فكل

قراءة تفضي إلى قراءة وهكذا إلى ما لانهاية، تأمل معي لو قال قائل هذا في القرآن الكريم أو يحكم بموت. . .تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

ولقد فضح أصحاب هذه النظريات والمناهج في القراءة الدكتور عبد العزيز حمودة من مصر وهو المطلع الخرِّيت على الفكر الغربي وعلى هذه المناهج في كتبه السيارة المعروفة.

ومن المناهج الموظفة في القراءة الجديدة للقرآن والسنة في هذا العصر المنهاج العقلي القائم على تحكيم مقولات العقل المجرد فيما نقل من روايات وأخبار في القرآن والحديث، ودفع ما قد ورد في صحيح المنقول ومعارضته زعموا بصريح المعقول، وكلا إنما هو التشهي والهوى فما رجحه الرأي والهوى فهو معقول في نظر من تبنى هذا المنهاج، ومالم يرجحه الرأي والهوى فهو من الأساطير والخرافات التي يرويها رجال الدين الذين يجب أن ننقذ الشباب من ألاعيبهم ونسكِت أصواتهم كما يقول حداثي معروف. . .وممن وظف هذا المنهاج الجابري الذي يقال إنه حفظ القرآن الكريم صغيرا وحرفه كبيرا. . .وقال بقول عظيم

بخصوص نبينا محمد بن عبد اللّٰه إذ افترى عليه فرية شرب الخمر قبل نزول تحريمها، فيما كتبه في كتيبات صغيرة كان يخرجها تباع عندنا في المغرب بأبخس الأثمان ترويجا لها سماها سلسلة فكر ونقد.

لقد تهيأ لنا القول فيما قد مضى بأن الاطلاع على معارف العصر وعلومه الجديدة القديمة ضرورة شرعية وفريضة بحثية، لتكوين وتخريج الباحث المسلم الحاذق بطرق الإنتصار للأصلين العظيمين: الكتاب والسنة، لكن ماهي هذه المعارف التي يجب أن يتسلح بها المنتصر المنافح عن حياض الإسلام؟؟ وكيف يتهيأ سبيل تحصيلها أعن طريق التكوين التعليمي الرسمي في الجامعات؟؟ أم يكون التكوين ذاتيا، والطلب شخصيا؟؟؟

إن الذي صح عندي من العلوم التي ينبغي للمنتصر أن يطلع عليها ما يلي:

١-**الفلسفة**: ولسنا هنا نروم ذكْر العلم أو الفن حسب درجة الحاجة إليه، أو الميل إليه والترغيب فيه، وكلا فإن المقصود ذكر العلم كيفما اتفق، والفلسفة - وأُخبرُ عما هو موجود عندنا

في المغرب، تدرس في مراحل الثانوية قبل الباكليوس بسنتين، ويطلع الطالب على ماهيتها وتاريخها وأبرز نظرياتها والمشتغلين بها في اليونان، ثم يُسار ـ بالسين ـ بعدُ إلى ما يسمى عندهم بالفلسفة الإسلامية مع الفارابي وابن سينا وابن رشد القرطبي وغيرهم ممن له ميل إلى التفلسف كابن عربي الحاتمي صاحب الفصوص والفتوحات المكية وغير ذلك، ثم يُصار ـ هذه بالصاد دون الأولى ـ إلى الفلسفة الحديثة مع نهوض أوربا وثورتها على الكنيسة وتأليهها للإنسان، مع ديكارت وهيغل وكانط وغيرهم ممن هو فوقهم أو أدون منهم حتى يوصل إلى العصر الحديث مع الفلسفة المعاصرة مع رموزها وأعلامها وأقطابها في المشرق والمغرب والغرب، ثم إذا صار الطالب إلى الجامعة في كليات الآداب وتخصص في الدراسات الإسلامية، أطلتْ الفلسفة من مواد ليست تعطى اسمها تحرزا من أن يقال طالب شرعي يدرس الفلسفة؟؟؟ إذ يدرس الطالب الشرعي عندنا: مادة الفكر الإسلامي التي تقابل ـ كما أظن ولست أحقق هذا ـ في المشرق مادة الثقافة الإسلامية... ثم مادة علم الاجتماع ومادة علم النفس ومادة تاريخ الفكر وهي ألصق بالفلسفة وأدخل فيها من هاتين اللتين سبقتا قبلُ.

٢/ اللسانيات: وهو الذي قد يقال له علم اللغة، ولعل بوادره كانت مع دوسوسير، ثم تطورت مع غيره من علماء اللغة في الغرب، وقد يلحق بها التفكيكية والبنيوية والصوتيات، والطالب الجامعي عندنا ـ في المغرب ـ المتخصص في الدراسات الإسلامية يدرس هذه المادة في ساعتين كل أسبوع ويختبر فيها وقد يرسب إذا نقص معدله فيها، وفي هذا العلم قد يطلع الطالب على مناهج تحليل الخطاب التي سبقت الدلالة عليها، وقد لا يطلع عليها بصورة مفصلة إلا في مادةِ:

٣/ الأدب العربي: وتُعنى هذه المادة بدراسة الظواهر الأدبية ومذاهب الأدب، والتيارات القديمة والمعاصرة في النقد في مجالات فن القول المعروفة، كالشعر والرواية والمسرحية والخطبة والنثر عموما وغير ذلك من فنون القول، والطالب عندنا في الدراسات الإسلامية يدرس هذه المادة في سنوات التخصص جميعا، وقد يختتم مساره فيها بدراسة مادة الأدب الإسلامي الحديث الطارئ الجديد الذي فرحنا له، وأهمية اطلاع المنتصر على الأدب العربي واتجاهاته وتياراته

تكمن في معرفة المناهج الموظفة حاليا في قراءة النصوص ومعرفة مذاهب الأدب من وجودية وسريالية ورمزية وحداثة وما بعد الحداثة وعبثية وررومانسية وغير ذلك.

٤/ **علوم مختلفة**: تؤهل المنتصر لكي يخوض في كل شيء يمكن أن يكون سبيله لرد الاعتبار وتحقيق الإنتصار: ومنها: العلم بالتاريخ القديم والحديث والجغرافية وكنا درسناها في تخصص الدراسات الإسلامية، درسنا منها ما يتعلق بجغرافية العالم الإسلامي واستفدنا من ذلك فائدة عظيمة. والعلم باللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية وهما أهم لغات العصر، وكان مقررا علينا في تخصص الدراسات الإسلامية إحدى اللغتين فاخترنا الفرنسية لذيوعها في شمال إفريقيا، والعلم بتاريخ الحضارة الإسلامية في عمرانها وطبها وهندستها وتاريخ العلوم فيها .

وسبيل تحصيل هذه العلوم:

١/ **التعليم الرسمي في الثانوية** أو الجامعة، وهو كائن معمول به كثير من البلاد العربية والإسلامية، وهو أضبط في التكوين والطلب والتعلم، لأنه نظامي ممنهج وفيه اختبارات

ورسوب ونجاح وتقهقر وفوز وتفوق، وله مناهج وكتب وأساتذة من أهل التخصص والدربة والكفاءة العلمية.

٢/ التثقيف الذاتي: وهو متاح لكل من له همة عالية، بشرط المعرفة بطرق التثقيف ووسائله من كتب مقررات، ومحاور لكل علم لابد من الإطلاع عليها، ولقد هيئ ذلك في هذا العصر وأتيح ما لم يتح في العصر الماضي، وذلك من خلال الدروس الإضافية المؤدى عنها، والدروس عبر وسائل الاتصال الحديثة من إعلام مرئي في قنوات متخصصة، أو عبر النت، أو في حلقات ومجالس خاصة أو عامة قد تعقد في الدور، أو المساجد أو المنتديات أو غير ذلك، أو عبر الكتب لمن ابتلي بالقراءة والمتابعة لكل جديد في عالم المطبوعات والمنشورات وقليلٌ ماهم.

وجماعُ الأمر في هذه الوسيلة الهمة العالية والعزم الماضي والإرادة النافذة، وكم رأينا من عالم منتصر وصل إلى أعلى الغايات وصار موسوعيا لنفسه أو لوحده ولم يعرف جامعة ولا امتحانا ولا شهادة ولا عصا أستاذ أو شيخ؟؟؟

* * *

المبحث الثالث:

مجالات التطوير في الدراسات القرآنية الخاصة بعلم الانتصار للقرآن الكريم

لقد غدا تطوير الدراسات القرآنية في العصر الحديث ضرورةً تستوجبها ظروفُ المرحلة التي يمرُّ بها الفكر الإسلامي الحديث، وذلك من أجل سببين رئيسيَّيْن:

السبب الأول: وجود تحديات فكرية من الداخل: ونعني بذلك أن الأمة الإسلامية أمة مستهدفة من داخل حصونها، إذ نبتت فيها زمرة من المفكرين قد يطلقون على أنفسهم أنهم إسلاميون وقد لا يطلقون - خاضت في علوم القرآن والتفسير بقولٍ مؤتفكٍ يؤْفكُ عنه منْ أُفك، وانتشر عنهم من الآراء بخصوص القرآن الكريم علوما وتفسيرا ما لم يكن معروفا في الدراسات الإستشراقية أو الدراسات النصرانية الأخرى الحاقدة !!

السبب الثاني: وجود تحديات فكرية من الخارج: ذلك أنَّ القرآن الكريم قد غدا في هذا العصر مجالا خصبا لتطبيق كلِّ

نظرية غربية وافدة، وأقبلت عليه مراكز البحث في الغرب دراسة وتحليلا، وأعدت لذلك باحثين وُصفوا بـ«الأكاديميين»، أو «العِلْميِّين»، أو «طُلاَّب الحقيقة»، أو قيل فيهم: «باحثون متجردون»!!!

فمن أجل ذلك كله كان لزاما على ذوي الاختصاص من أهل القرآن في هذه الأمة، النظر في مجالات تطوير الدراسات القرآنية، مسترشدين بسنة التطور التي خلق اللَّه عليها الخلق والخليقة، آخذين من علوم العصر أجود ما فيها مما لا يتعارض مع بأيدينا من هدْي وسنة، موظِّفين ذلك فيما يعود على الأمة بالنفع العميم والخير الكثير.

ومن الدراسات القرآنية التي يمكن أن يدخلها التطوير وفق ما بيناه آنفا - مجال علم الانتصار للقرآن الكريم، وذلك من خلال الآتي:

أولا: تكوين طلبة جامعيين مؤهلين لممارسة فن الانتصار للقرآن الكريم: وإنما وصفنا الانتصار للقرآن الكريم بالفن، لأنه ممارسة لا يمكن لأي أحد أن يتقنها ما لم يكن ذا مقدرة خاصة، وثقافة خاصة، وموهبة ربانية وفتح إلهي.

ونرى أن يكون تكوين هؤلاء الطلبة الذين هُمْ من نوع خاص، في سنوات الإجازة والتخصص العالي بعدها، وذلك بأن يختار لهذه «المهمة الصعبة» القائمة على الاحتساب وطلب المثوبة، من له باع طويل في العلم الشرعي، مع قابليته للنهل من علوم العصر ومعارفه، ذلك لأن من طلبة العلم الشرعي من يشعر بالاشمئزاز إذا قيل له مثلا تعلم من اللسانيات ما تستطيع بواسطته فهم كلام من يقرأ القرآن الكريم قراءة لسانية غير راشدة من أجل ردِّ القراءة وبيان عُوارها وشذوذها !!!.

ثانيا: إصلاح مناهج التربية والتعليم في الجامعة التي تُدرَّس فيها المواد الشرعية: وذلك باقتراح مواد لعلوم العصر ومعارفه، تكون مُعينةً للطالب الشرعيِّ على الانتصار للقرآن الكريم، و يكون التكوين فيها تكوينا مُساندا، قد تقلُّ ساعاتُ الدراسة فيه، لكن يختبر الطالب في المادة المسانِدة احتبارَه في مواد التخصص الأصلي، ومن العلوم العصرية التي نستحب للمنتصر للقرآن الكريم الإلمام بها ما قد سبق التنبيه عليه آنفا في المبحث السابق.

ثالثا: اقتراح موضوعات للرسائل العلمية -من ماجستير ودكتوراه- في الأقسام المتخصصة في الدراسات القرآنية، يكون محورها الدراسة الموضوعية لما تقذفه المطابع من كتبٍ وبحوث الطرح الحداثي المتناول لما يسميه: «الظاهرة القرآنية» تناولا «جديدا»، أو «تجديديا»، أو «وفق أحدث نظريات الدرس اللساني»، أو «الدرس الفلسفي»، أو «الدرس التاريخي»، أو «الدرس الأدبي»!!!

ولابد من اختيار أحسن الطلبة المتخصصين للعمل في هذه المشاريع العلمية المقترحة، بحيث لا يكْملُ لهذه المهمة، وليس يقوم لها إلا من كان ذا نية صالحة فيها، مستكملا لشروط النهوض بها.

رابعا: إنشاء كراسي علمية تابعة للأقسام المتخصصة في الجامعات ذات الشعب الشرعية، تكون الغاية منها رصد كل ما يصدر عن الدراسات القرآنية من بحوث حداثية ذات توجهات شاذة، ومحاولة الانتصار للقرآن الكريم، وردّ الاعتبار للمقرر في قواعد تفكيرنا، ومناهج دراستنا لكتاب ربنا جل وعلا.

خامسا: لابد لكل من كتب في مجال الدراسات القرآنية في هذا العصر، أن يستحضر فيما يبحث فيه، «محاولات الفكر الحداثي» تجاه القرآن الكريم هدما لقواعد تفسيره، ونسفا للعلوم المساعدة على ذلك، وبذلك يتطور الدرس القرآني الحديث، ويكون في مستوى تحديات المنعطف التاريخي التي تحياه الأمة الإسلامية، مستجيبا لظروف المرحلة، يعيش روح العصر، ويتنفس هواء بيئته ومحيطه.

ولقد جرب المجرِّبون اليومَ أن يكتبوا في الدرس القرآني كتابات تُعيد نسْج روح عصور قد خلت، فلم تؤثِّر هذه الكتابات في الدراسات القرآنية تطويرا ولا حركية ونماءً، وكانت صيحات في واد سحيق، ليس يُؤبه لها ولا يُلتفت إليها، وجرَّب مجربون آخرون أن يكتبوا دراسات قرآنية جديدة راشدة نابعة من روح العصر، تستحضر تحديات الطرح الحداثي بحمولته الثقافية الغربية، وبمرجعيته «العلمية» التي تستند كما يدَّعي إلى علوم العصر ومعارفه من لسانيات وفلسفات وضعية واتجاهات أدبية وفكرية حديثة وافدة - وتجيبُ منتصرةً للقرآن الكريم عن شبهات هذا الطرح الشاذ

بالحجة العقلية، والدليل الصحيح، والعلم الحديث الراشد، فكانت النتائجُ حسنةً، والثمارُ بانعةً، والإقبالُ على مِثل هذه الدراسات منقطعَ النظير.

سادسا: عقد مؤتمرات وندوات علمية يكون محورها التصدي للنظريات الغربية المراد تنزيلها على القرآن الكريم، والنيل من قداسته ومكانته، والتجاسر على ألفاظه ومعانيه، والتَّسوُّر على علومه وفنونه التي فنيتْ أعمارُ العلماء في تقعيدها وتأصيلها، وانقضت أيامُهم في تسطيرها وتطريزها في كتبٍ بقيت على وجه التاريخ نجوما ساطعة، ومنارات في سماء العلم هادية.

سابعا: إنشاء مراكز للبحث العلمي قد تكون تابعة للجامعات التي فيها شُعب للعلم الشرعي، يكون من أهدافها البحث في سُبل الانتصار للقرآن الكريم، ومنهج ذلك، والعلوم المساعدة عليه، كما يكون من مهامها -من أجل تطوير الدرس القرآني المعاصر- جعْلُ الطرح الحداثي المعاصر بخصوص القرآن الكريم مجالا لتسليط الأضواء الكاشفة، ونشر ذلك في بحوث محكّمة تتبنى هذه المراكز

العلمية الإشراف على النشر والتوزيع والتبادل بين مختلف الجامعات والمراكز العلمية ذات الصلة الوثيقة بموضوع النشرة العلمية، والإصدار العلمي الرصين.

ثامنا : عقد دورات علمية لتدريب الباحث الشرعي المتخصص في الدراسات القرآنية على الانتصار للقرآن الكريم، وينبغي أن يؤطر هذه الدورات طائفة من الخبراء الشرعيين المتخصصين في الدرس القرآني، والناهلين من معارف العصر وعلومه ما يجعلهم متصدِّرين في هذا الميدان، قائمين بأعبائه أحسن قيام.

تاسعا : إصدار مجلات علمية محكّمة، عن جهات علمية موثوق بها، يشرف عليها هيئة من كبار أهل العلم ممن له باع واسع في الدراسات القرآنية، ومعرفة كبيرة بثقافة وعلوم العصر الحديث، ويكون من بين أهداف هذه المجلات نشر البحوث العلمية التي جاوزت مرحلة التحكيم العلمي، والتي يكون موضوعها الانتصار للقرآن الكريم في جزئية تشكل شبهة حداثية، أو فِرية عصرانية أُبرزتْ على أنها مؤسَّسةٌ على عِلْم إنساني مستورد، أو على نظرية جديدة وافدة !!

❊ ❊ ❊

الخاتمة

إن الحديث عن تطوير الدراسات القرآنية ضرورةٌ يوجبها أمران مُهمَّان:

الأول: شرفُ المتعلق وهو القرآن الكريم، كتاب ربنا وهدي السماء إلى الأرض، وشريعته إلى الناس طُرًّا التي ارتضاها حكَمًا وقانونا، ونظامَ حياة ومنهاجَ تشريع.

الثاني: وجود تحديات فكرية معاصرة داخلية وخارجية، توجب التفاعل معها، جوابا عن «أسئلتها القلقة» التي تحاول «تهميش الإسلام، ونسف مرجعيته العليا قرآنا وسنة، وهديا وتشريعا.

وإذا كانت مجالات الدراسات القرآنية رحبة واسعة فإنَّ من أكثرها خطرا وأعظمها مكانةً مجال الانتصار للقرآن الكريم، وهو فنٌّ قلَّ من يحسن الكلام فيه في هذا العصر- مع كثرة القالين فيه والمتصدرين على منابره، وهو أيضا مجال خصب لممارسة التطوير المنشود في الدرس القرآني المعاصر.

ولقد حاولت هذه المشاركة رصد أهم مجالات التطوير التي يمكن أن تكون في علم الانتصار للقرآن الكريم، وقبل أن تنبري مفصلةً القول في ذلك، كان التعريف بمعنى علم الانتصار للقرآن الكريم، وبيان أهميته، وإبراز حاجة الدراسات القرآنية المعاصرة إليه، ومِنْ ثَمَّ عرضتْ هذه المشاركة في المبحث الثاني للعلوم التي يجب الاطلاع عليها بالنسبة للمنتصر للقرآن الكريم في هذا العصر، وذلك لونٌ من ألوان التطوير التي يمكن لعلم الانتصار للقرآن الكريم أنْ يساهم بها في تجديد النظر في مجال الدراسات القرآنية في العصر الراهن.

ولقد عرض المبحث الثالث من هذه المشاركة- وكان لُبَّ لبابها- لمجالات التطوير في الدراسات القرآنية الخاصة بعلم الانتصار للقرآن الكريم فلخَّصها في الآتي:

أولا: تكوين طلبة جامعيين مؤهلين لممارسة فن الانتصار للقرآن الكريم.

ثانيا: إصلاح مناهج التربية والتعليم في الجامعة باستحداث مواد جديدة في علوم العصر ومعارفه.

ثالثا: اقتراح موضوعات للرسائل العلمية في موضوع الانتصار للقرآن الكريم.

رابعا: إنشاء كراسي علمية تعتني بقضية الانتصار للقرآن الكريم.

خامسا: استحضار علم الانتصار للقرآن الكريم في الكتابات القرآنية المعاصرة.

سادسا: عقد مؤتمرات وندوات علمية يكون محورها التصدي للنظريات الغربية المراد تنزيلها على القرآن الكريم.

سابعا: إنشاء مراكز للبحث العلمي مهتمة بعلم الانتصار للقرآن الكريم.

ثامنا: عقد دورات علمية لتدريب الباحث الشرعي المتخصص على الانتصار للقرآن الكريم.

تاسعا: إصدار مجلات علمية محكّمة، عن جهات علمية موثوق بها.

وبعدُ، فهذا الذي فتح به الفتاح العليم، ونسوق جملة من التوصيات في آخر هذه المشاركة، تكون مساهمةً في إثراء

موضوعها، فمن ذلك:

أولا: تأسيس مركز أو هيئة أو مؤسسة تعنى بالإنتصار لكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه.

ثانيا: تأصيل علم الانتصار للقرآن الكريم، والتعريف به والكلام على دقائقه وتفاصيله وجزئياته، وما ينبغي أن يكون عليه الداخل فيه والمتخرج به.

ثالثا: انتداب جماعة من المتخصصين ممن أفنى في ذلك عمره وأبلى فيه بلاء حسنا للكتابة فيما نسميه علم الإنتصار للأصلين العظيمين: الكتاب والسنة.

رابعا: إدراج هذا العلم في مقررات الدراسة في الجامعات العربية والإسلامية والدولية في أقسام الدراسات الإسلامية، وتدرسيه مادة قائمة الذات كتبا ومناهج.

خامسا: وأقترح أخيرا دعوة أولي الفضل من المشايخ لعرض تجاربهم في الإنتصار للكتاب والسنة، وقصِّ ذلك وحكايته فلعل في ذلك ما يعضد هذا العلم ويساهم في توضيح موضوعه ومقاصده وعناصره.

إن علم الانتصار للقرآن الكريم في هذا العصر مجالٌ خِصب لتطوير الدراسات القرآنية، وذلك بما يمكن استحداثه من مواد العلوم العصرية في أقسام التخصص في الدرس القرآني، وبما يمكن طرقه من موضوعات قرآنية جديدة قلَّ فيها القائلُ، وعزَّ فيها الدارسُ الباحثُ، حتى إذا تحقق ذلك، أمكن الحديث عن نجاح تجربة التطوير المنشود في الدرس القرآني المعاصر.

والحمد للَّه أولا وأخيرا وصلى اللَّه وسلَّم وبارك على محمَّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

***

مصادر البحث ومراجعه

حوار في علوم مهمة للقائم بالانتصار للقرآن الكريم د/ محمد بن زين العابدين رستم، حاوره د/ حاتم القرشي في ملتقى أهل التفسير على الرابط التالي: http: //www.tafsir.net/vb/tafsir27087/

لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور دار صادر بيروت بلا تاريخ.

مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

نحو إنشاء علم جديد من علوم القرآن الكريم (علم الانتصار للقرآن الكريم) لعبد الرحيم -هكذا مهملا من غير تعيين- بحث منشور على ملتقى أهل التفسير انظر الرابط التالي/http: //www.tafsir.net/vb/tafsir4632 /

التأويل بين المصطلح القرآني الأصيل والطرح العلماني الدَّعيِّ[١]

المقدمة

إنَّ الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لاإله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في اللَّه حق جهاده حتى أتاه اليقين، صلى اللَّه عليه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد: فلقد أنزل اللَّه كتابه المبين هدى وبشرى للذين آمنوا وكانوا يتقون، ومن أجل أن يكون هذا الكتاب المبين مفهوم المقاصد والغايات، مذلَّل المعاني والأهداف، متعبدا

(١) بحث مقدَّم إلى النَّدوة الدولية «المصطلح القرآني وأثره في تأصيل المعرفة وضبط الفهم» جامعة ابن زهر كلية الآداب أكادير المغرب ٢٠١٢م.

به ومنهاجَ الفرد المسلم في هذه الحياة الدنيا، تشكَّلت حوله قواعد وضوابط تنير الطريق لفهمه فهما صحيحا، وتضبط عملية الفهم من أن يتطرق إليها ما ليس مقصودَ اللَّه جلَّ وعزَّ ولا مِنْ مراده من هذا البيان المعجز، والتنزيل المحكم.

ولقد كان مِنْ بين هذه القواعد الضابطة لعملية فهم النص القرآني، قواعد التفسير وشروطه ومصطلحاته ومفرداتُه، وكان من هذه المصطلحات **مصطلح التأويل - الذي يعدُّ مصطلحا قرآنيا أصلا ومحتدا - قد حمِّل عبر تاريخ الدراسات القرآنية - من المعاني الطارئة، ورُكب به الصَّعبُ والذَّلولُ، وحرِّفت به مقاصدُ الوحي، وأُلحقت بواسطته بالشَّريعة الغراء المحفوظة تفسيراتٌ باطلة، وأحكامٌ في دين اللَّه جائرة.**

لقد كان هذا المصطلحُ القرآني يعني في استعمال السلف تبعا للمفهوم المتبادر منه كتابا وسنة: أحد معنيين: الأول: بيان مراد المتكلم، **وهذا هو التفسير**، والثاني: الموجود الذي يؤول -يرجع- إليه الكلام، ودلت تصرفاتُ أئمة التفسير من سلف هذه الأمة كالطبري وغيره أنه يعنون بتوظيف التأويل أثناء التفسير، ما عناه القرآنُ الكريم، وأشار إليه الرسولُ

الكريم ﷺ في بعض ما قد ورد عنه كقوله لابن عباس: «اللهم فقه في الدين، وعلمه التأويل».

ولبثَ أمرُ المسلمين مجتمعا على التزام المصطلح القرآني في فهم لفظ التأويل واستعماله، حتى **نبتتْ فيهم نابتةُ سوء**، تأخر بها الزمانُ، وبعُدتْ بها الشقةُ عن الهدي القرآني والمنهاج النبوي في تفسير القرآن والوقوف على معانيه وأسراره، فزعمتْ أن **التأويل: صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى مرجوح لقرينة تدل عليه.**

لقد سبَّب فشُوُّ المعنى الحادث المتأخِّر للتأويل بلبلةً في التناول الصحيح لمعاني القرآن الكريم بالنسبة لمن نصب نفسه لذلك، إذ غابت الدلالةُ القرآنية للمصطلح، وحضرتِ الدلالةُ الجديدةُ الطارئة له، من غير لغة مُسعفة ولا هدي ربانيٍّ حاصل، فارتُكبت في عصور مختلفة حماقاتٌ نُسبت إلى الإسلام ظلما وعدوانا، وخرجت اجتهادات في **هذا العصر خاصة** قيل إنها من الإسلام افتراءً وكذبا وزورا.

وتحاول هذه المشاركة في هذه الندوة العلمية المباركة. في **بيان لموضوعها** - أنْ تجلي الصفحة المشرقة لمصطلح التأويل

كما وردت تفاصيلُ معالمها مبينةً في الكتاب والسنة، كما أنها تحاول أن تقف عند الطرح العلماني المعاصر لهذا المصطلح الذي روَّج به هؤلاء لمقولاتهم وآرائهم التي تخرج عن روح الإسلام وجوهره.

ولقد بسطت القولَ في موضوع هذه الدراسة وتفاصيلها في مبحثين:

المبحث الأول: مصطلح التأويل في اللغة والقرآن والسنة واستعمال السلف وفيه:

المطلب الأول: مصطلح التأويل لغة.

المطلب الثاني: مصطلح التأويل في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: مصطلح التأويل في السنة النبوية.

المطلب الرابع: مصطلح التأويل عند السلف.

المطلب الخامس: حدوث المعنى الطارئ لمصطلح التأويل.

المبحث الثاني: مصطلح التأويل في الطرح العلماني المعاصر وفيه:

المطلب الأول: مفهوم التأويل عند العلمانيين.

المطلب الثاني: أهمية توظيف التأويل في قراءة النص الديني عند العلمانيين.

المطلب الثالث: مبررات الإتجاه العلماني في تحريفه مصطلح التأويل عن دلالته القرآنية.

المطلب الرابع: أثر توظيف التأويل بالمنظور العلماني في قراءة النصوص.

المطلب الخامس: نماذج من تأويلات العلمانيين للنص القرآني.

خاتمة فيها أهم نتائج الدراسة وخلاصاتها.

واللَّهَ أسألُ أن ينفع بهذه الدراسة، وأن يكتب لها الحظوة والقَبول، وأن تكون خادمة للبحث العلمي، منتصرةً لكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

المبحث الأول:

مصطلح التأويل في اللغة والقرآن والسنة واستعمال السلف

هذا المبحث معقودٌ لبيان أصالة مصطلح التأويل في الثقافة الإسلامية لغةً وقرآنا وسنة، وتوظيفا له من قِبل السَّلف، كما أنه معقودٌ للحديث عن الدلالة الحادثة له، وملابسات ذلك، مما غيَّب الدلالةَ القرآنية ونأى بها عن الإستعمال أثناء الكلام على آي محكم التنزيل، وتقريب معانيها إلى الناس.

المطلب الأول: مصطلح التأويل لغة

مدار كلمة (أول) في اللغة على الرجوع إلى الأصل، والصيرورة إلى ابتداء الأمر ومنتهاه.

قال ابن منظور: «والأول الرجوع: آل الشيء يؤول أولا ومآلا رجع، وأول إليه الشيء رجعه. ويقال طبخت النبيذ حتى آل إلى الثلث أو الربع أي رجع»[1].

(١) ابن منظور لسان العرب دار صادر بيروت بلا تاريخ ١١/ ٣٢.

وجعل ابن فارس اللغوي مادة أول ترجع إلى أصلين: ابتداء الأمر وانتهاؤه.[١]

وإذا كان مدار كلمة (أول) في اللغة على الرجوع، فإنَّ تأويل الكلام يعني «الرجوع به إلى مراد المتكلم، وهو على قسمين: الأول: بيان مراد المتكلم، وهذا هو التفسير، الثاني: الموجود الذي يؤول إليه الكلام، أي ظهور المتكلم به إلى الواقع المحسوس»[٢].

❃ ❃ ❃

---

(١) ابن فارس معجم مقاييس اللغة تحقيق شهاب الدين أبو عمرو دار الفكر بيروت طبعة سنة ١٩٩٤م ١/ ٩٨-١٠٠.

(٢) د/ مساعد الطيار مفهوم التفسير والتأويل والإستنباط والتدبر والمفسر دار ابن الجوزي الرياض الطبعة الثانية شوال ١٤١٧هـ ص ٩١.

المطلب الثاني:
مصطلح التأويل في القرآن الكريم

إن المتأمل في استعمالات القرآن الكريم لمصطلح التأويل وملحقاته، يجد أن معاني هذا المصطلح لا تخرج عن أحد المفهومين التاليين:

الأول: ما تؤول إليه حقيقة الكلام، وهو الغالب على معنى لفظ التأويل في موارده في القرآن، وقد ورد في تأويل الرؤى ثمان مواضع من سورة يوسف(١).

(١) الموضع الأول: في قوله تعالى: «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث» سورة يوسف الآية ٦.

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾. سورة يوسف الآية ٢١.

الموضع الثالث: في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ سورة يوسف الآية ٣٦.

الموضع الرابع: في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾. سورة يوسف الآية ٣٧.

الموضع الخامس: في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾. سورة يوسف الآية ٤٤. =

وورد في سورة الكهف موضعان في قصة الخضر وموسى، وهما قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[2]، «والمعنى: سأنبئك بحقيقة ما رأيت من الأمور العجيبة التي لم تصبر عليها»[3].

وورد قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[5]، «وهو بمعنى

= الموضع السادس: في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ سورة يوسف الآية ٤٥.

الموضع السابع: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾.. سورة يوسف الآية ١٠٠.

الموضع الثامن: في قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ سورة يوسف الآية ١٠١.

(١) سورة الكهف الآية ٧٨.

(٢) سورة الكهف الآية ٨٢.

(٣) د/ مساعد الطيار مفهوم التفسير والتأويل والإستنباط والتدبر والمفسر مصدر سابق ص٩٨.

(٤) سورة الأعراف الآية ٥٣.

(٥) سورة يونس الآية ٣٩.

الحقائق التي أخبر بها من الثواب والعقاب»[١].

وورد التأويل في موضعين بمعنى العاقبة في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[٣].

الثاني: التفسير: بمعنى تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهر الكلام أو خالفه، «ويكون التأويل والتفسير عندها بمعنى متقارب أو مترادف»[٤].

وبقي من الآيات التي ورد فيها مصطلح التأويل في القرآن الكريم، قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي

---

(١) د/ مساعد الطيار مفهوم التفسير والتأويل والإستنباط والتدبر والمفسر مصدر سابق ص٩٨.

(٢) سورة النساء الآية ٥٩.

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٥.

(٤) إبراهيم محمد طه بويداين التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة القدس قسم الدراسات الإسلامية ٢٠٠١م غير منشورة ص٢٧.

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾[١].

ولقد اختار شيخ الإسلام ابن تيمية «أن لفظ التأويل في الآية يحتمل وجهين صحيحين، كلاهما حقٌّ، وهما واردان عن السلف، الأول: أن التأويل بمعنى التفسير، وبهذا يكون الراسخون يعلمون تأويل القرآن، أي تفسيره، ويكون الوقف على هذا القول على قوله تعالى: «والراسخون في العلم»، وتكون الواو عاطفة، الثاني: أن التأويل بمعنى ما تؤول إليه حقيقة الأشياء مما استأثر اللَّه بعلمه، من كيفياتٍ ووقتٍ وقوعٍ، مما أخبر عنه اللَّه في كتابه من أخبار القيامة وأشراطها، أو غيرها من المغيَّاب، ويكون الوقف على هذا القول، على لفظ الجلالة من قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وتكون الواو مستأنفة أي أنَّ جملة: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ جملة مستأنفة»[٢].

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧.

(٢) د/ مساعد الطيار مفهوم التفسير والتأويل والإستنباط والتدبر والمفسر مصدر سابق ص١٢٨ - ١٣٠.

المطلب الثالث:

مصطلح التأويل في السنة النبوية

ورد بعض استعمالات مصطلح التأويل في قول رسول اللّه ﷺ لابن عباس: «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل»[(١)]، قال الطبري: «وأما قوله ﷺ: «وعلمه التأويل» فإنه عنى بالتأويل ما يؤول إليه معنى ما أنزل اللّه تعالى ذكره على نبيه ﷺ من التنزيل، وآي الفرقان، وهو مصدر من قول القائل: أولت هذا القول تأويلا . .»[(٢)].

كما ورد استعمال بعض مشتقات مصطلح التأويل في حديث عائشة ﵂ قالت: «كان رسول اللّه ﷺ يكثر أن يقول

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك - دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١١هـ - في معرفة الصحابة باب ذكر عبد اللّه بن عباس برقم ٦٢٨٠ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وصححه الذهبي في تلخيصه.

(٢) الطبري تهذيب الآثار مسند ابن عباس تحقيق محمود شاكر مكتبة الخانجي القاهرة ١/ ١٨٣.

في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»[١].

قال ابن حجر في شرحه: « قوله: « يتأول القرآن» أي يفعل ما أمر به فيه»[٢] يعني من التسبيح والحمد والإستغفار.

كما ورد استعمال مشتقات مصطلح التأويل في قوله ﷺ: «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برُطب من رطب ابن طاب، فأوَّلتُ الرفعةَ لنا في الدنيا والعافية في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»[٣].

والمتأمل في هذه الأحاديث يجد أن المقام المستعمل فيه اصطلاح التأويل يعني أحد معنيين: التفسير، أو وقوع المخبر به أو المأمور به.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب التسبيح والدعاء في السجود برقم٨١٧.

(٢) ابن حجر فتح الباري دار الفكر بيروت بلا تاريخ ٢/ ٢٩٩.

(٣) أخرجه مسلم - دار الفكر بيروت ١٤٠١هـ - في كتاب الرؤيا ١٥/ ٣٠ و٣١.

المطلب الرابع:

مصطلح التأويل عند السلف

درج سلف هذه الأمة -قبل حدوث المعنى الطارئ لمصطلح التأويل- على إطلاق التأويل على أحد معنيين: المعنى الأول: التفسير، والمعنى الثاني: على ما تؤول إليه حقيقة الكلام، ومن الشواهد التي يمكن الإستدلال بها على المعنى الأول:

في جيل الصحابة: ما أخرجه الترمذي بسنده إلى أبي عمران التجيبي قال: «كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجلٌ من المسلمين على صف الروم، حتى دخل عليهم، فصاح الناس، وقالوا سبحان اللَّه يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري، فقال: يا أيها الناس إنكم **لتؤوِّلون هذه الآية هذا التأويل**، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز اللَّه الإسلام، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول اللَّه ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت

وإن اللَّه قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل اللَّه تبارك وتعالى على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل اللَّه حتى دفن بأرض الروم»[١].

في القرن الثالث الهجري والرابع: ما قد درج عليه كبار أئمة اللغة والتفسير من إطلاق التأويل على التفسير، ومنهم مثلا:

- **الأخفش ت٢١٥هـ** الذي قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[٢]: «فزعم أهل **التأويل** أنه في معنى: «سفَّه نفسَه»، وقال يونس: «أُراها لغة. . .»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي -بشرح المباركفوري في تحفة الأحوذي دار الفكر بيروت بلا تاريخ - في التفسير تفسير سورة البقرة برقم٤٠٥٣ وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح»، قال المباركفوري في تحفة الأحوذي مصدر سابق ٨/ ٣١٣: «وأخرجه أبو داود والنسائي وابن جرير وأبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٠.

(٣) الأخفش الأوسط معاني القرآن تحقيق هدى محمود قراعة مكتبة =

- **شمر بن حمدويه اللغوي ت٢٥٥هـ** الذي قال: «وروي لنا عن ابن المظفر ولم أسمعه لغيره، ذكر أنه يقال: «أدرك الشيءُ: إذا فني، وإن صحَّ، فهو في **التأويل**: فني علمهم في معرفة الآخرة»[1].

- **محمد بن جرير الطبري ت٣١٠هـ** الذي ألفه تفسيره ووسمه بـ: «جامع البيان عن **تأويل** آي القرآن»، ودرج في كتابه على أن يقول: «القول في **تأويل** قوله تعالى...».

ومن الشواهد التي يمكن الإستدلال بها على المعنى الثاني للتأويل:

في جيل الصحابة والتابعين: ومن الأمثلة في ذلك ما قد ورد عند الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾[2] مسندًا إلى أبي العالية قال: «كانوا عند ابن مسعود جلوسًا، فكان بين رجلين ما يكون بين

= الخانجي الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١/ ١٥٧.

(١) الأزهري تهذيب اللغة ١٠/ ١١٤.

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٥.

الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد اللَّه: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟، فقال رجل آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن اللَّه يقول: «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم»، قال فسمعهما ابن مسعود، فقال: مهْ، لما يجيء **تأويل** هذه بعدُ، إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه آي قد مضى **تأويلهن** قبل أن ينزلن، ومنه ما وقع تأويلهن على عهد النبي ﷺ، ومنه آي وقع **تأويلهن** بعد النبي ﷺ بيسيرٍ، ومنه آي يقع **تأويلن** بعد اليوم، ومنه آي يقع **تأويلهن** عند الساعة على ما ذكر من الساعة، ومنه آي يقع **تأويلهن** يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، لم تلبسوا شيعا، ولم يذق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبستم شيعا، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤٌ ونفسُه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية»[١].

❋ ❋ ❋

(١) الطبري تفسير الطبري تحقيق محمود محمد شاكر سلسلة تراث الإسلام مكتبة ابن تيمية القاهرة ١١ / ١٤٣-١٤٤.

المطلب الخامس:

حدوث المعنى الطارئ لمصطلح التأويل

لايدرى على وجه التحديد متى طرأ على مصطلح التأويل المعنى الحادث المتأخر الذي يعني: «صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى مرجوح لقرينة تدل عليه» -، بيْد أنه يترجح لدى الناظر في تاريخ الدراسات البيانية للقرآن الكريم، ارتباط هذا المعنى الحادث بدراسة ظاهرة المجاز في القرآن الكريم الذي قد يعني نقل اللفظ عما يقتضيه ظاهره إلى معنى آخر، ولا شك أن المجاز «هو آلة المؤوِّل التي يستخدمها لصرف اللفظ عن ظاهره إلى باطنٍ لا يدل عليه اللفظُ في سياقه»[١].

«وفي هذه المرحلة أصبح التأويل على صلة كبيرة بالمجاز، ويظهر هذا عند الإمام الغزالي، فالتأويل عنده: «عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر، ويشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن

---

(١) د/ مساعد الطيار مفهوم التفسير والتأويل والإستنباط والتدبر والمفسر مصدر سابق ص١٠٨.

الحقيقة إلى المجاز» . . . ذلك أن التأويل والمجاز يلتقيان في معنى واحد هو العدول عن اعتبار ظواهر الألفاظ والعبارات، فالتأويل: صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه يحتمله، والمجاز كل لفظ تجوز به عن موضوعه»(١).

ويلاحظ أنَّ مصطلح التأويل بمعناه الحادث الجديد، قد كثُر تداوله بين طبقات مختلفة من أهل العلم في القرن الرابع الهجري وما والاه، على أننا لا ننفي البتة احتمال توظيفه قبل ذلك فيما بثه المعتزلة وجه الخصوص في تراثهم المكتوب الذي وصل إلينا بعضه.

ونسوق هنا تعريفات ثلاثة لمصطلح التأويل بمعناه الحادث لثلاثة علماء من اتجاهات فكرية مختلفة:

أولا: تعريف ابن حزم الفقيه الظاهري ت ٤٥٦هـ الذي يقول: «التأويل نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره، وعما وضع له في اللغة إلى معنى آخر»(٢).

---

(١) مصطفى تاج الدين النص القرآني ومشكل التأويل مجلة إسلامية المعرفة السنة الرابعة العدد الرابع عشر خريف ١٤١٩هـ ص١١-١٢.

(٢) ابن حزم الإحكام في أصول الأحكام دار الكتب العلمية بيروت =

ثانيا: تعريف أبي الوليد **ابن رشد** الفيلسوف المالكي ت٥٩٥هـ الذي يقول: «هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز»(١).

ثالثا: تعريف **الآمدي** المتكلم الأصولي الشافعي ت٦٣١هـ الذي يقول: «هو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر مع احتماله له بدليل يعضده»(٢).

والقدرُ المشترك بين هذه التعريفات هو أن التأويل إخراج اللفظ عن المعهود ظاهرا إلى معنى خفي باطنا، وهذا الإصطلاح الحادث للتأويل لم يكن معروفا عند السلف، ولا تشهد عليه تصرفاتهم ولا مقالاتهم، وهذا الذي أكده شيخ الإسلام ابن تيمية عندما قال: «وأما **التأويل** بمعنى صرف

= بلا تاريخ ١/ ٤٢.

(١) ابن رشد فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال دار المشرق بيروت طبعة سنة ١٩٦٨م ص٣٥.

(٢) الآمدي الإحكام في أصول الأحكام دار الكتب العلمية بيروت طبعة سنة ١٩٨٠م ٣/ ٧٤.

اللفظ عن مفهومه إلى غير مفهومه، فهذا لم يكن هو المراد بلفظ التأويل في كلام السلف، اللهم إلا أنه إذا علم أن المتكلم أراد المعنى الذي يقال أنه خلاف الظاهر، جعلوه من التأويل الذي هو التفسير، لكونه تفسيرا للكلام وبيانا لمراد المتكلم به، أو جعلوه من النوع الآخر الذي هو الحقيقة الثابتة في نفس الأمر التي استأثر اللَّه بعلمها، لكونه مندرجا في ذلك، لا لكونه مخالفا للظاهر»[١].

❃ ❃ ❃

(١) ابن تيمية الصفدية تحقيق محمد رشاد سالم طبعة سنة ١٤٠٦هـ ١/ ٢٩١.

المبحث الثاني:

مصطلح التأويل في الطرح العلماني المعاصر

هذا المبحث معقودٌ من أجل بيان دلالة مصطلح التأويل عند العلمانيين، وتطور معنى التأويل من المصطلح القرآني الأصيل الذي نوهنا به قبلُ، إلى الدلالة المتأخرة له عند المتأخرين، كما أنه معقود للوقوف عند أهمية هذا المصطلح في الطرح العلماني المعاصر أثناء عملية «قراءة القرآن»، وسنعرج فيه على ذكر جملةٍ من المبرِّرات التي يطرحها الإتجاهُ العلماني المعاصر في التزامه الأخذَ بالمعنى الجديد لمصطلح التأويل منهجا مرضيا لقراءة التراث الديني للأمة الإسلامية، كما أننا سنبين أثر توظيف الإتجاه العلماني المعاصر في التعامل مع النص الديني فهما واستنباطا، و«قراءة وتعاملا».

—

المطلب الأول:
مفهوم التأويل عند العلمانيين

أخذ مصطلحُ التأويل دلالةً مباينة لمعناها الأصيل المبيَّن في القرآن الكريم، والمنصوص عليه في حديث النبي ﷺ، والمفصَّل في كلام السَّلف، من اللغويين والمفسِّرين والعلماء عامَّة، ومن أجل بيان دلالة هذا المصطلح عند الإتجاه العلماني المعاصر، لابد بادئ ذي بدء من ملاحظة أنه ليس هناك تعاريف صريحة مباشرة يسوقها الإتجاه العلماني للتأويل، وإنما يأتي التعريف -عند هذا الإتجاه- في سياق طرح التأويل بديلا منهجيا لـ: «قراءة القرآن»، أو «فهمه»، أو «تفكيك بنيته»، أو «محاولة مقاربته»، أو «تذوقه».

فالتأويل عند نصر حامد أبي زيد «أداة معرفية، قد يكون موضوعها الرؤى والأحلام، وقد يكون موضوعها الأفعال الإنسانية، وقد يكون موضوعها الأشياء، وقد يكون موضوعها أخيرا النصوص اللغوية»[(١)].

(١) د/ نصر حامد أبو زيد النص السلطة الحقيقة الفكر الديني بين =

وعندما يحاول **نصر حامد أبو زيد** أن يقارب التأويل مقاربة تعريفية بحسب اللغة، تراه يقول: «. . . إن معنى **التأويل** إذن هو العودة إلى أصل الشيء، سواء كان فعلا أو حديثا، وذلك لاكتشاف دلالته ومغزاه. . . إن لكل حدث أو فعل أو حديث ظاهرا وباطنا، والباطن لا ينكشف إلا **بالتأويل** الذي يرد الظاهر إلى أصوله وأسبابه الحقيقية، لكن كلمة **تأويل** كما تعني الرجوع إلى الأصل تعني أيضا الوصول إلى هدف وغاية، وإذا كان الرجوع إلى الأصل حركة عكسية، فإن الوصول إلى هدف وغاية حركة متطورة نامية. . . ولكن إذا كانت الكلمة تعني الرجوع إلى الأصل، وتعني أيضا الوصول إلى الغاية والعاقبة، فإن الذي يجمع بين الدلالتين هو دلالة الصيغة الصرفية «تفعيل» على الحركة. . . لذلك يمكن لنا القول أن **التأويل** حركة بالشيء أو الظاهرة إما في اتجاه الأصل بالرجوع، أو في اتجاه الغاية والعاقبة بالرعاية والسياسة، لكن هذه الحركة ليست حركة مادية، بل هي حركة ذهنية عقلية في إدراك الظواهر»[(١)].

= إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة الأولى ١٩٩٥م ص١٦٨.

(١) د/ نصر حامد أبو زيد مفهوم النص دراسة في علوم القرآن المركز =

وفي محاولة أخرى لتقديم معنى جديد لمصطلح التأويل، يسعى نصر حامد أبو زيد إلى القدح في المفهوم التقليدي للتأويل فيقول: « . . .لقد بدأ الباحث[١] دراسته الأولى من خلال المفهوم الشائع في فكرنا الديني والفلسفي المعاصر، والذي يرى التأويل جهدا عقليا ذاتيا لإخضاع النص الديني لتصورات المفسر ومفاهيمه وأفكاره، وهي نظرة تغفل دور النص وما يرتبط به من تراث تفسيري وتأثيره على فكر المفسر، إن العلاقة بين المفسر والنص ليست علاقة إخضاع من جانب المفسر، وخضوع من جانب النص، والأحرى القول أنها علاقة جدلية قائمة على التفاعل المتبادل»[٢].

ويلاحظ د/ محمد عمارة أن د/ نصْرا رغم كثرة كلامه عن التأويل وجعله عنوانا لأطروحته للدكتوراه: «فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي»، وتضمينه

= الثقافي العربي بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٤م ص٢٢٩-٢٣٠.

(١) المقصود نصر حامد.

(٢) د/ نصر حامد أبو زيد فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي دار الوحدة بيروت ودار التنوير بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م ص ٥-٦.

في عنوان كتاب آخر «إشكاليات القراءة وآليات التأويل»، «فإنه لم يشر ولو مرة أخرى في جميع كتاباته التي قرأنا كتبها ومقالاتها، لم يشر إلى المعنى الإصطلاحي **لمصطلح التأويل**، كما حدده وضبط قوانينه في نظريةٍ متكاملةٍ فلاسفة الإسلام»[1].

ومن التعريفات غير المنضبطة للتأويل عند بعض العلمانيين نقرأ هذا التعريف الذي يقول فيه صاحبه: «... **فالتأويل** حوار في صميم الكينونة، حوار لا مجال فيه للفصل التام بين الذات والموضوع، ذلك لأن المؤول إنما يقول رغباته، ويستعيد أهواءه، ويفكر في تاريخه، ويسأل أَوله، ويعقل لا معقوله، ويفك رموزه، ويقرأ علاماته، ويفهم إشاراته، إنه يفهم فهمه ويقول كينونته.... **فالتأويل** لا يعني وجود ذات تجهد للتطابق مع موضوعها، بل هو استنطاق الأشياء عن دلالاتها عبر اللغة، ذلك أن الكلام ينطوي على فجوة تجعل من الصعب استنفاد القول فيه، بحيث يكون دوما ثمة مجال للبدء من جديد لاستئناف القول، إذن لإعادة التأول، وبتعبير

---

(١) د/ محمد عمارة التفسير الماركسي للإسلام دار الشروق القاهرة الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ ص ١١١.

آخر ليس **التأويل** إيجاد معنى لشيء لم يكن له معنى، ولا هو نصْب دلالةٍ لموضوعٍ يبحث عن دلالته، وإنما هو إحالةٌ من دلالة إلى أخرى، وإعادة تأول معنى سابق، وتأول المعنى مجددا، لا معنى له سوى أنه تجديد الفهم نفسه، لذا ليس **التأويل** مجرد تقنيةٍ للبحث أو أداةٍ للمعرفة أو طريقٍ إلى الحقيقة، وإنما هو مجال للفهم يتيح القول في الوجود من جديد، ويسمح بإعادة تعريف الأشياء»[١].

ويضع **محمد شحرور** تعريفا غريبا للتأويل يقول فيه: «. . .**فالتأويل** هو ما تنتهي إليه الآية أي تؤول إليه من قانون عقلي نظري أو حقيقة موضوعية مباشرة»[٢]، ثم يحاول شحرور أن يوضح مصطلح التأويل حسب تعريفه له فيقول: «فلدينا الآيات التي جاءت بصيغة نظرية، وعندما نؤولها نستنتج منها قانونا، ينطبق مع العقل والحقيقة. . .»[٣].

---

(١) علي حرب التأويل والحقيقة قراءات تأويلية في الثقافة العربية دار التنوير بيروت طبعة سنة ٢٠٠٧م ص٢٣.

(٢) محمد شحرور الكتاب والقرآن قراءة معاصرة الأهالي دمشق الطبعة الرابعة ١٩٩٢م ص١٩٤.

(٣) المصدر السابق.

ويتلخص من المعنى العلماني المنحرف لمصطلح التأويل على ضوء ما سبق:

- أن التأويل **«لا يعني مجرد عملية الفهم لشيء معطى محدد سلفا، له وجود خارجي محايد عن المتلقي الذي يحاول أن يفهم هذا الشيء أو النص»**[١].

- أن التأويل عند العلمانيين **«جهد عقلي ذاتي لإخضاع النص الديني لتصورات القارئ والمفسِّر لمفاهيمه وأفكاره»**[٢].

* * *

(١) د/ نصر حامد أبو زيد إشكاليات القراءة وآليات التأويل المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة السابعة ٢٠٠٥م ص٢٧.

(٢) د/ أحمد محمد الفاضل الإتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد مركز الناقد الثقافي دمشق الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ص٥١٨.

المطلب الثاني:

أهمية توظيف التأويل في قراءة النص الديني عند العلمانيين

يعلي الاتجاه العلماني المعاصر من شأن التأويل، ويعتني به من أجل قراءة «التراث الإسلامي» قراءة معاصرة جديدة، ولعل د/ نصر حامد أبي زيد أحسن من يعبر عن عناية العلمانيين المعاصرين بالتأويل إذ كتب ما يفيد ذلك صراحة عندما قال: «. . . وإذا كانت الحضارة تتركز حول نص بعينه يمثل أحد محاورها الأساسية، فلا شك أن **التأويل** - وهو الوجه الآخر للنص يمثل آلية هامة من آليات الثقافة والحضارة في إنتاج المعرفة»[1].

ويزيد د/ **نصر حامد أبو زيد** هذا المعنى بسطا ووضوحا عندما يقول في موضع آخر: «إذا صح افتراضنا في مفتتح هذه الدراسة أن الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة النص،

---

(١) د/ نصر حامد أبو زيد مفهوم النص دراسة في علوم القرآن مصدر سابق ص٩.

يصح أيضا أن نقول إنها **حضارة التأويل**، وذلك أن **التأويل** هو الوجه الآخر للنص»[١].

ويعدُّ **محمد أركون** القرآن الكريم **نص التأويل** بامتيازٍ، وأنه لا يمكن اكتناهه إلا **بالتأويل**[٢].

ومن أجل عناية الإتجاه العلماني بالتأويل حسب ما يتبادر من **دلالته المحرفة** عنده، عدَّه «الطريق الملكيَّ الذي انتهجه العقل العربي في طلب الحق، بل إنه في النهاية طريق كل عقل في تعامله مع النص، وفي قراءته لتاريخه»[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) د/ نصر حامد أبو زيد مفهوم النص دراسة في علوم القرآن مصدر سابق ص. ٢١٩

(٢) د/ أحمد محمد الفاضل الإتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد مصدر سابق ص. ٥١٦

(٣) علي حرب التأويل والحقيقة قراءات تأويلية في الثقافة العربية مصدر سابق ص

المطلب الثالث:
مبررات الاتجاه العلماني في تحريفه مصطلح التأويل عن دلالته القرآنية

«يعول الخطاب العلماني كثيرا على **التأويل** في قراءته للقرآن الكريم، لأن **التأويل** مفهوم قرآني يمكن الولوج منه بسهولة إلى الغايات التي يبحث عنها هذا الخطاب، وتحت هذه المظلة يمارس هذا الخطاب آلياته في القراءة، والتي لا صلة لها بالمفهوم القرآني مطلقا»(١).

وليس يختار الخطاب العلماني المعاصر التأويل منهجا لقراءة القرآن الكريم اختيارا اعتباطيا، بل إنه يقدم بين يدي هذا الإختيار جملة من المبررات والحجج منها:

١/ **طبيعة النص القرآني**: «فالنص التأسيسي قابل نظريا لعدد غير محدود من التأويلات، ولأنه نص رمزي ثري يستعمل المجاز والصور والأمثال والإشارة والتلميح،

---

(١) د/ أحمد إدريس الطعان العلمانيون والقرآن الكريم دار ابن حزم الرياض ١٤٢٨هـ ص٤١٩.

ولا يتقيد بالمقولات المنطقية، أو بأساليب المتكلمين والفقهاء وخطابهم..»[(١)].

والقرآن الكريم وفق هذا التصور كلُّه متشابه، وفيه دلالات محتملة لا تحصى، وتتيح للكل أن ينطقوا باسمه لأنه «يقول كل شيء، دون أن يقول شيئا بعينه على نحو تفصيلي قطعي»[(٢)]، وهو بهذا لا يوجد فيه (نصٌّ نصٌّ) كما يقول أهل الأصول[(٣)].

٢/ الاجتهاد في فهم النص المنفتح، وتفضيله على النص المنغلق: إذ «النص المحكم ذو البعد الواحد الذي يكون أُحادي المعنى أمبريالي التصور، هو عمل لا يستدعي القراءة، بل يحتاج إلى قارئ سلبي يعلمه أو يحكِم عليه سيطرته بإفحامه وإسكاته، وحده النص المختلف الملتبس المراوغ... الذي

---

(١) عبد المجيد الشرفي في قراءات التراث الديني الإتقان في علوم القرآن أنموذجا ضمن كتاب في قراءة النص الديني سلسلة موافقات الدار التونسية للنشر طبعة سنة ١٩٩٠م ص١٢.

(٢) طيب تيزيني النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة دار الينابيع دمشق طبعة سنة ١٩٩٧م ص ٢٤٢ -٢٤٣.

(٣) د/ أحمد إدريس الطعان العلمانيون والقرآن الكريم مصدر سابق ص ٤٢٢.

يكون متشابه الآيات، متشابك الدلالات، متعدد المستويات، متراكب الطبقات، وحده مثل هذا النص يتيح إمكان القراءة الحية الكاشفة، والنص الذي يتيح القراءة يستدعي أكثر من قراءة، إذ قراءاته تتعدد بتعدد مستوياته وتختلف باختلاف قرائه»[١].

٣/ التأويل مطية لإنتاج النص: «إن القارئ يخلق النص، فهو خلاق آخر يواكب خلاق النص، حيث يصبح القارئ مؤلفا كما كان المؤلف قارئا، ويتحول العمل الفردي إلى عمل جماعي، النص إذن إبداع مستمر، وخلق جماعي، لا فرق بين تأليفه وقراءاته، بين وضعه وانتحاله، بين فهمه وشرحه»[٢].

٤/ ارتباط مصطلح التفسير بالسياسة: يقول حامد نصر **أبوزيد** مبينا ذلك: «وإذا كان مصطلح **التأويل** في الفكر الديني الرسمي قد تحول إلى مصطلح مكروه لحساب مصطلح

---

(١) علي حرب نقد النص المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب الطبعة الثانية ١٩٩٥م ص٢٠.

(٢) د/ أحمد إدريس الطعان العلمانيون والقرآن الكريم مصدر سابق ص٤٣١.

التفسير، فإن وراء مثل هذا التحويل محاولة مصادرة كل اتجاهات الفكر الديني المعارضة، سواء على مستوى التراث أو على مستوى الجدل الراهن في الثقافة»[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) د/ نصر حامد أبو زيد مفهوم النص دراسة في علوم القرآن مصدر سابق ص٢١٩.

المطلب الرابع:

أثر توظيف التأويل بالمنظور العلماني في قراءة النصوص

كان للأخذ بالتأويل بمعناه المنحرف في مشاريع العلمانيين الفكرية في العصر الحديث، نتائج سلبية في فهم القرآن الكريم، واستنباط الأحكام التشريعية منه، فمن هذه النتائج:

١/ **القول بأنه لا توجد قراءة بريئة للقرآن الكريم**: إن من شأن المؤول أن يقرأ النص استنادا إلى ثقافته ومكوناته الفكرية والعلمية ولذلك ما فتئ الإتجاه العلماني المتصدي لعملية فهم القرآن الكريم -يرفع شعار: «لا توجد قراءة بريئة»(١)، ومن نتائج ذلك ضياع الدلالة المعنوية المستفادة من أحكام وتشريعات القرآن الكريم، وتعطيل العمل بذلك بدعوى أن المستفاد المستنبط خاضع لأهواء القارئين من مفسرين وفقهاء متشرعين.

---

(١) د/ أحمد إدريس الطعان العلمانيون والقرآن الكريم مصدر سابق ص٤٢٤.

٢/ دعوى أن النصوص الدينية (القرآن الكريم) ليست لها معاني ثابتة: «فلا توجد عناصر جوهرية ثابتة للنصوص، بل لكل قراءة بالمعنى التاريخي الإجتماعي جوهرها الذي تكشفه في النص»[١]، ولذلك نشأ عند العلمانيين ما نعته بعضُ الباحثين **بالتأويل الزمني** «لأن عنصر الزمن يعتبر فيه عاملا حاسما في تحديد معاني النص الديني، وفي صرفها عن مدلولها الظاهري إلى مدلولات أخرى يقتضيها الزمن الذي يعيش فيه المخاطَب بذلك النص»[٢].

ولزيادة بيان معنى التأويل الزمني الذي انتهج سبيله أغلب العلمانيين المعاصرين، نقول إنه قائم على عد ما تضمنه «النص الديني من مطلوبات ومنهيات، إنما هو متجه إلى مخاطبين في زمن معين، حينما يكونون في وضع من الحياة معين، أما الآخرون في غير ذلك الزمن وفي غير ذلك الوضع فإنهم غير مشمولين بهذا الخطاب النصي، لذلك يجب عليهم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير دار اليمان سوريا الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ص٩٥.

أن يفهموا النص على غير ما يقتضيه ظاهر الخطاب المتجه إلى آخرين في زمن غير زمنهم، وفي أوضاع غير أوضاعهم»[1].

كما نشأ للعلمانيين ما سماه بعضُ الباحثين **بالتأويل اللغوي** القائم على «أن اللغة لا تحمل معنى موضوعيا خارج المتلقي لها، بحيث يمكن أن يحصله كل قارئ أو مستمع لها، وإنما مدلول اللغة هو ما تثيره في ذهن المتلقي من معنى بحسب تكونها الثقافي»[2]، ومن مقتضيات الأخذ بهذا النوع من التأويل أن تهدر كثير «من الأحكام الدينية، لأن هذه الأحكام بمقتضى هذه الفلسفة اللغوية لا يكون لها معنى ثابت، فما هو مطلوب عند أهل زمن يمكن أن يكون غير مطلوب عند غيرهم من أهل زمن آخر»[3].

يقول **حامد نصر أبو زيد** موضحا رأيه في الأخذ بهذا النوع من التأويل: «وفي تقديرنا أن العودة إلى للسياق الاجتماعي الخارجي، السياق المنتج للأحكام والقوانين، وتحديد أحكام

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص١٠٢.

(٣) المصدر السابق ص١٠٣.

النص على ضوئها، يمكن أن يمثل دليلا هاديا لا لفهم الأحكام فقط، بل يفتح باب الإجتهاد لتطويرها على أساس تأويلي منتج، وإذا قرأنا نصوص الأحكام من خلال التحليل العميق لبنية النصوص -البنية التي تتضمن مستوى المسكوت عنه- فربما قادتنا القراءة إلى إسقاط كثير من تلك الأحكام بوصفها أحكاما تاريخية، كانت تصف واقعا أكثر مما تضع تشريعا»[١].

كما نشأ عند العلمانيين ما سماه بعضُ الباحثين **التأويل المقاصدي** الذي يعد «أحكام الشريعة لم تشرع إلا لتحقيق مقاصدها، فأحكام الحدود لم تشرع إلا لردع مقترفي المعاصي، ومنع الربا لم يشرع إلا لتحقيق مقصد العدالة ومنع استغلال القوي للضعيف، وهكذا الأمر في كل حكم شرعي، فلا تحمل هذه الأحكام قيمة في ذاتها، بل في مقاصدها فقط، فإذا ما حقق حكم من الأحكام مقصده، فإنه يكون قد استنفذ أغراضه، فلا يبقى إذن مبرر لبقائه ملزما»[٢].

---

(١) د/ نصر حامد أبو زيد النص السلطة الحقيقة الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة مصدر سابق ص١٣٩.

(٢) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير مصدر سابق ص١٠٤.

ومن هنا تفهم دعوة **الصادق بلعيد** التي مفادها «إعادة قراءة الكتاب العزيز لننظر إلى أحكامه نظرة تختلف عن التي عكف عليها الفقهاء القدامى، والتي بها أخذوا **بحرفية النص وأضاعوا روحه؟؟!!**»[١].

ونشأ للعلمانيين ضربٌ من التأويل سماه بعض الباحثين **التأويل العلمي** منسوبا إلى العلم الحديث طبيعيا كان أو رياضيا، إذ «يقع تأويل النص على أساس بعض القوانين الطبيعية والرياضية لتصرف معانيه عن ظواهر دلالتها اللغوية المتعارف عليها وتحمل مدلولات أخرى مخالفة لما تقتضيه ظواهر اللغة وما استقرت عليه أفهام المسلمين منذ نزول الدين إلى اليوم»[٢].

ومن تأويلات العلمانيين تبعا لهذا الضرب من التأويل، ما تأول به **محمد شحرور** الأوامر والنواهي، إذ زعم أن لها حدا أعلى لا يمكن الصعود فوقه كأحكام السرقة والقتل، وهو ما

---

(١) الصادق بلعيد القرآن والتشريع قراءة جديدة في آيات الأحكام مركز النشر الجامعي تونس طبعة سنة ١٩٩٩م ص٣٢١.

(٢) المصدر السابق ص١١٥.

يمكن الصعود فوقه بالتشديد، كما أن لها حدا أدنى لا يمكن النزول تحته، كتحريم النكاح من المحارم، وهو ما لا يمكن النزول تحته بالتساهل تحليلا لبعض هذه المحارم، ولكن يمكن الصعود فوقه بمنع الزواج من بعض الأقارب غير المعدودين من المحارم كبنات العم، والعمة والخالة، إذا بين الطب أن لذلك آثارا سلبية على النسل، أو بين علم الإقتصاد أن له آثارا سلبية على توزيع الثروة، ولا يكون في ذلك تجاوز لحدود اللّه لأنه ليس فيه نزول تحت الحد الأدنى[١].

٣/ الدعوة إلى الأخذ بالمغزى بدل المعنى: غدا القرآن الكريم بالنسبة للعلمانيين مجالا خصبا لتطبيق كل نظرية غربية ناشئة لقراءة النصوص دينية أو أدبية، ومن هذه النظريات التي نُقلت إلينا من الغرب قصد قراءة القرآن الكريم على ضوئها نظرية تقديم المغزى على المعنى، وكان د/ **نصر حامد أبو زيد** من مروجي هذه النظرية - بعد تعديلها على يد جادامر- في

---

(١) محمد شحرور الكتاب والقرآن قراءة معاصرة مصدر سابق ص٤٥٠ وما بعدها من صفحات ود/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير مصدر سابق ص١١٥-١١٦.

العالم العربي في كتاباته عن النَّص الديني، يقول في ذلك: «وتعد الهرمنيوطيقا الجدلية عند جادامر بعد تعديلها من خلال منظور جدلي مادي، نقطة بدء أصيلة للنظر إلى علاقة المفسر بالنص، لا في النصوص الأدبية، ونظرية الأدب فحسب، بل **في إعادة النظر في تراثنا الديني حول تفسير القرآن منذ أقدم عصوره وحتى الآن**، لنرى كيف اختلفت الرؤى، ومدى تأثير رؤية كل عصر من خلال ظروفه، للنص القرآني، ونرى دلالة تعدد التفسيرات في النص الديني والنص الأدبي معا على موقف المفسر من واقعه المعاصر، أيا كان ادعاء الموضوعية الذي يدعيه هذا المفسر أو ذاك»[١].

«**فالمعنى** يمثل الدلالة التاريخية للنصوص في سياق تكونها وتشكلها، أما **المغزى** فذو طابع معاصر، بمعنى أنه محصلة لقراءة عصرٍ غير عصر النَّص»[٢].

---

(١) د/ نصر حامد أبو زيد إشكاليات القراءة وآليات التأويل مصدر سابق ص٤٩.

(٢) د/ نصر حامد أبو زيد نقد الخطاب الديني سينا للنشر القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٢م ص١٩٣.

ويقدم د/ حامد نصر أبو زيد أمثلة تطبيقية على نظريته في تجاوز المعنى الذي دل عليه اللفظ القرآني في عصر التنزيل، والبحث عن المغزى، فيقف عند المقرر قرآنيا في ميراث المرأة، فيرى أن **المعنى** القرآني قد أعطى الأنثى نصيبا محددا من الميراث بعد المنع المطلق، فيجب ألا نقف عند هذا المعنى الذي حدده القرآن، بل علينا أن نتجاوزه إلى **المغزى**، وهو الإنصاف بعد الظلم لنسير على درب الإنصاف إلى نهايته[١].

٤/ استبدال مصطلح التأويل القرآني بعد تحريفه، ومسخه بمصطلحات أخرى: استعان الاتجاه العلماني في تحريفه لمصطلح التأويل عن معناه القرآني الذي عرفه سلف هذه الأمة، بمصطلحات معاصرة حداثية في أغلبها «ضبابية»، وذات حمولة فكرية غربية قد نبتت في تربةٍ غير ترتبتنا، وصدرت عن أناسٍ غير علمائنا، وعبَّرت عن أفكارٍ غير أفكارنا، مجاراةً لموضة محاكاة الجديد الوافدِ، وجريا على قاعدة تقليد المغلوبِ للغالبِ، وقاعدة خالفْ تُعرف، ومن

---

(١) المصدر السابق ص١٠٥-١٠٦.

هذه المصطلحات التي استُبدلت بها مصطلحات القرآن، مصطلح: «**القراءة**» وربما أضيف إليها الوصف فقيل: «الجديدة»، أو «المعاصرة»، ومصطلح: «**الهرمنيطيقا**»، وأضيفت أحيانا هذه المصطلحات إلى التفسير أو التأويل فقيل: «**القراءة التفسيرية**»، أو «**القراءة التأويلية**»، أو قيل: «**هرمنيطيقا التفسير أو التأويل**»، وخرجتْ كتبٌ تحمل عناوين بذلك، شدَّت إليها الأنظار، ولفتتْ إليها عنايةَ الباحثين في حقل الدراسات القرآنية وغيرها.

ويصرح بعض العلمانيين بضرورة تجاوز مصطلح التأويل والتفسير كليهما، ويبررون ذلك قائلين: «... ولئن آثرنا **تجاوز مصطلحي التفسير والتأويل إلى استعمال مصطلح القراءة** فلأنَّ التعامل مع النص التأسيسي لا يمكن أن يطرح في نظرنا على صعيد ثنائية الظاهر والباطن، فالنص يتضمن ويحتمل نظريا بحكم أزليته عددا لا متناهيا من المعاني، فسِمةُ الإطلاق فيه تجعله يستوعب **قراءات**، وفي هذه النقطة بالذات يقع التواصل بين كلام اللَّه المقدس والعالم البشري، فالوحي متجسِّما في اللفظ هو الكلام المنزل، والقراءة إنما هي إنجاز

النص، فهي التمثل البشري للوحي، وليس لكل تمثل إلا أن يتلبس بمقتضيات الآن والمكان ومعطياتهما المتشابكة جبرا لا اختيارا»[١].

❁ ❁ ❁

(١) كمال عمران والباجي القمرتي جدلية النص والمنهج: آيات من سورة لقمان أنموذجا ضمن كتاب في قراءة النص الديني مصدر سابق ص ٩٤.

المطلب الخامس:

نماذج من تأويلات العلمانيين للنص القرآني

كانت محاولات الإتجاه العلماني في «قراءة» محكم التنزيل نابعة من الطرح المنحرف الجديد الذي أضفوه على مصطلح التأويل، إذ غابت عندهم الدلالة القرآنية للمصطلح قصدا وعمدا، مع سبق الإصرار والترصد، وحضرتِ الحمُولة الجديدة التي تشبع بها الإتجاه العلماني على اختلاف منطلقاته الفكرية مادية كانت أم ماركسية أم غير ذلك.

ونورد هنا بعض النماذج التأويلية لنصوص الذكر الحكيم، التي تمثل هذا الإتجاه العلماني المتناول للقرآن الكريم فهما وتفسيرا.

النموذج الأول: من تأويلات محمد شحرور: والرجل واسع الحيلة في التأويل، قد اتخذه له منهجا في تصحيح نظريات الهندسة - وهو العلم الذي تخصص فيه، ونصر مقولاته وحاول تطبيقها على نص القرآن الكريم، وإنْ أذهبَ ذلك المعنى وخالف أصولَ المنهج العلمي في التفسير.

يعقد محمد شحرور لتفسيره سورة القدر عنوانا في كتابه: «الكتاب والقرآن» وسمه بـ: «نموذج من التأويل - تأويل سورة القدر»، وواضح من اختيار هذا العنوان، أن صاحب الكتاب متشبع بالتأويل، آخذٌ به، معتقد أنه هو المنهاج المرضي في «قراءة» القرآن قراءة معاصرة، كما ظهر ذلك من غلاف كتابه من عنوانه؟؟!!

يقف محمد شحرور عند لفظ الإنزال الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[1]، فيحاول أن يؤول ما تدل عليه دلالته اللغوية، فيقول: «إن الإنزال هو دخول الشيء في عالم المدركات، وهذا إما أن يكون له وجود مسبق غير مدرك فتغير في صيرورته فأصبح مدركا... وهذا ما حصل للقرآن دفعة واحدة في ليلة القدر، حيث غُير في صيرورته بشكل أصبح قابلا للإدراك»[2].

ينتقل محمد شحرور بعد ذلك إلى قوله: «ليلة القدر»، فيقف عندها متأولا، فيقول: «... ويفهم منها أنها تحمل

---

(١) سورة القدر الآية رقم ١.

(٢) محمد شحرور الكتاب والقرآن قراءة معاصرة مصدر سابق ص٢٠٥.

طابعا زمنيا معينا؟ لنأخذ أولا مفهوم القدر حيث جاءت في اللسان العربي من قدَر، وهي تدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، يقال: قدره كذا أي نهايته. . . وبما أن محمدا ﷺ هو خاتم الأنبياء، والقرآن هو خاتم النبوات، وفي عهد النبي ﷺ وصل اللسان العربي إلى مرحلة اللسان العربي المبين، **فوصل إنزال القرآن إلى مبلغه وغايته**»[(١)].

ويمضي شحرورٌ في تأويلاته التي لا تُسعفه عليها لغة مبينة، ولا أثر مروي، ولا ضابطٌ من ضوابط التفسير معروف، فيؤوِّل لفظ الليل من ليلة القدر، ويرى أن المقصود منه الظلام في الوجود الذي سبق النور في **الإنفجار الكوني الأول**[(٢)]، ويؤول شحرورٌ لفظ: «شهر».

من قوله تعالى: «ألف شهر»[(٣)]، فيرى أنه من **الشهرة والإشهار**[(٤)]، ويؤوّل لفظ الفجر في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ

(١) المصدر السابق ص٢٠٥-٢٠٦.

(٢) المصدر السابق ص٢٠٦.

(٣) سورة القدر الآية ٣.

(٤) محمد شحرور الكتاب والقرآن قراءة معاصرة مصدر سابق ص٢٠٦.

مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾﴾[١]، ويقول: «أي أن هذا الموسم موسم إشهار القرآن سلمه اللَّه لنا، وهو سالم يتجدد كل عام مادام هذا الكون قائما، وسينتهي هذا الموسم بالنفخة الأولى في الصور وقيام الساعة، حيث يحصل **الإنفجار الكوني**، ليتشكل على أنقاضه كونٌ جديد فيه البعث والحساب والجنة والنار، ولذا قال: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، أما فهمُ: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ على أنه فجر الشمس الصبح، **فهو فهمٌ ساذج؟؟!!**»[٢].

النموذج الثاني: من تأويلات محمد أركون الذي يقف عند آية: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ

---

(١) سورة القدر الآية ٥.

(٢) محمد شحرور الكتاب والقرآن قراءة معاصرة مصدر سابق ص٢٠٦-٢٠٧.

ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ [1]، فيرى بحسب قراءته التأويلية، أنه ينبغي تفسير هاتين الآيتين تفسيرا تاريخيا، يقتضي الأخذ بعين الإعتبار، الظروف التاريخية السائدة عندئذ، والصراعات العقائدية والمجادلات القائمة على الإيمان بامتلاكِ مطلقِ للحقيقة[2].

* * *

(١) سورة التوبة الآية ٢٩-٣٠.

(٢) محمد أركون القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ترجمة هاشم صالح دار الطليعة بيروت الطبعة الثانية ٢٠٠٥م ص٥٦ و٨٠.

الخاتمة

إذا كان البحثُ العلمي المعاصر في مجال دراسة النصوص يرى أنه تنبغي العناية بالتأويل، لأنه «أصبح في العصر الحديث الموجِّه، والمحرِّك للعلوم الإنسانية»[١]- فإن ذلك لا يعني بحالٍ من الأحوال إهدار **دلالته الإصطلاحية** الواردة في القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ، وتصرفات أئمة المفسرين واللغويين من سلف هذه الأمة.

إن الدلالة الإصطلاحية للتأويل في القرآن الكريم تعني كما أومأنا إلى ذلك في المبحث الأول من هذه الدراسة: التفسير، كما أنها تعني الوقوف على حقيقة الشيء وأصله ومرجعه.

وجاءت في ذلك نصوص حديثية ذكرنا بعضها آنفا تشهد لذلك وتؤيده.

كما أنَّ السَّلف من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين لم

---

(١) عاطف جودة نصر النص القرآني وآفاق التأويل مقال منشور في موقع مجلة التسامح www.altasamoh.net العدد ١٧.

يُعرفوا موظِّفين لمصطلح التأويل إلا من خلال دلالته القرآنية المنصوص عليه صراحة.

وإذا كان ارتباط التأويل بدراسة المجاز قد انحرف بمعناه عن الدلالة القرآنية -بحيث صار يعني صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى خفيٍّ يحتمله- فإنَّ ذلك إنما شاع لدى المتأخرين ممن ذَهَلَ عن **المصطلح القرآني** في معنى التأويل، وحاد عنه إلى معنى لم يأتِ منصوصا في كتابٍ ولا سنةٍ ولا كلام سلف صالح يُعتدُّ بقوله، ويُطمأنُّ إلى رأيه.

لقد حاول الإتجاه العلماني المعاصر أن يخترع له منهجا خاصا في فهْم ما اصطلح على تسميته بـ: «الظاهرة القرآنية»، أو «النص القرآني»، فركِبَ التأويلَ لا على أنه وِفْق الدلالة القرآنية، أو حتى على وفق الإصطلاح الحادث عند المتأخرين، بل على أساس تجاوز عتبة النص وحروفه، إلى روحه ومغزاه، فحرفوا الكلم عن مواضعه، وحادوا بمصطلح التأويل عن معناه الأول وإطلاقه الأصلي.

إن لعبة إحلال مصطلح (القراءة) مكان مصطلح (التأويل)[1]،

---

(١) يتخوف التيار العلماني العربي من المصطلح القرآني أيما تخوف =

واستبدال معنى مصطلح بمعنى مصطلح آخر، تنمُّ عن استلابٍ في الهوية، وضعفٍ في الشخصية، ولهثٍ وراء مصطلحات أمم لا تمتُّ إلينا بصلة حضارية، ولا لغوية.

وإذا كان «علماء التأويل» أو «الهرمنيطيقا» اليوم أرادوا «أن تكون نظرياتهم جامعة مانعة تدخل تحت طائلتها سائر الإبداعات»[١]، فإنه ينبغي أن يستثنى من ذلك القرآن الكريم الكريم، لأن له منهجا خاصا في الفهم، وآليات مقعَّدة ضمن ضوابط وقواعد التفسير التي أفنى فيها أهلُ العلم أعمارهم استنباطا وتأليفا.

والحمد للَّه أولا وأخيرا وصلى اللَّه وسلم على الهادي البشير والسراج المنير وعلى آله وصحبه أجمعين.

= ولذلك يبادر إلى استبداله كلما سنحت الفرصة، فمن ذلك إحلال محمد أركون لمصطلح «مجتمعات الكتاب المقدس محل المصطلح القرآني أهل الكتاب، انظر محمد أركون القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني مصدر سابق ص٨٠.

(١) محمد بن عياد التلقي والتأويل مدخل نظري مجلة علامات التي تصدر في المغرب العدد ١٠/ ١٩٩٨ عدد خاص عن التأويل متاح على موقع المدير المسؤول سعيد بنكراد www.saidbengrad.net

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- **الإحكام في أصول الأحكام** ابن حزم دار الكتب العلمية بيروت بلا تاريخ.

- **الإحكام في أصول الأحكام** الآمدي دار الكتب العلمية بيروت طبعة سنة ١٩٨٠م.

- **إشكاليات القراءة وآليات التأويل** د/ نصر حامد أبو زيد المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة السابعة ٢٠٠٥م.

- **الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد** د/ أحمد محمد الفاضل مركز الناقد الثقافي دمشق الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

- **التفسير الماركسي للإسلام** د/ محمد عمارة دار الشروق القاهرة الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

- **التأويل والحقيقة قراءات تأويلية في الثقافة العربية** علي حرب دار التنوير بيروت طبعة سنة ٢٠٠٧م.

- **التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين** إبراهيم محمد طه بويداين رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة القدس قسم الدراسات الإسلامية ٢٠٠١م غير منشورة.

- **تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي** دار الفكر بيروت بلا تاريخ.

- **تفسير الطبري** تحقيق محمود محمد شاكر سلسلة تراث الإسلام مكتبة ابن تيمية القاهرة.

-**التلقي والتأويل مدخل نظري** محمد بن عياد مجلة **علامات** التي تصدر في المغرب العدد ١٠/ ١٩٩٨ عدد خاص عن التأويل متاح على موقع المدير المسؤول سعيد بنكراد www.saidbengrad.net

- **تهذيب الآثار** الطبري مسند ابن عباس تحقيق محمود شاكر مكتبة الخانجي القاهرة.

- تهذيب اللغة للأزهري

- **جدلية النص والمنهج: آيات من سورة لقمان أنموذجا** كمال عمران والباجي القمرتي ضمن كتاب **في قراءة النص الديني** سلسلة موافقات الدار التونسية للنشر طبعة سنة ١٩٩٠م.

- **الصفدية** ابن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم طبعة سنة ١٤٠٦ هـ.

- **سنن الترمذي** دار الفكر بيروت بلا تاريخ.

- **صحيح مسلم** دار الفكر بيروت ١٤٠١هـ.

- **صحيح الإمام البخاري** انظر فتح الباري.

- **العلمانيون والقرآن الكريم** د/ أحمد إدريس الطعان دار ابن حزم الرياض ١٤٢٨هـ.

- **فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال** ابن رشد دار المشرق بيروت طبعة سنة ١٩٦٨م.

- **فتح الباري** ابن حجر دار الفكر بيروت بلا تاريخ.

- **فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي** د/ نصر حامد أبو زيد دار الوحدة بيروت ودار التنوير بيروت الطبعة الأولى١٩٨٣م.

- **في قراءات التراث الديني الإتقان في علوم القرآن أنموذجا** عبد المجيد الشرفي ضمن كتاب في قراءة النص الديني سلسلة موافقات الدار التونسية للنشر طبعة سنة ١٩٩٠م.

- **القرآن والتشريع قراءة جديدة في آيات الأحكام** الصادق بلعيد مركز النشر الجامعي تونس طبعة سنة ١٩٩٩م.

- **القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني** محمد أركون ترجمة هاشم صالح دار الطليعة بيروت الطبعة الثانية ٢٠٠٥م.

- **القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير** د. محمد محمود كالو دار اليمان سوريا الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

- **الكتاب والقرآن قراءة معاصرة** محمد شحرور الأهالي دمشق الطبعة الرابعة ١٩٩٢م.

- **لسان العرب** ابن منظور دار صادر بيروت بلا تاريخ.

- **مفهوم النص دراسة في علوم القرآن** د/ نصر حامد أبو زيد المركز الثقافي العربي بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

- **مفهوم التفسير والتأويل والإستنباط والتدبر والمفسر** د/ مساعد الطيار دار ابن الجوزي الرياض الطبعة الثانية شوال ١٤١٧هـ.

- **المستدرك** الحاكم دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

- **معجم مقاييس اللغة** ابن فارس تحقيق شهاب الدين أبو عمرو دار الفكر بيروت طبعة سنة ١٩٩٤م.

- **معاني القرآن** الأخفش الأوسط تحقيق هدى محمود قراعة مكتبة الخانجي الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

- **نقد النص** علي حرب المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب الطبعة الثانية ١٩٩٥م

- **نقد الخطاب الديني** د/ نصر حامد أبو زيد سينا للنشر القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

- **النص السلطة الحقيقة الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة** د/ نصر حامد أبو زيد المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

- **النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة** طيب تيزيني دار الينابيع دمشق طبعة سنة ١٩٩٧م.

- **النص القرآني وآفاق التأويل** عاطف جودة نصر مقال منشور في موقع مجلة التسامح www.altasamoh.net العدد ١٧.

- **النص القرآني ومشكل التأويل** مصطفى تاج الدين مجلة إسلامية المعرفة السنة الرابعة العدد الرابع عشر خريف ١٤١٩هـ.

جمع المصحف الشريف
بين حقد المستشرقين وجحود الحداثيين[١]

مقدمة البحث

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سِّيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بلَّغ الرسالة وأدى الأمانةَ ونصح الأمة وجاهد في اللَّه حق جهاده حتى أتاه اليقين صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد فلقد كان القرآن الكريم ولا يزال محط عناية من قِبل أعداء الإسلام من المتربصين من الخارج والداخل، إذ أقبلوا عليه نظرًا في تاريخ جمعه وتدوينه، وتحليلًا لطرق فهمه وتفسيره، ودراسةً لوجوه قراءته في طرقه ورواياته، وكلاما

---

(١) بحثٌ مقدَّم إلى مؤتمر المصحف الشريف ومكانته في الحضارة الإسلامية جامعة العلوم الإسلامية العالمية الأردن ١٤٣٣هـ.

على رسمه وشكله ونقطه، وحديثا عن لغته بلاغة وصرفا ونحوا إلى غير ذلك مما له اتصال بالكتاب المبين، والتنزيل الحكيم، إذ لم يتركوا جانبا من جوانبه إلا وكان لهم فيه نظر أو رأي، أو قول، فيه شبهة أو تلبيس، أو إرجاف.

وتختلف طبقات الناظرين في القرآن الكريم من القادحين فيه من مستشرقين حاقدين، ومستغربين حداثيين موتورين، من مسلمين علمانيين، وعرب لادينيين، وتعلق كل واحد من هؤلاء بزاوية من القرآن الكريم يطعن فيها، ويهدم منها بناءها ظانا أنه يأتي على قواعدها، ويجتث أصولها وأساسها، وكان من هذه الزوايا المهمة، تاريخ جمع القرآن ونقله، وظروف تدوينه وكتابته حتى صار في كتاب جامع وديوان واحد.

لقد كان نظرُ الفريقين من مستشرقين ومستغربين إلى القرآن الكريم على أنه كتاب من وضع بشر، واختراع إنسان، فهو عندهم -وحاشاه- نزوة كذاب، وغلطة متهور خساف، وإذا كان كذلك استحق منهم القدح في تاريخ نقله، والتكذيب لطريقة تدوينه، والدفع في الصدر لأساليب ثبوته ووصوله.

ولقد اقتضى ذلك من المستشرقين الطاعنين، والمستغربين

الحاقدين أن يعدوا له أهبة التكذيب، وسلسلة الإرجاف والتلبيس، إذ ما تركوا شبهة إلا روجوا لها، ولا ثلمة إلا ضخموها ووسعوها، كما أنهم لم يدعوا من تاريخ الفِرى في القرآن الكريم فرية إلا أعادوها جذعة، ولا كذبة إلا صححوها وأثبتوها. .

فعظُم بذلك الخطبُ، وجلَّ به الأمرُ، واتسع له الخرق، وازداد به البلاء، فكان لابد للمخلصين من المتصدرين في العلم الشرعي من التصدي لهذا البلاء، حتى لا يشرئب برأسه، ويعلوَ بذاته، فيخرج الأمر عن الضبط، ويتفلت إلى ما لا تحمد له عقبى، ولا نهاية.

ومساهمةً في ردِّ هذا البلاء، وفضْح حاله، جاء هذا البحث للسبب المتقدم، ولأسباب أخرى منها:

أولا: تسرُّبُ هذا البلاء إلى مقررات بعض المواد المفروضة على بعض المستويات العلمية في كثير من الجامعات العالمية عربيةً كانت أم إسلامية.

ثانيا: انتشار كثير من نظريات المستغربين من الحداثيين العلمانيين، واللادينيين الهالكين، على نطاق واسع في كثير

من أجهزة الإعلام العربية والدولية في برامج حوارية، وحلقات تثقيفية، وموائد مستديرة يدار فيها النقاش حول أسئلة اللحظة التاريخية الراهنة الخاصة بالحداثة والتغريب، ونظريات التقدم والتخلف، وإشكاليات اللحاق بالركب العالمي، والأخذ بأسباب المدنية والتطور.

ثالثا: انخداع كثير من الطلبة الشباب، الذين لم يطر في هذا العلم شاربهم، ولم يقْوَ فيه عُودُهم، ولم تطُلْ فيه ممارستُهم - بكثير من آراء التغريبيين الجديدة بخصوص تاريخ جمع القرآن الكريم، وانبهارهم بآخر ما يخرجه هؤلاء من نظريات تحطِّم الثوابت، وتهدم القواعد، وتنسف ما شاده الأجدادُ من حصون وأسوار تحمي هذا القرآنَ الكريمَ من أن يتسلط عليه من لا يحسن، ويتجاسر عليه من لا يعلم، ويتسوَّر عليه من لايفقه.

ولما خار اللَّه لي في الكتابة في هذا الموضوع الجليل الذي تكثر فائدته، وتغزُر عائدتُه، طفقتُ أنظرُ أيَّ سبيل أسلك، وفي أيِّ طريق أشرعُ، فكان الذي فُتح لي في ذلك ما صُغته في هذه المباحث التي أوردُ تسميتَها على هذا النحو:

المبحث الأول: آراء المستشرقين في جمع المصحف الشريف وفيه:

المطلب الأول: المطلب الأول: موقف المستشرقين من جمع القرآن وتدوينه.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين من جمع المصحف على عهد أبي بكر وعثمان رضي اللَّه عنهما.

المطلب الثالث: موقف المستشرقين من ترتيب القرآن الكريم.

المبحث الثاني: آراء التغريبيين الحداثيين بخصوص جمع المصحف الشريف وفيه:

المطلب الأول: القرآن الكريم في تصور التيار التغريبي الحداثي.

المطلب الثاني: موقف الحداثيين من جمع القرآن الكريم في عهد النبوة.

المطلب الثالث: موقف الحداثيين من جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق.

المطلب الرابع: موقف الحداثيين من جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان.

المطلب الخامس: آراء الحداثيين بخصوص ترتيب السور في المصحف الشريف.

المبحث الثالث: تقويم منهج المستشرقين والحداثيين في تناول مسألة جمع المصحف الشريف

المطلب الأول: تقويم منهج المستشرقين في دراسة جمع المصحف الشريف.

المطلب الثاني: تقويم منهج العلمانيين من الحداثيين في دراسة جمع المصحف الشريف.

الخاتمة في خلاصات ومقترحات تثري الإضافة العلمية للموضوع المبحوث فيه.

ولقد سلك الباحث أثناء بحثه، منهجا قائما على الاستقراء لنصوصٍ استشراقية وحداثيةٍ بخصوص تاريخ جمع المصحف الشريف وحيثياته، ومحاولة **تحليل ودراسة** المنظومة المرجعية للمدرسة الاستشراقية والحداثية العلمانية، **والمقارنة** بين

الاتجاهين للوصول إلى أفضل النتائج التي سيَبْسُط القولَ فيها في الخاتمة.

والله أَسأل أن يفتح مستغلق هذا الباب، وأن يبارك في الخطى ويوفِّق في الجهد، وأن يلهم الصواب، ويرشد إلى الحق، وأن ينفع بهذه البحث قارئه والناظر فيه والمستفيد منه، إنه سبحانه القادر على ذلك، وأصلي وأسلم على سيد المرسلين، ونبي الغر المحجلين، سيدنا محمد بن عبد اللَّه الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين من أهل بيته الميامين، وصحبه الشرفاء المأمونين، والحمد للَّه رب العالمين.

المبحث الأول:

آراء المستشرقين في جمع المصحف الشريف

لم يكن إقبال المستشرقين على الكتابة في القرآن الكريم تاريخا وعلوم تفسير «في يوم من الأيام بغرض تقريبه ممن لا ينطقون العربية أو بهدف التعريف بدين الإسلام أو بغرض نشر ثقافة صحيحة عن هذا الدين.. وإنما كانت جهود المستشرقين تُنفق لغايات أخرى يُتستر عليها بمصطلح «البحث العلمي»، و«الأكاديمي... ولو تتبعنا ما حرره المستشرقون عن القرآن خلال قرون... ما كنا نحتاج إلى كبير عناء وبحث لكي نصل إلى المعتقد الذي ظلَّ يحكم تعاملهم مع الدراسات القرآنية وهو قناعتهم التقليدية ببشرية كتاب اللَّه تعالى، فالمستشرق وقد أُشرب قلبه إنكار ربانية القرآن يسعى بدهاء كي يبرهن من خلال كتاباته على هذا المعتقد، يستوي في ذلك متعصبتهم ممن يكشفون عن أراجيفهم علانيةً مع أولئك المستشرقين الذين قادهم الدهاء إلى تغليف دعاويهم ببشرية القرآن بشتى الأساليب الملتوية»[١].

---

(١) علم التفسير في كتابات المستشرقين للدكتور عبد الرزاق =

لقد كان القرآن الكريم ولا يزال في كثير من تصورات المستشرقين هو ما استقاه محمد بن عبد اللَّه ﷺ من مصادر أجنبية يهودية ونصرانية على وجه الخصوص[١]، أو من عقائد أخرى معاصرة للإسلام أو قديمة[٢]، وكان طريقَ علْم محمد ﷺ بهذه الديانات والمعتقدات القديمة الأحبارُ والرهبانُ الذين كان يلقاهم أو يتصل بهم في مكة[٣]، أو أنَّ المصحف الذي بين أيدي المسلمين اليومَ إنما تشكَّل متنُه من آراء الفقهاء وفتاويهم

= ابن إسماعيل هرماس ص٧٩ و٨٠.

(١) يقول المستشرق ويلتش محرر مادة قرآن في النشرة الحديثة لدائرة المعارف الإسلامية الصادرة بالفرنسية عام ١٩٨١م في المبحث الذي عنونه بـ: «محمد والقرآن»: «. . . هناك آيات مدنية تشعرنا بأن محمدا يبحث بفعالية من أجل استقاء معلوماته عن اليهود. . وفي هذه المقاطع لا يصعب علينا أن نرى محمدا يأخذ قصصا ومعلومات من مصادر متعددة بخاصة من اليهود والنصارى، ثم يعيد صياغة ذلك في القرآن. . .» المصدر السابق ص٨١.

(٢) ممن يقول بذلك المستشرق سنكلير انظر المستشرقون والقرآن الكريم للدكتور محمد أمين حسن محمد بني عامر ص٢٠٦.

(٣) ممن يقول بهذا القول من المستشرقين جولد تسهير وبلاشير وجون نوس المستشرقون والقرآن الكريم للدكتور محمد أمين حسن محمد بني عامر ص ٢١١.

خلال القرون الثلاثة الأولى كما يقول المستشرق كلود جيليو[١].

ولقد أيد المستشرقون تصوراتهم هذه عن القرآن الكريم بجملةٍ من الأدلَّة، وذلك حتى يظهروا بمظهر من يستظل بمظلة «البحث العلمي المنهجي» في بحوثهم عن الإسلام وأصوله ومرجعياته، ومن تلك الأدلة زعموا، أن القَصص القرآني عن الأمم السابقة مقتبسٌ من العهد القديم والجديد[٢]، وأنُّ القرآن اشتمل على أسماء لسور كالنحل والنمل والعنكبوت، يستحيل زعموا أن تكون موضوعا لوحي إلهي[٣]، وأنَّ «طريقة ترتيب

---

(١) يقول كلود جيليو في هذا الصدد: «...اختلاف مرويات القرآن التي تلقاها أصحاب محمد بخاصة القراءات الشاذة، يرجع في أصله إلى الحاجة لإدراج حواشي وشروح تتضمن تشريعات قديمة لنص لم يتم الانتهاء من جمعه قبل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي». انظر:

Claude Gillot L exÕgÒse du coran et les recherches contemporaines in EncyclopÕdie universalis corpus 6 p548

(٢) المستشرقون والقرآن الكريم للدكتور محمد أمين حسن محمد بني عامر ص٢١٢.

(٣) المصدر السابق.

آياته تدل على أنه من صنع البشر، وتبويبه غير منطقي يصعب معه تبين كيفية ترتيب آياته أصلا»[(١)].

ولما اعتقد المستشرقون في القرآن الكريم هذا الاعتقاد الباطل، نظروا إليه على اعتبار أنه **أثر أدبي محض**[(٢)]، بل قد وجد من بينهم مَنْ عدَّه دون التراث الأدبي العربي القديم[(٣)]، ولذلك أقبل العديد منهم على دراسة تاريخه، وظروف جمعه حتى صار مصحفا مقروءا بين دفتين، يقدِّسه المسلمون اليوم.

لا يُدرى تاريخ معين محدد، أقبل فيه الاستشراق بمختلف مدارسه واتجاهاته على الكلام على تاريخ جمع المصحف الشريف، وتدوينه وكتابته، وإنما كان ذلك ضمن آرائه العامة حول مصادر الإسلام الأولى من أول يوم حدث اللقاء بين الشرق والغرب في مطارحات كلامية، وملاسنات نقاشية في

---

(١) المصدر السابق ص٢١٣.

(٢) علم التفسير في كتابات المستشرقين للدكتور عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس ص٨٢.

(٣) من هؤلاء المستشرقين شيخهم ثيودور نولدكه في رسالته «القرآن ملاحظات نقدية حول الأسلوب والتركيب».

القرن العاشر الميلادي، ومنذ ظهور الاستشراق تخصصا مفردا في قرون تلت ذلك في أوروبا[١].

وفي الحق يندر أن يوجد مستشرق يكتب في الدراسات القرآنية ليس له رأي أو معتقد معين بخصوص جمع المصحف في حياة النبي ﷺ، وما بعد ذلك في عهد أبي بكر وعثمان رضي اللَّه عنهما، ولذلك وُجدت دراسات استشراقية قد تكون عديدة اعتنت بدراسة تاريخ جمع القرآن الكريم من أول يوم إلى زمن الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان في مصحف وُسم بـ: «مصحف الإمام»، وقام بهذه الدراسات أشهر المستشرقين من بلاد مختلفة كالمستشرق الألماني ثيودور نولدكه Theodore Noldeke، والمستشرق الفرنسي بول كازانوفا Casanova Paul والمستشرق الإنجليزي أرثر جفري A . Jeffery، والمستشرق الفرنسي ريجس بلاشير R،Blmach gisیre، والمستشرق المجري اليهودي الأصل جولد تسهير Goldziher وغيرهم ممن «تخصص اليومَ في **تاريخ المصحف** فاتجه لجمع

---

(١) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد للدكتور عمر بن إبراهيم رضوان ١/ ٢٣ وما بعدها من صفحات دار طيبة الرياض بلا تاريخ.

مخطوطاته بكل الطرق الممكنة سواء من أوربا ، أو من مختلف الدول الإسلامية، ومن هؤلاء المهتمين بمخطوطات المصاحف Fredec Imbert ، وSolange Ory من جامعة إكس بمرسيليا وFran‍ois D‍roche»[١] .

ولقد كان ينهزُ أغلبَ المستشرقين الذين تكلموا على تاريخ تكوين المصحف بزعمهم جملةُ أسباب منها :

أولا : محاولةُ تفسير القرآن الكريم، إذ وضع دهاتهم لذلك منهجا يقوم على ثلاث خطوات :

«الأولى : إعادة البحث في تاريخ **المصحف الشريف** جمعا وتدوينا . .

الثانية : القيام بعملية نقد لأمهات التفاسير المعتمدة .

الثالثة : إعادة تفسير القرآن اعتمادا على معطيات العلوم الإنسانية المعاصرة كما هي في الغرب»[٢] .

---

(١) الدراسات القرآنية عند المستشرقين خلال الربع الأول من القرن الخامس عشر للهجرة للدكتور عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس ص١٣٧ .

(٢) علم التفسير في كتابات المستشرقين للدكتور عبد الرزاق بن =

ثانيا[١] : دعواهم أن جمع عثمان للمصحف أغفل جملة من القراءات التي لم ينته الفصل فيها بقول يُطمأنَّ إليه إلى يوم الناس هذا[٢].

ثالثا : «أن المصحف العثماني الذي تناقله المسلمون حتى اليوم لم يكن تدوينه كاملا، لذلك احتاج فيما بعد إلى آراء الفقهاء لبيان الناسخ والمنسوخ، وذلك حرصا على بعض التشريعات التي لم يتضمنها المصحف كعقوبة الرجم»[٣].

رابعا : أن هذا المصحف ظلَّ خاضعا للمراجعة حتى القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي[٤].

= إسماعيل هرماس ص١٠٠.

(١) هذا السبب والذي يليه مستفاد من علم التفسير في كتابات المستشرقين للدكتور عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس ص١٠٢.

(٢) Claude Gillot L exégèse du coran in Encyclopédie universalis corpus 6 p547 و

. A.T.Welch, ALKURAN, in Ency - de L Islam, Tome5 P 405-408

(٣) Claude Gillot L exégèse du coran in Encyclopédie universalis corpus 6 p547.

(٤) القرآن: نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره بلاشير ص٣٤.

ويمكن تقسيم القول في مواقف المستشرقين من تاريخ المصحف الشريف -تبعا لما وقفتُ عليه من شبهاتهم- إلى ما يلي:

- موقف المستشرقين من جمع القرآن وتدوينه.
- موقف المستشرقين من جمع المصحف على عهد أبي بكر وعثمان رضي اللَّه عنهما.
- موقف المستشرقين من ترتيب القرآن الكريم.

* * *

المطلب الأول:

موقف المستشرقين من جمع القرآن وتدوينه

إن المتأمل فيما كتبه المستشرقون حول مسألة جمع القرآن الكريم وتدوينه، يُفضي به البحثُ إلى جملة من الدعاوى والشُّبهات روَّج لها الاستشراق بمختلف اتجاهاته ومدارسه منها[(١)]:

١/ **ادعاء غموض قضية تاريخ القرآن**: حاول الاستشراق أن يدَّعي وجود الغُموض في تاريخ المصحف الشريف جمعا لسُوره وتدوينا لآياته، وذلك حتى يصحَّ له القدحُ في سلامة النَّص القرآني من التحريف والزيادة والنقصان، ومن المستشرقين الذين صرحوا بغموض هذه القضية، **ولتش** الذي يقول: «**إن تاريخ القرآن بعد وفاة محمد لا يزال غير واضح**، وإن إعداد النسخة الرسمية أو القانونية للقرآن مر

(١) هذه العناصر مستفادة من مواقف المستشرقين من جمع القرآن الكريم ورسمه وترتيبه عرض ونقد للدكتور أبو بكر كافي ص ٤.

بثلاث مراحل عبر تطورها، يصعب وضع تاريخ محدد لكل منها، وإن الاعتقاد السائد بين المسلمين هو أن القرآن كان محفوظا بطريقة شفهية، ثم كُتب أثناء حياة النبي -صلوات اللَّه وسلامه عليه- أو بعد موته بقليل، عندما جُمع ورُتب لأول مرة بواسطة الصحابة، ثم ظهرت النسخة الإمام أو المصحف الإمام في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﵁»[(١)].

ولما وجد الاستشراق في قضية جمع القرآن غموضا استصعب الكتابة فيها مدعيا تعقُّدها كما قال ولتش: «ومن جانبنا فإننا نلاحظ أن مهمة إعادة كتابة تاريخ القرآن ليست سهلة، بل هي أكثر تعقيدًا في الحقيقة؛ وذلك لأن المصادر القديمة تحتوي على الآلاف من الأشكال النصية المختلفة، والتي لا توجد في أي مخطوط يعرفه المستشرقون»[(٢)].

٢/ ادعاء عدم صحة المنقول من الأخبار الواردة في

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص٤٠٤ عمود ب.

(٢) القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية للدكتور محمد محمد أبو ليلة ص١٤٣ و مواقف المستشرقين من جمع القرآن الكريم ورسمه وترتيبه عرض ونقد للدكتور أبو بكر كافي ص٥.

الجمع: لقد نُقلت إلينا أخبار جمع المصحف الشريف بالنقل الصحيح الصريح الذي لا تشوبه شائبة انقطاع ولا إعضال، ولا تلوِّثه لوثة كذاب ولا وضاع، فكانت أخبارا صحيحة ناصعة نصوع الشمس في رابعة النهار، تنادي بأن القرآن الكريم اعتنت الأمة بنقله وتدوينه وجمعه حياطة له، وصيانة له من التزيد، إنجازا للوعد الذي ضمن اللَّه جلَّ وعلا حفظه عندما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[(١)]، فلما وقف الاستشراق على هذه العناية التي أحيط بها كتاب اللَّه نقلا للفظه، وجمعا لآياته، حاول أن يقدح في هذه الأخبار الصحيحة التي تفيد ذلك، سعيا منه إلى أن يجرح مكانته، ويزعزع ثقةَ المسلمين به.

ولقد كان المستشرق ولتش من أكثر المستشرقين ادعاء للضعف على مثل هذه الأخبار الصحيحة التي اشتملت على تفاصيل الجمع المبارك للمصحف الشريف، إذ يقول: «إن المسلمين قبلوا هذه الروايات[(٢)] على أنها صحيحة تاريخيا،

(١) سورة الحجر الآية رقم ٩.

(٢) يعني ولتش رواية زيد بن ثابت في مقتل أهل اليمامة وماكان من =

وأن ما فيها حق لاشك فيه، مع أن هناك مشكلات صعبة تحوط بها، حيث توجد روايات أخرى في كتب الأحاديث المعتمدة تناقض موضوع هذا الحديث»[١].

ويساير جماعةٌ من المستشرقين ولتش في ادعاء الضعف والاختراع على بعض أخبار جمع القرآن الكريم، ومن بينهم المستشرق **كتاني وإسكواللي، وبروكلمان**، الذين يبدون شكوكا كثيرة في موقعة اليمامة وفي كونها السبب الداعي إلى جمع القرآن الكريم، بدعوى أنَّ من مات فيها من الحَفظة كان قليلا جداً خلافا للرواية الرسمية المنقولة[٢].

٣/ ادعاء تأخر تدوين القرآن الكريم: يرى الاستشراق أن

= جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق بسبب ذلك وموافقة عمر بن الخطاب، والحديث في البخاري كتاب فضائل القرآن.

(١) القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية للدكتور محمد محمد أبو ليلة ص١٤٩ و١٥٠ ومواقف المستشرقين من جمع القرآن الكريم ورسمه وترتيبه عرض ونقد للدكتور أبو بكر كافي ص٥.

(٢) القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية للدكتور محمد محمد أبو ليلة ص ١٥٨ ومواقف المستشرقين من جمع القرآن الكريم ورسمه وترتيبه عرض ونقد للدكتور أبو بكر كافي ص ٦.

القرآن الكريم لم يكن مدونا على عهد النبي ﷺ، وتأخر جمعه في ديوان جامع، ومصحف تام كامل إلى زمن متأخر بعد وفاة صاحب الرسالة، ونبي الدعوة، ومن المستشرقين الذين قالوا بهذا الرأي وروَّجوا له، واعتقدوه مذهبا في العلم صحيحا، غوستاف لوبون الذي يرى أن: «القرآن هو كتاب المسلمين المقدس، ودستورهم الديني والمدني والسياسي الناظم لسيرهم، وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط مع أنه أنزل وحيا من اللَّه على محمد، وأسلوب هذا الكتاب - وإن كان جديرًا بالذكر أحيانا - خال من الترتيب فاقد السياق كثيرا، ويسهل تفسير هذا لدى النظر في كيفية تأليفه فقد كُتب تبعًا لمقتضيات الزمن بالحقيقة، فإذا ما اعترضت محمدًا معضلة أتاه جبريل بوحي جديد حلاً لها، ودوَّن ذلك في القرآن، **ولم يُجمع القرآن نهائيا إلا بعد وفاة محمد، وبيان الأمر أن محمدًا كان يتلقى في حياته عدة نصوص عن الأمر الواحد، فلما انقضت عدة سنين على وفاته حمل خليفته الثالث على قبول نص نهائي مقابلا بين ما جمعه أصحاب الرسول**، والقرآن مؤلف من مئة وأربع عشرة سورة وكل سورة مؤلفة من آيات،

ومحمد هو الذي يتحدث فيها باسم اللَّه على الدوام»[١].

كما أنَّ من هؤلاء المستشرقين بلاشير وسوردال، إذ يرى الأول أن التدوينَ الفعلي للقرآن الكريم لم يكن إلا في الفترة المدنية بعد الهجرة المحمدية[٢]، بينما يرى الثاني بأن «الآثار الإسلامية نفسها تدل على عدم تقييد الآيات القرآنية بالكتابة تحت رقابة النبي محمد، ولا هو ضمّها ضمن مجموع كامل، بل اكتفى فقط قبيل وفاته بالإعلان عن نهاية الوحي، الذي امتدَّ على

(١) حضارة العرب ص١١٥ ومواقف المستشرقين من جمع القرآن الكريم ورسمه وترتيبه عرض ونقد للدكتور أبو بكر كافي ص ٨ و٩.

(٢) يقول بلاشير في القرآن نزوله تدوينه.... ص٢٩: «الحاجة إلى كتابة القرآن لم تنشأ إلا بعد إقامة محمد في المدينة، وعلى أن الحاجة إلى التدوين لم تظهر فيما يبدو إلا بين الفينة والأخرى، وربما كانت تنشأ عن تحمس شخصي لبعض النصوص التي تشتمل على أدعية أو أحكام تشريعية كانوا يرونها هامة، ولقد شجع النبي حماسة التدوين هذه، ولكنه لم يجعلها واجبة، وعلى أي حال فإن هذا التدوين كان جزئيا ومثيرا للاختلاف، كما كان مختلفا على الأخص بسبب عدم ثبات المواد المستعملة لذلك التدوين». وانظر نقدا متينا لهذا الرأي في آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم للدكتور أحمد نصري ص وما بعدها ٢٠٧.

فترة سنوات طويلة، وتم تبليغه نجوما حسب الاقتضاءات»[١]، ويقول شيخ المستشرقين **الألماني نولدكه** بكل ثقة وشجاعة: «ألا يكون القرآن قد جمع كاملا في أيام النبي أمر بديهي، ذلك أن رسول اللَّه استدعي بشكل مفاجئ وغير متوقع من المسرح الأرضي»[٢].

٤/ ادعاء أن فقرات من القرآن الكريم قد ضاعت وفقدت من المصحف الذي يقرأ منه المسلمون اليوم: يكاد المستشرقون يتفقون على أنَّ هذا المصحف الذي وصل إلينا، ليس هو القرآن الكريم بنصه الكامل الذِّي أُنزل على محمَّد ﷺ، بل إنَّ ما جمع في عهد أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان قد سقطت منه أشياء، فضاعت من الوحي نصوص، كان من المفروض وجودها في المصحف الحالي، ومن بين هؤلاء المستشرقين القائلين بهذا الرأي، المستشرق الفرنسي **هنري ماسيه** الذي يقول صراحة جهارا: «**إن القرآن كما وصل إلينا لا يتضمن الوحي كله**»[٣].

---

(١) مواقف المستشرقين من جمع القرآن الكريم ورسمه وترتيبه عرض ونقد للدكتور أبو بكر كافي ص ٩.

(٢) تاريخ القرآن لنولدكه ص٢٤٠.

(٣) نص عبارة هنري ماسيه: " =

ويعنون **نولدكه** بعض فقرات كتابه في تاريخ القرآن بهذا العنوان الصارخ: «**ما لايتضمنه القرآن مما أوحي إلى محمد**»، ويورد تحته جملة من الأخبار التي تفيد ما قد فهمه مسبَّقا من ضياع جزء غير مقروء به من القرآن الكريم»[١].

ويؤكد المستشرق الفرنسي **كازانوفا** «أن مذهب محمد الحقيقي إن لم يكن قد زيِّف فهو على الأقل سُتر بأكبر العنايات، وأن الأسباب البسيطة التي سأشرحها فيما بعد هي التي حثت أبا بكر أولا ثم عثمان من بعده على أن يمدا أيدهما إلى النص المقدس، وهذا التغير قد حدث بمهارة بلغت حدا جعل الحصول على القرآن الأصلي يشبه أن يكون مستحيلا»[٢].

وأورد المستشرق الإنجليزي أرثر جفري في تحقيقه لكتاب

= Sans doute il faut le répéter le Coram tel qu'il nous est Parvenu ne contient pas la totalité des révélations"

انظر آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم ص٢٣٦.

(١) تاريخ القرآن ص ٢١٠ - ٢٣٢.

(٢) المستشرقون والقرآن الكريم للدكتور محمد أمين حسن محمد بني عامر ص ٢٧٣.

المصاحف لابن أبي داود في القسم الثالث من التحقيق، وهو القسم الإنجليزي «آيات وسورا مخالفة للقرآن الكريم ادعى أنه نقلها من كتب التفسير والقراءات دون أن يبين لنا كتابا معينا حتى يمكن الرجوع إليه، وفيما يلي نموذجا لما كتبه وألحقه في سورة البينة كذبا وزورا: «رسول اللَّه إليهم يتلو صحفا مطهرة وفيها كتب قيمة، ورأيت اليهودية والنصرانية إن أقوم الدين الحنيفية مسلمة غير مشركة، ومن يعمل صالحا فلن يكفره»[١].

٥/ دعوى وجود آيات في القرآن ليست منه أصلا: اجتهد الاستشراق في أن يُثبت أن المصحف الذي بين أيدي المسلمين اليوم، ليس هو القرآن الذي قرأه النبي ﷺ ونقله الصحابةُ من بعده، بل إنه مصحفٌ قد وُجدت فيه أشياءُ ليست منه، لأغراض ليست تعرف، وما زال البحث مستمرا لاستجلاء كوامنها وأسرارها، ومن هؤلاء المستشرقين الذين اعتقدوا هذا الرأي ودافعوا عنه لفترة من الزمن، المستشرق الألماني نولدكه الذي صرح في كتابه: «تاريخ القرآن» بـ: «أن

(١) كتاب المصاحف لابن أبي داود الملحق الإنجليزي ص١٧٩ مكتبة المثنى بغداد.

فواتح السور ليست من القرآن، وإنما هي رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يوجد المصحف العثماني، فمثلا حرف الميم كان رمزًا لصحف المغيرة، والهاء لصحف أبي هريرة، والصاد لصحف سعد بن أبي وقاص، والنون لصحف عثمان، فهي إشارة لملكية الصحف وقد تركت في مواضعها سهوًا، ثم ألحقها طول الزمن بالقرآن فصارت قرآنا»(١).

ولقد لقي هذا الرأي من نولدكه ترحيبا واسعا من لدن مدارس الاستشراق المختلفة، رغم أن الرجل قد تراجع عنه وأبدى رأيا مغايرا اعتمادا على ما نشره لوت في مقاله عن الطبري مفسِّرا(٢).

***

---

(١) تاريخ القرآن ص٣٠٣.

(٢) القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية ص ٢٣١ و٢٣٢.

المطلب الثاني:

موقف المستشرقين من جمع المصحف على عهد أبي بكر وعثمان رضي اللَّه عنهما.

كان العمل الرائع الجاد الذي قام به الخليفتان أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان رضي اللَّه عنهما، تجاه ما وصل إليها من صحف القرآن الكريم، من جمع المسلمين على مصحف هو الذي أنزل نص ما فيه على قلب رسول اللَّه ﷺ - محط نظر وانتقاد للمستشرقين، لأنه إذا حِيكتِ الشبهات والأباطيل ضد هذا العمل الذي لم يعمل أحد بعده على مثاله، سهُل حينئذ إسقاط الثقة بالمصحف الذي يقرأ منه المسلمون اليوم، ويعدُّونه قُدس الأقداس، وثابت الثوابت.

وهكذا اتجهت جهودُ الاستشراق الغربي إلى تفاصيل ما ورد من أخبار عن ظروف جمع أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان، وأسباب ذلك وحيثياته نقدا واعتراضا ورميا بالشبهة من غير تحقيق، ودسا للفرية من غير تدقيق، تخليطا للحق مع

الباطل، ونفثا للسُّمِّ القاتل، وترويجا للأراجيف الباطلة، ونسجا لبيوت العناكب الواهية. .

لقد بادر الاستشراق إلى الإفصاح عن نواياه الخبيثة تجاه هذا الجمع الشريف المبارك من قِبل طبقات الأمة التي لا يمكن أن تجتمع على ضلالة، ولعل أصدق منْ عبَّر عن لسانه بخصوص ذلك هو **المستشرق المجري جولد تسهير** الذي قال: «. . . فلا يوجد كتاب تشريعي، اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في **أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن**»[1].

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسهير ص ٤.

أولا:

موقف المستشرقين من جمع أبي بكر الصديق

لقد وُجد من المستشرقين مَن عدَّ الجمع الذي شرُف أبو بكر الصديق بالقيام به، مرحلة ثانية من مراحل **تدوين** القرآن الكريم، وليس مرحلة أولى **لجمع** القرآن كما هو واقعُ الحال مؤيَّدا بالأدلة الخبرية والعقلية الناصعة من تاريخ هذا المصحف الشريف، وممن ذهب إلى هذا الرأي الآفل **المستشرق الفرنسي بلاشير** الذي يقول: «إن جمع الخليفة أبي بكر يمثل المرحلة الثانية من تدوين القرآن، وأن سبب هذا الجمع يعود إلى الخوف من ضياع القرآن بعد أن استحر القتل بطائفة كبيرة من القراء في معركة اليمامة»[١].

وانبرى الاستشراق لبعض تفاصيل هذا الجمع الأول المبارك ملبِّسا الحق بالباطل، قادحا مروِّجا للشُّبهة والفِرية، فمن ذلك الطعن في أهلية زيد بن ثابت رضي الله عنه في اختيار أبي بكر

---

(١) Le Coran que Sais je p 20

الصديق له بالاضطلاع بالعمل المبارك الذي أثمر جمعا مسَدَّدا موَفَّقا، إذ يشكِّك **بلاشير وولتش** في كفاءة زيد بن ثابت ثم يلقي ظلالا من الريبة في نية أبي بكر من اختيار زيد دون غيره من النساخ، وقد كان فيهم من هو أسنُّ وأخبر بالموضوع وأعلم؟؟[١].

* * *

---

(١) Introduction au Coran p32 - 33

وانظر أيضا: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية ص ١٥٩.

ثانيا:

موقف الاستشراق من جمع عثمان بن عفان

ولما كانت هذه هي مأثرة عثمان بن عفان العظمى لهذه الأمة، وحسنته الكبرى، ويده الناصعة البيضاء، انبرى الاستشراق للقدح فيها، فكان من ذلك جملة من المطاعن نسوقها واحدا تلو الواحد:

١/ **التشكيك في غرض عثمان من الجمع، فهذا المستشرق الفرنسي ماسيه** يرى «أنه كان لعثمان هدف سياسي بعمله هذا يعادل الهدف الديني، فقد وصل إلى الخلافة بجهد، وكان قد عزَّز مركزه بإقراره نصا لا يتغير للكتاب المقدس»[١].

٢/ **الطعن في قرار عثمان في إحراقه المصاحف الشخصية بعد تمام الجمع**: إذ يَعدُّ **بلاشير** ذلك تدنيسا للمقدسات[٢]، ولذلك اعتنى الاستشراق بتتبع ما وقع في مصاحف الصحابة

(١) L Islam ; p 78.

(٢) Introduction au Coran p57-60.

الفردية من اختلافات، ونشروا ذلك وألفوا فيه البحوث والدراسات، إرجافا بالباطل، وترويجا له[١].

٣/ الطعن في قيمة المصحف الإمام الذي هو بركة من بركات عثمان على هذه الأمة: فهو كما يرى بلاشير لم يكتمل في جوانب كثيرة، فنمطُ الخط بزعمه - الذي استعمله الناسخون لم يزل بدائيا[٢].

٤/ الطعن في المصحف الإمام من حيث كونه ناقصا لم يشتمل على جميع على المنزل على محمد ﷺ: فمثلا «حاول بعض المستشرقون الفرنسيين خلق صراع وهمي بين علي وعثمان رضي اللَّه عنهما، في مسألة المصحف حتى يتسنى لهم القول إن الشيعة رفضوا الاعتراف بالمصحف العثماني»[٣].

---

(١) ممن ألف في ذلك المستشرقان ألفونس منجانا وآجنس سميث إذ نشرا في سنة ١٩١٤م كتابا بعنوان: «أوراق من ثلاثة مصاحف قديمة يمكن أن تكون سابقة للمصحف العثماني مع قائمة من اختلافات»، كما أن لجولد تسهير في كتابه: «مذاهب التفسير الإسلامي ص٢١ - ٤٧ عناية بإثبات الزيادات الموجودة في المصاحف الفردية.

(٢) Introduction au Coran p57-60

(٣) آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم ص ٢٣٢.

يقول بلاشير في هذا الصدد: «إن الشيعة يؤكدون أن المقاطع التي تتعلق بعلي وعائلته قد حذفت بأمر عثمان، ويستندون في ذلك إلى عدم تلاحم بعض المقاطع، ويعتبرون أن النص الأصلي قد انتقل سرا من كل إمام إلى خلفه، وسيظهر في النهاية عند ظهور الإمام المختفي»[١].

* * *

(١) L Islam; P79

المطلب الثالث:

موقف المستشرقين من ترتيب القرآن الكريم

كانت هذه القضية من أهم القضايا التي أثارها المستشرقون بخصوص المصحف الشريف، حتى عَدَّ المستشرق الإنجليزي **جيمس دوغلاس بيرسون** J Pearson D دراسةَ الترتيب الزمني للقرآن في العصر الحاضر حقلا محفوظا إلى حدٍّ بعيد للمستشرقين[١]، ويرجع تاريخ اهتمام الاستشراق بهذه القضية إلى أواسط القرن التاسع الميلادي، حيث شرع المعتنون بدراسة فكر ودين الشرق في حلِّ هذه المعضلة مستعينين بطرق جديدة!؟[٢]

وكان من هذه الدراسات الشهيرة ما سمِّي بـ: «مدرسة المراحل الأربعة» L یcole des quatres pیriodes التي وضع أساسها **المستشرق الألماني غوستاف. فيل** G.Weil في كتابه:

---

(١) Ibid ; Tom V ; p 416

(٢) Islamologie ; p600.

«مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن»، والذي خمَّن فيه تاريخ القرآن الكريم وقدَّم ترتيبه الزمني الخاص، موظِّفا ثلاثة معايير: الأول: ذو طابع أسلوبي، ويعتني بشكل الآيات من حيث البسط والاختصار، الثاني: الأحداث والوقائع التي حددت موقف محمد ﷺ من معارضيه، الثالث: يعتني بالنصوص العضوية التي يجمعها رابط معنوي، كتحديد الشعائر الدينية أو بيان المحرمات الغذائية، أو بيان العلاقة مع الوثنيين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى[١].

وتابع المستشرق الألماني **نولدكه** في كتابه تاريخ القرآن **غوستاف. فيل** في هذه المعايير، وأضاف بعض التعديلات الطفيفة، حيث تحدث عن مراحل ثلاثة للقرآن الكريم، المرحلة الأولى تطابق فيها السنوات الأربع من حياة الرسول، وسور هذه المرحلة سور قصيرة وحماسية، لغتها احتفالية... المرحلة الثانية تشمل السنة الخامسة والسادسة لعمل محمد في مكة، وسور هذه المرحلة فيها حكايات عن الأنبياء السابقين ومواساة للمؤمنين، المرحلة الثالثة من السنة

---

(١) Ibid ; Tom V ; p 41

السابعة إلى السنة العاشرة، فيها قصص عن الأمم البائدة مع أنبيائهم[١].

ولقد نوه المستشرق الفرنسي بلاشير بجهود نولدكه في إعادة ترتيب المصحف الشريف ترتيبا زمنيا حسب النزول، وقال: «إنه بفضل نولدكه ومدرسته أصبح ممكنا من الآن فصاعدا أن نوضح للقارئ غير المطلع ما يجب أن يعرفه عن القرآن، ليفهمه بنوعيته وليتخطى القلق الذي ينتابه عند اطلاعه على نص يغلب عليه الغموض»[٢].

ويعزو بعض المستشرقين تعصبا . سبب إعراض المسلمين عن ترتيب المصحف ترتيبا وفق النزول إلى أصلهم العربي الذي لا يؤمن بالتنظيم والترتيب فهذا المستشرق البولوني **كازيمرسكي** Kazimrska: «يبدو لي أننا نبحث عن تفسير لهذا في زمن بعيد جدا، والواقع هو أن غياب روح الترتيب والتنظيم جد واضح عند العرب، هو التفسير الحقيقي. . . . بالتأكيد لا يمكن أن نطلب من أصحاب محمد منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة

---

(١) Islamologie ; p600-602

(٢) Je p21. Le Coran que Sais

تبني نظرية علمية للترتيب، ولكن آن الأوان لترك نظامهم»[١].

وتكاد تتفق أنظار المستشرقين وأطروحاتهم على ضرورة إعادة ترتيب المصحف الشريف ترتيبا جديدا، وإن وقع الخلاف في طريقة ذلك ووسيلته، فهذا هنري ماسيه يقول: «إن هذا الترتيب الاصطناعي الذي تبناه زيد ورفاقه لا يستطيع أن يرضي النفوس المفكرة»[٢].

وعدَّ سيمون المستشرق الفرنسي جاركاي Simon Jargy القرآن الكريم كتابا فوضويا متناقضا، وعلى هذا الأساس قال: «لابد من قراءة القرآن معكوسا بمعنى نبدأ من الأخير»[٣].

ومع ما بذله المستشرقون من جهود مضنية في سبيل ترتيب القرآن الكريم ترتيبا نزوليا، إلا أن من أنصف منهم اعترف بصعوبة الوصول في هذا الأمر إلى نتائج مرضية، تحظى بقبول العلماء المسلمين[٤]، أو يكون لها قسط كبير من الدقة[٥].

---

(١) Coran Tome premier p19.

(٢) L Islam ; p81.

(٣) L Islam et Chrétienté p 47.

(٤) Le Coran; préface J. Grosjean p550.

(٥) Encyclopédie Générale Larousse ; p550.

المبحث الثاني:

آراء التغريبيين الحداثيين بخصوص جمع المصحف الشريف

نشأ في بلاد العروبة والإسلام في مطالع القرن العشرين جيلٌ من المثقفين الذين أُعجبوا بمناهج البحث في العلوم الإنسانية التي نبتت في الغرب، فحاولوا إسقاطها على القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية، نازعين بذلك القداسة عن حياضهما، سالبين احترام المسلمين لهما، ولقد سُمِّي هذا التيار الناشئ من المثقفين العرب والمسلمين بالتيار التغريبي الحداثي أو العلماني في فهم القرآن الكريم فهما جديدا، وأخرج أصحابه والمتبنون لآرائه وأطروحاته جملةً من الدراسات والبُحوث التي توضِّح رأي هذا الإتجاه في القرآن الكريم.

المطلب الأول:

القرآن الكريم في تصور التيار التغريبي الحداثي

جاهد التيار العلماني الحداثي في الوطن العربي في أن يغير نظرة المسلمين عن القرآن الكريم، فينزع عنه القداسة التي اكتسبها طيلة تاريخ الإسلام، سالبا منه مصدريته الربانية، مضفيا عليه أوصافا تلحقه بالأعمال البشرية.

فهذا نصر أبو زيد يقول مبررا سبب عدم قدرة البشر على فهم النصوص الدينية فهما حقيقيا: « **إن القول بإلهية النصوص والإصرار على طبيعتها الإلهية تلك** يستلزم أن البشر عاجزون بمناهجهم عن فهمها ما لم تتدخل العناية الإلهية بوهب بعض البشر طاقات خاصة تمكنهم من الفهم، وهكذا تتحول النصوص الدينية إلى نصوص مستغلقة على فهم الإنسان العادي -مقصد الوحي وغايته- وتصبح شفرة إلهية لا تحلها إلا قوة إلهية خاصة. . . »[(١)].

---

(١) نقد الخطاب الديني ص٢٠٦.

واختلفت نظرة العلمانيين من الحداثيين المعاصرين إلى القرآن الكريم تعريفا به، وفهما له، فكان من ذلك جملة من التعاريف منها، تعريف **محمد أركون** الذي يقول فيه «القرآن مجموعة محدودة ومفتوحة من نصوص باللغة العربية، يمكن أن نصل إليها ماثلةً في النص المثبت إملائيا بعد القرن ٤/ ١٠»[١].

والقرآن الكريم عند **محمد عابد الجابري**: «وحي من اللّه حمله جبريل إلى محمد بلغة العرب، وهو من جنس الوحي الذي في كتب الرسل الأولين»[٢]، وهذا التعريف وإن كان ظاهره السلامة، فإن باطنه فيه دخنٌ، إذ أغفل منه كون القرآن معجزا متواترا متعبدا بلفظه، ولقد علمَ **الجابريُّ** أنه إن أورد هذه القيود في تعريفه للقرآن الكريم، فإن ذلك ناقضٌ عليه ما سوف يبنيه من آراء بعدُ حول نقل القرآن وجمعه في مصحف جامع كما سوف نذكره بعد حين.

والجابري يغلو في الوحي (القرآن الكريم) فيَعُدُّ ما يسميه: الظاهرة القرآنية - تجربةً روحية خاضها محمد ﷺ[٣].

---

(١) الفكر العربي محمد أركون ص٣٢.

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٤.

(٣) الشُّبه الإستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم رؤية نقدية ص ٣٥.

ولما عدَّ الحداثيون المعاصرون القرآن الكريم نصا كبقية النصوص البشرية، بادروا إلى دراسة كل شي متعلق به تاريخا وعلوما، ووضع ذلك على محك النقد والتشكيك، يقول **محمد أركون** في هذا الصدد: «نحن نريد للقرآن المتوسل إليه من كل جهة والمقروء والمشروح من قبل كل الفاعلين الاجتماعيين المسلمين مهما يكن مستواهم الثقافي وكفاءتهم العقائدية، **أن يصبح موضوعا للتساؤلات النقدية، والتحريات الجديدة المتعلقة بمكانته اللغوية والتاريخية والأنتروبولوجية والتيولوجية والفلسفية** نطمح من جراء ذلك إلى إحداث نهضة ثقافية عقلية وحتى إلى ثورة تصاحب الخطابات النضالية العديدة من أجل أن تفسِّر منشأها ووظائفها ودلالاتها، ومن ثَمَّ من أجل السيطرة عليها»[١].

ولقد اتفقت أطروحات العلمانيين من الحداثيين على أنه يجب تعريض القرآن الكريم للنقد، إعادةً للنظر في تاريخ جمعه، وتقليبًا للرأي في طريق نقله ووصوله، وتسليطًا للأضواء الكاشفة على تشكليه في مصحف إمام جامع يمثل النص الديني عند المسلمين.

---

(١) الفكر الإسلامي قراءة علمية ص٢٤٦.

ولعل **محمد أركون** هو أحسن من يمثل هذه النظرة العلمانية للنص القرآني عندما يصرح بصوت عال، غير هياب ولا وجل قائلا: «ينبغي أولا **إعادة كتابة قصة تشكُّل هذا النص بشكل جديد كليا**، أي نقد القصة الرسمية للتشكيل التي رسخها التراث المنقول نقدا جذريا، وهذا يتطلب الرجوع إلى كل **الوثائق التاريخية** التي أتيح لها أن تصلنا سواء كانت ذات أصل شيعي أم خارجي أم سني، هكذا نتجنب كل حذف ثيولوجي لطرف ضد آخر، المهم عندئذ التأكد من صحة الوثائق المستخدمة، بعدها نواجه ليس فقط مسألة إعادة قراءة هذه الوثائق، وإنما أيضا محاولة البحث عن وثائق أخرى ممكنة الوجود كوثائق البحر الميت التي اكتشفت مؤخرا. . .هكذا نجد أنفسنا أمام عمل ضخم من البحث وتحقيق النصوص الذي يتبعه فيما بعد -وكما حدث للأناجيل والتوراة- إعادة قراءة سميائية ألسنية للنص القرآني، إن المنهج الألسني رغم غلاطته وثقل أسلوبه، يمكنه أن يحررنا من تلك الحساسية التقليدية التي تسيطر على علاقتنا البسيكولوجية بتلك النصوص»[١].

---

(١) تاريخية الفكر الإسلامي ص٢٩٠-٢٩١.

ولقد اتجهت هذه الجهود المبذولة إلى محطات معينة في تاريخ جمع المصحف الشريف منها :

- جمع القرآن الكريم في عهد النبوة.
- جمع القرآن الكريم على عهد الصديق.
- جمع القرآن الكريم على عهد عثمان بن عفان.

وفيما يلي عرضٌ لأهم آراء العلمانيين من الحداثيين المعاصرين بخصوص جمع المصحف الشريف:

المطلب الثاني:

موقف الحداثيين من جمع القرآن الكريم في عهد النبوة

يذهب أكثر العلمانيين من الحداثيين التغريبيين إلى أن القرآن الكريم لم يكن مدونا مكتوبا في عهد المنزَل عليه ﷺ، وأنَّ الكتابة كانت بعد ذلك، في القرن الرابع الهجري، ولاريب في أن كتابا لم يكتب إلا بعد وفاة النبي الذي جاء به بقرون متطاولة، سيكون فيه سقط وتحريف وزيادة ونقصان.

فهذا **الطيب تيزيني** يقرر أنه «لم يجمع القرآن في مصحف إلا بعد موت الرسول ببضع سنين، وذلك بمبادرة أولى صدرت عن عمر بن الخطاب، بصيغة اقتراح طرحه على أبي بكر، الخليفة في حينه، مما يعني أنه في حياة محمد لم يكن هنالك شيءٌ حاسمٌ على الأقل، من هذا القبيل»[١].

كما يقرر **طيب تيزني** أيضا أن «هذين النسقين الدينيين أي القرآن والحديث - ما كانا منذ البدء نصين مكتوبين، بل مرًّا

---

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ص٦٣.

كلاهما بمرحلة القول الملفوظ المتداول شفهيا عن طريق العنعنة، وهذا يعني أنهما خضعا لعملية مركبة من حالة الخطاب الحر المرسل إلى حالة الخطاب المنصص المفقه المكتوب مما يفضي بنا إلى مواجهة السؤال التالي: كيف لنا في تلك الحالة الأولى من الخطاب المرسل غير المكتوب أن نتبين ما حدث على صعيد عملية التناسخ والتوالد التي اخترقت النسقين المعنيين . . . هذا أولا، وأما ثانيا. وفي حقل انتقال هذا القول الأخير إلى نص مفقه مكتوب. فإن السؤال الآخر التالي يبرز ملحاحا بأهمية خاصة: **ما الذي افتُقد وما الذي اكتسب في سياق تحول ذلك الخطاب الملفوظ إلى هذا الخطاب المكتوب؟؟** وثالثا وأخيرا يفصح السؤال عن نفسه: ما النتائج التي قد تواجهنا في تناول ما قد يعترضنا من التضاريس والإحداثيات والتدقيقات والإضافات والتصحيفات والاختراقات الإيديولوجية والتنسيقات والتحقيقات المعرفية التي يعتقد أنها رافقت عملية جمع القرآن وكتابته حتى القرن الحادي عشر الميلادي»[1].

---

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ص٥١ و٥٢.

ويبرر **هشام جعيط** لمَ لمْ يُكتب القرآن الكريم في فترة مبكرة فيقول: «... والقرآن بذاته لم يكن مكتوبا، بل هو أثر شفويٌّ، وأراد لنفسه ذلك وعاب على اليهود أنهم يخطُّون الكتاب بأيديهم، والمفترض أنَّ التوراة ـ الشريعة أثرٌ شفوي، ويقول القرآن: «لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه»، كما يقول في مقام آخر: «سنقرئك فلا تنسى»[١].

ويتردد الأمرُ نفسُه في كتابات حداثية معاصرة تُسْلم إلى النتيجة التي تبرز القرآن الكريم في مصحف الإمام غير مكتمل وليس هو النص الموحى به، المنزل على محمد ﷺ، وذلك ما نجده عند **محمد أركون** عندما يعقد مقارنة ظالمة جائرة بين القرآن والتوراة والإنجيل في كون الجميع نقل شفويا ثمَّ إنها كُتبت بعد دهر، فيقول: «... أعود إلى أهمية التفريق بين مرحلة الخطاب الشفهي ومرحلة الخطاب المدون أو المكتوب، وأقول بأنه يتيح لنا أن نلقي إضاءات جديدة ليس فقط على النص القرآني، وإنما أيضا على كل النصوص الدينية التأسيسية الأخرى كالتوراة والأناجيل، فهي أيضا لم تكتب

(١) في السيرة النبوية ... الوحي والقرآن والنبوة ص٤٥.

إلا بعد مرور فترة على وفاة موسى وعيسى. . . إن الانتقال من مرحلة الخطاب الشفهي إلى مرحلة المدونة النصية الرسمية المغلقة، لم يتم إلا بعد حصول الكثير من عمليات الحذف والانتخاب والتلاعبات اللغوية التي تحصل دائما في مثل هذه الحالات، فليس كل الخطاب الشفهي يدون، وإنما هناك أشياء تُفقد أثناء الطريق»[١].

* * *

(١) قضايا في نقد العقل الديني ص١٨٨ - ١٨٩.

المطلب الثالث:

موقف الحداثيين من جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق

أولى العلمانيون من الحداثيين المعاصرين قصة جمع القرآن الكريم على عهد أبي بكر الصديق عناية فائقة، فأضفوا عليها من تصوراتهم ما قد يجزم من خلاله الواقفُ على كلامهم في ذلك أنهم طاعنون في هذا الجمع المبارك لهذا المصحف الشريف.

وأكثرُ ما كانت مطاعنُ العلمانيين من الحداثيين المعاصرين موجهةً إلى تفاصيل هذا الجمع المبارك وأخباره المتعلقة بحيثياته وما قد احتف بذلك من وقائع، ولقد رأى العلمانيون في هذه التفاصيل المنقولة في هذا الجمع «ثغرات واختراقات كبرى وصغرى، أو إشكالات أو مشاكل[١] وصعوبات اعترضت عملية جمع النص القرآني، كما هو واضح من كلام

---

(١) كما يقول محمد أركون في قضايا في نقد العقل الديني ص١٨٧.

طيب تيزيني: « . . . أما الناتج الثاني فقد تجسد في **الثغرات الكبرى والصغرى** التي ألمت بمتون القرآن والحديث، حين بدئ في فترات مختلفة بجمعها نصا مكتوبا، وقد يتضح هذا الأمر إذا وضعنا في الحسبان جموع القراء والمحدثين والحفظة الذين سقطوا في المعارك الأولى بين المسلمين وخصومهم، وخصوصا في تلك التي دارت ضد المرتدين بعد موت محمد، ومن الأهمية الخاصة بمكان ملاحظة أن عملية جمع القرآن. . . تعرضت بحسب بعض الكتابات الإسلامية، ومنذ بدئها تقريبا **لاختراقات مَتنيَّة لعلها لم تكن عارضة ولا طفيفة**. . . »[(١)].

ومن الثغرات التي يقف عندها طيب تيزيني بزعمه في جمع أبي بكر، ما قد ذكره معلِّقا على قول زيد بن ثابت: «فتتبعتُ القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره» -: «إن زيد بن ثابت هنا يعلن أنه أقرَّ ما وجده عند أبي خزيمة الأنصاري من القرآن، بالرغم من أنه لم

---

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ص١٤٧.

يجد ذلك عند غيره، أي إن زيدا انطلق في هذا الإقرار **بإمكانية منح المصداقية الوثيقية لمحدِّث ما، دون شاهد يشاركه الرأي فيما يقول به**، فإذا كان ذلك ممكنا، فلماذا رفض زيد أخْذ ما كان لدى عمر بن الخطاب، وهو آية الرَّجم، تلك الآية التي كانت بحوزته هو وحده؟؟!!»[١].

إنَّ الغاية من وراء التشكيك في جمع أبي بكر الصديق هو الوصول إلى قناعة يُستفاد منها، أن مجموعات من النصوص القرآنية قد سقطت أثناء الجمع، أو تُنوسي أمرها وأهمل حالها فلم تكن ضمن الجمع الأول والثاني، وهذا ما صرَّحت به عباراتُ هؤلاء العلمانيين من الحداثيين المعاصرين، كالدكتور **نصر حامد أبو زيد** الذي يحاول ربط مسألة النسخ بقضية جمع القرآن الكريم من قِبل أبي بكر الصديق قادحا في قيمة هذا الجمع - قائلا: «. . . والإشكالية الثانية، هي إشكالية جمع القرآن في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، والذي يربط بين

---

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ص٤٠٦ ولقد أحسن د/ الفاضل أحمد محمد في كتابه: الإتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد ص ٤١٣ و٤١٤ في ردِّ هذا الرأي.

النسخ ومشكلة الجمع ما يورده علماء القرآن من أمثلة قد توهم بأن بعض أجزاء النص قد نسيت من الذاكرة الإنسانية»[١].

* * *

(١) مفهوم النص ص١١٧.

المطلب الرابع:

موقف الحداثيين من جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان

كان تصور العلمانيين للعمل الرائع المبارك الذي قام به عثمان بن عفان تجاه القرآن الكريم، تصورا طافحا بالشبهات والأراجيف، التي تُذهب الثقةَ من المصحف الإمام الذي جمع اللهُ به الأمةَ على قرآن واحد اشتمل على عدة قراءات، حتى عُدَّ هذا الجمع المبارك من قِبلهم «عملا خطيرا»[(١)] لأنه كما يقول علماني معروف «ضيع الإنسان المسلم... لأنه جعل منه إنسان النص، إنسان النقل لا العقل، إنسان الحرف لا الروح»[(٢)].

ويمكن تتبع شبهات هؤلاء العلمانيين على هذا النحو:

أولا: التباكي على ما قد حصل للمجموعات الفردية من

---

(١) هذا رأي المستشار محمد سعيد العشماوي في كتابه حصاد العقل في اتجاهات المصير الإنساني ص٨٩ - ٩٠.

(٢) المصدر السابق.

النسخ الشخصية للقرآن الكريم: يقول **محمد أركون** مبديا سخطه على صنيع عثمان في جمعه الأمة على قرآن واحد، ونبذه لبقية المصاحف الشخصية -: «لقد نجم عن جمع عثمان عددا - كذا- من القراءات المؤسفة -كذا-: القضاء على المجموعات الفردية السابقة، وعلى المواد التي كانت بعض الآيات قد سجلت عليها، التعسف في حصر القراءات في خمس، حذف مجموعة ابن مسعود المهمة جدا، وهو صحابي جليل. . . »[١].

ثانيا: تأويل تصرفات عثمان في جمع المسلمين على مصحف إمام على نحو شاذ غريب: فمن ذلك تفسير صنيع عثمان في تحريقه المصاحف بأنه أراد من خلاله الحفاظ على الوحدة والهيمنة الدينية، وممن يرى ذلك ويتبناه **طيب تيزيني** الذي يقول: «. . .ومن الملاحظ أن تلك الظروف التي أحاطت بعملية جمع القرآن في مصحف واحد، وتحريق ما تبقى من المصاحف، كانت تشير إلى أن عثمان ربما كان يهدف من وراء ذلك تحقيق أمرين اثنين: الأول: تمثلَ في الحفاظ على الوحدة الدينية الأيديولوجية للمسلمين في الدولة

---

(١) الفكر العربي ٣٠ و٣١.

الفتية المتعاظمة، حتى لو تم ذلك على أساس نصٍّ قام على أنقاض نصوص انتهى بها الأمر إلى الطبخ. . . أما الثاني فقد تجسد في الطموح إلى الهيمنة الدينية الأيديولوجية السلطوية للطبقة الاجتماعية الجديدة الناهضة، التي استقت قياداتها من بني أمية المناهضة قبليا لبني هاشم»[١].

ويُفصح طيب تيزيني عن هذا التأويل بوضوح عندما يقول: «. . . عملية جمع القرآن نفسها خضعت للمصالح المختلفة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. . . فالسلطة السياسية والدينية الأيديولوجية بعثمان على رأسها، عملت جهارا دون غمغمة على صوغ شرعيتها النصية، إضافة إلى مشروعيتها الاجتماعية من خلال **الاستحواذ الصريح على النص الديني الأم كاملا في يدها**. . . وإذا انطلقنا الآن من تلك الوضعية التاريخية باتجاه مسألة التكليف بجمع القرآن من قبل عثمان، فإن المشاكل المترتبة على **إنقاص القرآن وزيادته تغدو قابلة للفهم**، على الأقل في بعض أوجهها. .»[٢].

---

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ص٤٠٢.

(٢) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ص٣٨٧-٣٨٨ و٤٠١-٤٠٢.

ويتردد الأمر ذاته عند د/ نصر أبو زيد عندما يقول: «. . .ولا نغالي إذا قلنا إن تثبيت قراءة النص الذي نزل متعددا في قراءة قريش كان جزءا من **التوجه الأيديولوجي للإسلام لتحقيق السيادة القرشية**»[1].

ثالثا: الجزم بأن مصحف الإمام لا يحتوي على كل المنزل على محمد ﷺ: يرى أغلب العلمانيين من المعاصرين أن المصحف الإمام ليس هو القرآن الموحى به إلى محمد بن عبد اللَّه ﷺ، «فمن الجائز أن تحدث أخطاء حين جمعه، زمن عثمان أو قبل ذلك، فالذين تولوا هذه المهمة لم يكونوا معصومين» كما يقول **الجابري**[2]، وتخيَّل طيب تيزيني صورةً ظنَّها حقيقية لما كان يجري أثناء مباشرة اللجنة العِلمية لعملية الجمع زمن عثمان رضي الله عنه، فأوجز القولَ فيها على هذا النحو: «هناك اتجاه صريحٌ لجأ إليه فريقٌ أو آخر لتعديل هذه الآية أو تلك، أو لإبعاد واحدة دون أخرى، أو إضافة واحدة من قبل البعض

---

(١) الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية ص٦٢.

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم ص٢٣٢.

أهملها بعضٌ آخر، أو لزيادة سورة أو أكثر، أو لإنقاص سورة أو أكثر. . . !!!»[١].

ويزعم **طيب تيزيني** أن هناك قراءتين للمتن القرآني تدل إحداهما على **اختراق النص القرآني**، قراءة تقليدية وقراءة حديثة، وينبري لبيان كل واحدة منهما قائلا: «. . . القراءة الأولى ترفض كل ما من شأنه المس بفكرة تمامية المتن القرآني حفاظا على الوحدة الإسلامية. . . في حين تلحُّ القراءة الثانية على فكرة أن **المتن المذكور تعرض عفوا أو بنية سيئة لتغيير معين**، إما بسبب نزاعات سلطوية أخضعت القرآن وظيفيا لاحتياجاتها، مثال عثمان وابن مسعود، وإما لأن الكلام القرآني ليس كلام اللَّه، مثال المعتزلة والأشاعرة»[٢].

رابعا: ادعاء وجود أخطاء نحوية وإملائية في المصحف الذي أجمعت عليه الأمة: تعلق العلمانيون من المعاصرين الحداثيين بكل ما شأنه أن يقدح في المصحف الإمام، من جهة اللغة والرسم، فتشبثوا بجملة من المواضع التي قد يشكل

---

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ص ٣٨٨.

(٢) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ص٤١٢.

حالها، وتُرى بادي الرأي من السَّقط النحوي، أو الغلط الإملائي، فأجلبوا بذلك وأرجفوا، وقاموا فيه وقعدوا، فمن ذلك ما ذكره **الصادق النيهوم** في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾[(١)]، من أن الآية: «نص يسخره الفقه لمنح الرجل حق استعمال القوة ضد زوجة لا تطيق الحياة معه...»، ثم قال: «فكلمة اضربوهن إذا كتبت من غير نقاط، وبالخط المستمد من شكل الأبجدية الآرامية التي يتشابه فيها حرف الضاد مع العين، وحرف الراء مع الزاي، بحيث تبدو مثل كلمة اعزبوهن التي تلائم سياق النص على المقاس، والعزبُ في اللغة هو هجران البيت والمرعى، ومنه عزب الرجل عن أهله، أي غاب...» ثم يخلص النيهوم إلى أن «النص القرآني لا يوصي بضرب المرأة كما توحي القراءة المغلوطة، بل يتقدم بثلاثة حلول لمشكلة النشوز... إسداء النصح للمرأة... هجرانها في الفراش... الانفصال عنها من دون طلاق..»[(٢)].

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤.

(٢) إسلام ضد الإسلام ص٢٠٩ - ٢١٠.

المطلب الخامس:
آراء الحداثيين بخصوص ترتيب السور في المصحف الشريف

وإنما أفردنا هذه المسألة هنا بالذِّكر وإن كانت بادي الرأي تبدو غير داخلة في هذا المبحث، لسببين اثنين:

الأول: من لوازم الجمع ونتائجه وثمراته، ترتيب السور في المصحف، ووضع سورة إلى جنب سورة أخرى.

الثاني: هناك آراء هامة في ترتيب السور في المصحف من قبل العلمانيين من الحداثيين المعاصرين، يجدر بالباحث أن يقف عندها دراسة وتحليلا.

ومن هذه الآراء، رأيُ د/ **محمد عابد الجابري** الذي اختار إعادة ترتيب سُور القرآن الكريم وفق أسباب النزول ومسار الدعوة المحمدية، ولْندَعِ **الجابريَّ** يُفصح عن هدفه من خلال هذا العمل، قائلا: «إن الهدف عندنا من الترتيب حسب النزول هو التعرف على المسار التكويني للنص القرآني، باعتماد مطابقته مع مسار الدعوة المحمدية»[١].

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم ص٢٤٥.

ويبرر **الجابري** إعادة ترتيب سور القرآن الكريم وفق ترتيب نزولها بقوله: « لقد كان طبيعيا لكل من يريد فهم القرآن أو استنباط أحكام منه تُغطِّي المستجدات، أن يشعر بالحاجة إلى معرفة ما اصطلح عليه بـ: أسباب النزول «الأمر الذي يقتضي ترتيب السور حسب نزولها»[١].

ومع إقرار **الجابري** بصعوبة الإقدام على مثل هذا العمل لأن أسباب النزول وما ورد فيها من أخبار قليل جدا[٢]، إلا أنه شرع فيه ورتَّب المصحف الشريف ترتيبا جديدا[٣].

***

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم ص ٤٢٠.

(٢) فهم القرآن القسم الثالث ص٣٧٠.

(٣) من منتقدي الجابري من هذه الجهة د/ محمد عمارة في رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم... مشروعه البدعة لترتيب كتاب اللَّه مجلة المجتمع الكويتية ١٣/ ٠٨/ ٢٠١١م، وخلُص د/ عمارة إلى أن الجابري تناقض، ونقض على نفسه ماكان بناه، وذلك عندما قرر أن الأخبار في أسباب النزول قليلة جدا، وأن أكثرها آحاد وأنها ظنون وتخمينات، وهو في الوقت ذاته يعتمدها ويؤسِّس عليها مصحفا جديدا؟؟

المبحث الثالث:

تقويم منهج المستشرقين والحداثيين

في تناول مسألة جمع المصحف الشريف

للناظر في دراسات المستشرقين والعلمانيين بخصوص مسألة جمع المصحف الشريف أن يلاحظ أن الطائفتين تصدران عن رؤية ومنهاج متحديْن مع اختلاف قد يكون يسيرا حفاظا على خصوصية كل طائفة.

المطلب الأول:

تقويم منهج المستشرقين

في دراسة جمع المصحف الشريف

ففيما يتعلق بدراسات المستشرقين حول تاريخ المصحف الشريف، نلاحظ ما يلي:

١/ هفوات في منهج الدراسة والتحليل: ذلك أن الاستشراق تشبث **بكل خبر مسعف** في ترسيخ قناعته التي تؤكِّد بشرية القرآن الكريم، **سواء أكان هذا الخبر صحيحا أم**

غير صحيح، بل إن كثيرا من الأخبار الضعيفة والموضوعة كانت موضع عناية من قِبل طبقات المستشرقين القائلين في المصحف الشريف قولا عظيما، ذلك «أن إهمال بعض مصادرنا القديمة هذا الأمر، وعدم تنبه مؤلفيها إلى خطورة إيراد هذه الروايات، والأحاديث الدالة على تناقضات كبيرة بشأن جمع القرآن، وإعراض علماء المسلمين ومفكريهم المعاصرين عن تناول هذا الموضوع ومعالجته بموضوعية تامة، خوفا من حساسيته، كلٌّ هذا قد جعل الباب مفتوحا أمام المستشرقين ليناقشوا ويحللوا ويصرحوا بكل ما يتوافق وفكرهم الإستشراقي، البعيد عن مسلَّمات العقيدة الإسلامية، وفي أهمِّ وأقدس ما يرتبط بنا لكوننا مسلمين»[١].

ومن هفوات المنهج عند الاستشراق **الخلط** بين **مفاهيم** **ومدلولات بعض المصطلحات** المستعملة في مصادرنا الإسلامية، فمثلا «إن عدم وضوح مفهوم جمع القرآن لمؤلفي المصادر القديمة ورواة الحديث أدى بهم إلى الخلط تحت هذا العنوان، ونُسب هذا الدورُ المهمُّ إلى أسماء معينة

(١) القرآن الكريم في دراسات المستشرقين ص١٨٧.

من الصحابة، فظهرت روايات منها من يقول إن الخليفة الأول أبا بكر هو أول من جمع القرآن، ومنها أن الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب هو أول من جمع القرآن، ومنها من يقول إن الخليفة الثالث عثمان بن عفان هو أول من جمع القرآن، ومنها من ينسب الجمع الأول إلى الإمام علي بن أبي طالب، ومنها من يقول بأن سالما مولى حذيفة هو أول من جمع القرآن، وهكذا وفرت هذه الروايات الفرصة لخيال المستشرقين بأن يقول أحدهم بأن الحجاج بن يوسف الثقفي هو أول من جمع القرآن؟ !!»[١].

ومن القصور المنهجي الواضح في كتابات المستشرقين حول القرآن الكريم تأريخا وتفسيرا، انطلاقه من «مسْبقات فكرية ومحاولة الإستدلال عليها بأي شيء كيفما كانت حالته العلمية، المهم أن يخدم الغرض الذي من أجله أثير ذلك الموضوع القرآني»[٢].

---

(١) القرآن الكريم في دراسات المستشرقين ص ١٨٨.

(٢) آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم ص٢٤٨.

كما أن من **مظاهر الخلل المنهجي** في دراسات المستشرقين لتاريخ القرآن الكريم، وحدوث المصحف الشريف، «تحريف دلالات الوقائع التاريخية والانحراف في تعليلها، ويتمُّ لهم ذلك أحيانا بتحكيم مفاهيم البيئة الغربية على الرغم من فسادها في تفسير النصوص والوقائع التاريخية»[١].

ومن **مظاهر القصور المنهجي** فيما كتبه المستشرقون حول تاريخ المصحف الشريف، أنهم «يرمون بأنفسهم في مغامرة طرح فرضيات خطيرة وخاطئة يعتقدون أنهم أول من توصل إليها، دون تكليف أنفسهم عناء التقصي لدى تلك المصادر عن نفس المعضلات التي يثيرونها»[٢].

٢/ فساد المعتقد وسوء القصد: لايخفى أنَّ فساد مُعتقد الدارس لمسائل العلم وقضاياه، يؤثر على نتائج بحثه سلبا وإيجابا، وقبولا وردا، ولما كان المستشرقون فاسدي المعتقد عند مباشرة البحث في القرآن الكريم تاريخا وتفسيرا، ارتكبوا

---

(١) وحي اللّه حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة . . . نقض مزاعم المستشرقين ص٣٧.

(٢) دفاع عن القرآن ضد منتقديه ص٧.

حماقات ووقعوا فيما لا تحمد عقباه من نتائج زعموا أنها علمية وحقيقية، وتمتاز بالنزاهة والموضوعية، «ومردُّ هذا الفساد تعصُّبهم لمللهم ونحلهم، لذلك عميت بصائرُهم عن إدراك دلائل ربانية القرآن، ومن ثمَّ نظروا إلى كتاب اللَّه باعتباره جزءا من تراث الأمة التي ينتسب إليها»[١].

وكانت مقاصد إقبال المستشرقين متحدةً تصُبَّ في منحى واحد واتجاه معروف، وهو إثبات أن هذا المصحف الذي بين أيدي الناس اليوم ليس موحى به من قِبل السماء، وإنما هو نتاج واقع بدوي، وابن بيئة صحراوية في أرض الحجاز، بين شعاب مكة ودروب المدينة.

٣/ الجهل باللسان العربي وعلومه وآدابه: «إذ أنَّ مشاهير المستشرقين لا يحسنون الحديثَ بالعربية، ولا استظهار شيءٍ مكتوبٍ بها رغم أنهم عاشوا بين المتكلمين بهذا اللسان خلال فترة الاستعمار»[٢] و«عدم إتقان اللغة العربية، أدى إلى وضع النصوص في غير مواضعها، وتحميلها ما لا تحتمل، وقد أدى

---

(١) التفسير في كتابات المستشرقين ص١١٣.

(٢) علم التفسير في كتابات المستشرقين ص١١٥.

ذلك إلى فقدان شروط البحث العلمي في كتاباتهم»[١].

٤/ شعور المستشرق بتذبذب منهجه، وقصور تحليله، وضحالة نتائج بحثه: وهذا الشعور غذَّاه إحساس من الإحباط قد يصاب به المستشرق الذي يحدد له هدفا مسبقا من البحث في تاريخ القرآن الكريم، ولا تسعفه المعلومة الدقيقة، ولا التحليل الموفَّق في الوصول إلى ذلك الهدف بنتائج حاسمة قاطعة، ولعل أوضح ما يجلي هذه الحقيقة ما نُقل عن **المستشرق الألماني ثيودور نولدكه** صاحب كتاب **تاريخ القرآن**، من أنه سئل وقد شارف على التسعين - إن كان يشعر بالندم لأنه لم يعكف على دراسة علمٍ يعود بالفائدة العملية على البشر، فأجاب: إذا كان من ندمٍ فلأنني درستُ **علوما لم أظفر منها في النهاية بنتائج حاسمة قاطعة**»[٢].

* * *

(١) المستشرقون والقرآن الكريم ص١٠٧.

(٢) المستشرقون والقرآن ص٧.

المطلب الثاني:
تقويم منهج العلمانيين من الحداثيين
في دراسة جمع المصحف الشريف

لقد اعتقدت هذه الطائفة من الكتاب العلمانيين المعاصرين أنها تحاول قراءة الوحي قراءة جديدة، مغنية بنفسها عن غيرها، مناسبة لروح العصر، محدِثةً ثورةً في المفاهيم والتصورات، مغيرةً دينها بدين جديد مستورد لا يمت إلى دين الجماعة المؤمنة بصلة، ومن أجل الوصول إلى هذه الغايات التي سطرتها هذه الطائفة قذفت في الساحة الإسلامية بجملة من الكتب التي تدور موضوعاتها حول الكتاب والسنة، متجرئة عليهما بالأباطيل، تشكيكا فيهما وقدحا في مقدارهما ونيلا من منزلتهما، بيْد أنه بتأمل أعمال هذه الطائفة حول تاريخ المصحف الشريف تقويما لها عنَّت الملاحظات التالية:

١/ الجرأة على القرآن الكريم والقول فيه بقول منكر عظيم: لما اعتقد كثيرٌ من العلمانيين المعاصرين بأنَّ القرآن الكريم من عمل بشرٍ، جرَّأهم ذلك على معاملته نصا كبقية

النصوص البشرية، التي دُعيت أثرا أدبيا، أو تراثا بشريا، فبادروا إلى انتقاد القرآن الكريم تاريخا ومعانيَ وأحكامًا وتشريعاتٍ، معتقدين أن لهم الحق في ممارسة مهمة صعبة بحسب تعبير **محمد أركون** وهي «القيام بنقد تاريخي لتحديد أنواع الخلط والحذف والإضافة والمغالطات التاريخية التي أحدثتها الروايات القرآنية بالقياس إلى معطيات التاريخ الواقعي المحسوس..»(١).

وبما أن القرآن الكريم لايخرج عن كونه نصا، كما يقول **نصر حامد أبو زيد**، «فلذلك يجب أن يخضع لقواعد النقد الأدبي كغيره من النصوص الأدبية»(٢) لأنه وإن كان مقدسا(٣)، فهو «نص أدبي رفيع، وأثر فني رائع، من هنا تصح مقارنته بالشعر»(٤).

٢/ محاولة نزع الثقة من القرآن الكريم: لما بحث العلمانيون المعاصرون في تاريخ تشكُّل المصحف الشريف

---

(١) الفكر الإسلامي قراءة علمية ص٢٥٠.

(٢) مفهوم النص ص٢٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نقد النص ص٢٠٧.

تدوينا وجمعا، وطرحوا سيلا جارفا من الشبهات بين يدي ذلك، كان من مقاصدهم زعزعة ثقة المسلمين بالكتاب الذي ظل يحكم حياتهم مذْ أن نزل على قلب رسول اللَّه ﷺ، والتشكيك في كون مصدره من عند اللَّه جلَّ وعلا، ولقد ركب العلمانيون في سبيل الوصول إلى هذا الغرض المدخول، والهدف المشبوه، الصعب والذلول، فأرجفوا بكل خبر ساقط وجدوه مرويا في مصدر تالف، ألفه هالكٌ ابن هالك، حتى إن كبراءهم وقع في أخطاء تاريخية ومنهجية، كالجابري وأركون[١].

٣/ حاول بعضُ الحداثيين من المعاصرين أن يستعمل **منهجا عقلانيا في التعامل مع وقائع وأخبار جمع المصحف** الشريف، **كالجابري** الذي بدا في حديثه في الفصل التاسع من «**مدخل إلى القرآن الكريم**» عما عنون به: «**جمع القرآن ومسألة الزيادة فيه والنقصان**» - هادئا متزنا غير معترض على المقرَّر في علوم القرآن بخصوص تاريخ جمع القرآن، بيْد أنه طرح جملة من الأسئلة المتعلقة بما سماه التكوين - يعني تكوين القرآن الكريم. ثم قال: «صحيح أن جميع هذه الأسئلة وما في

---

(١) ألف د/ خالد كبير علال كتابا في ذلك سماه: «الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد أركون ومحمد عابد الجابري» المنشور في الجزائر سنة ٢٠٠٨م.

معناها قد طرحت قديما، إما من طرف المفسرين أو المتكلمين أو الأصوليين والفقهاء .... غيرَ أن الآفاق التي طرحوها فيها وبالتالي الأجوبة التي قدَّموها، كانت محدودة بحدود معهود زمنهم الفكري والاجتماعي والحضاري العام ... وبما أن عناصر كثيرة من ذلك المعهود قد تغيرت، خاصة على المستوى العلمي والفكري والاجتماعي، فإنه لابد أن تفقد بعض الأجوبة التي كانت صادقة في المعهود القديم شيئا قليلا أو كثيرا من مبررات صدقها مع الزمن...»[١].

٤/ سلك بعض الحداثيين من العلمانيين سبيل التدرج في طرح أفكارهم ونظرياتهم الجديدة بخصوص القرآن الكريم تاريخا ومعاني، ذلك أولا لأنَّ أفكارهم صادمة، **وصارخة**، وقد **تُحْدِثُ الرجة**[٢] أو **الزلزال**، وثانيا لأن نفوس بعض المؤمنين غير مستعدة للفهم والإدراك، ولأنه يجب الإبقاء على

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم ص٢١٢.

(٢) هذا التعبير استعمله د/ عبد اللَّه العروي عندما تحدث عن الزيادة التي قد تكون غير مكتشفة إلى اليوم على مصحف عثمان في كتابه: «السنة والإصلاح» ص٨٦ وانظر رؤية نقدية لكتاب السنة والإصلاح للدكتور عبد اللَّه العروي ص١٣٧.

الاتصال بالعرب المسلمين كما يقول **محمد أركون**[(١)].

لكن «ما قيمة البحث العلمي إذا تدخلت فيه الحسابات الشخصية، والمناورات السياسية؟؟»[(٢)].

٥/ الأثر الاستشراقي واضح فيما كتبه العلمانيون من الحداثيين المعاصرين حول تاريخ جمع المصحف الشريف، إذ كانت بحوث ودراسات ومناهج كثير من المستشرقين حاضرةً في دراسات العلمانيين، ولقد صرح بذلك بعضُ أصحاب هذه الدراسات مثل **محمد أركون** الذي ينوِّه بمنهج المستشرقين قائلا: «...فهم يقارعون المسلمات والفرضيات الإسلامية باليقين العلموي scientiste[(٣)]»، ولعل أعمال **هشام جعيط** فيما نحين بسبيله من كلام على تاريخ

(١) من حوار مع محمد أركون أجرته مجلة الوطن العربي العدد ٣٨٥ بتاريخ ٢٩ يونيو ١٩٨٤ ص٥٥.

(٢) الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم .. دراسة نقدية ص٧٦.

(٣) تاريخية الفكر العربي الإسلامي ص٢٥٣ ولقد كتب د/ الحسن العباقي بحثا في الأثر الإستشراقي في أعمال محمد أركون، بعنوان: «الاستشراق في فكر محمد أركون بين الشعور بالمديونية والرغبة في التجاوز» نُشر في مجلة إسلامية المعرفة العدد ٥٥.

المصحف الشريف[١]، وأعمال طيب تيزيني أيضا تكون خير شاهد على الأثر البليغ للاستشراق في توجيه هذه الأعمال، ومدِّها بالأفكار الجريئة، والأسئلة المستفِزة، والآراء الصادمة.

«وبعض هؤلاء - العلمانيين - وإن لم يصرِّح علانية بالتأثر وهو لن يفعل ذلك، فظاهرٌ من آرائه بخصوص القرآن الكريم وتفسيره أنه صادرٌ عن خلفية استشراقية كحال **محمد عابد الجابري** الذي كشف النقدُ **لمدخله إلى القرآن الكريم** بروزَ الأثر الاستشراقي في ثناياه»[٢].

---

(١) انظر الإتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد ص ١٢ و٤٠٨ و٥٤٩.

(٢) نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي ص ٢١ للدكتور محمد زين العابدين رستم بحث مقدَّم إلى المؤتمر الدولي الأول للقراءات المعاصرة للقرآن الكريم المنعقد في جامعة شعيب الدكالي كلية الآداب شعبة الدراسات الإسلامية الجديدة المغرب ٢٠١١م والبحث المذكور منشور على عدة مواقع في الشبكة العنكبوتية، وانظر مواضع كثيرة من كتاب الشبه الإستشراقية في كتاب المدخل إلى القرآن الكريم رؤية نقدية لعبد السلام البكاري والصديق بوعلام.

الخاتمة

لم يكنِ الشرقُ الإسلاميُّ في دينه وحضارته ببعيد عن عناية المستشرقين الذين أقبلوا عليه دراسة وتحليلا، وكان أشدَّ ما لَفتَهُم إليه دينُه الذي جمع شتاته، وألَّف قلوُب أهله، وجعلهم يملأون الأرضَ عدلا ونورا بعد مُلئت ظلما وجورا، لقد لاحظ الاستشراق الغربي بمختلف مدارسه أن هذا الشرق الإسلامي ما نهض ولا استفاق، ولا كوَّن دولة وحضارة، إلا بأن اجتمعت كلمته على القرآن الكريم، ونبعت حضارته من هذا النور المبين والسراج المنير، ففوَّق إليه سهامَه، ووجَّه إليه أنظارَه ورماحَه، فكان من ذلك دراساتٌ استشراقيةٌ قرآنية، تُعنى بالقرآن الكريم من جهات مختلفة، وزوايا متعددة، بيْد أنَّ الذي أخذ من ذلك حظا عظيما وقسطا وفيرا، جهة ثُبوت هذا القرآن العظيم، ونُقل هذا الكتاب الكريم، إذْ رأى الاستشراق ـ بدهائه وذكائه ـ أنَّه إذا سقطَ هذا الكتاب المقدَّس عند المسلمين من هذه الجهة، فهو فيما سواها أسقطُ، فركَّز نظره فيها، وأَلف حولها وعنها، دارسا محللا.

- لقد اقتضت دراسةُ مواقف المستشرقين تُجاه جمع المصحف الشريف أنْ يكون مدخل ذلك، عرض تصورهم بخصوص القرآن الكريم، الذي عُدَّ أثرا أدبيا محضا، يمكن إخضاعه لموازين النقد التي تخضع لها الأعمال البشرية، أدبية كانت أم فنية، أو ما اكتتبه محمد ﷺ من كتب الأولين، أو ما اخترعه الفقهاء في القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

- لقد ادعى الاستشراقُ غموضَ قضية تاريخ جمع المصحف الشريف، وضُعفَ الأخبار الواردة في ذلك، وتأخر عناية المسلمين بالجمع والتدوين، ولذلك فقدت من القرآن الكريم فقرات، وسقطت منه آيات، وزيدت فيه أخرى.

- أقبل الاستشراقُ على دراسة المصحفِ الذي جُمع في عهد أبي بكر الصديق، فتكلَّم قادحا في كَفاءة زيد بن ثابت ناهضا بما قد كُلِّف به من تتبع القرآن من العُسب واللِّخاف والصُّحف وغير ذلك، وانتقل بعدُ للكلام على الجمع الثاني المبارك الذي كان في عهد عثمان بن عفان، مشكِّكا في نية عثمان فيه، طاعنا في صنيعه لما أحرق بقية المصاحف، قادحا في قيمة المصحف الإمام من جهة رسمه واستيعابه للمنزل الموحى به.

- تصدى الاستشراق إلى قضية **ترتيب المصحف** الشريف، مبديا رأيه بخصوص إعادة الترتيب وفق نزول آي الذكر الحكيم، معللا ذلك بعدة أدلة صححها النظرُ عنده، لكن زيَّفها اعتراضُ كثير من الباحثين الجادين من أبناء المسلمين اليوم.

لقد نبتتْ في العالم الإسلامي بُعيد فترة الاستعمار طائفةٌ من الكُتّاب المتأثِّرين ببحوث ودراسات المستشرقين الطاعنين في القرآن الكريم، فألفت دراسات زعمت أنها تقرأ الكتاب المبين قراءة جديدة، تشمل تاريخه وطريقة كتابته في العهد الأول وجمعه وصيرورته مصحفا يقع في أيدي الناس، فوجَّه الباحثُ نظرَهُ إلى ما كتبتْ هذه الطائفةُ من خلال ما يلي:

- بيان **نظرة هؤلاء العلمانيين** من الحداثيين للقرآن الكريم، وأنه عند بعضهم مجموعة من النصوص، أو تجربة روحية خاضها محمد بن عبد اللَّه ﷺ، وأنه لابدَّ أن يكون موضع تساؤلات نقدية، لإحداث طفرة حضارية، ونهضة ثقافية؟؟ !! فلذلك وجب إعادة كتابة قصة تشكُّله مصحفًا يُقرأ ويُرجع إليه.

- لقد انتهى البحثُ بالتغريبيين من العلمانيين إلى القول بأن القرآن الكريم **لم يكن مدوَّنا** في عهد النبي الكريم، وأنَّ جمعه

شابتْه شوائبُ أو ثغرات أو اختراقات كثيرة في عهد أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان، في طريقة الجمع وحيثياته، وضياع نُصوص من القرآن أثناء ذلك، لاحتكار عثمان للجمع، وقصْره أمرَه على مجموعة محصورة من الصحابة، ووجود أخطاء نحوية وإملائية في النسخ المختارة من المصحف الإمام، وعدول اللَّجنة التي أُسند إليها الجمعُ عن الترتيب النزولي للقرآن الكريم .

ـ إنَّ النظرة التقويمية لجهود المستشرقين والتغريبيين في مسألة جمع المصحف الشريف، تكشفُ أنَّ الفريقين استقيا المعلومات من معين واحد، وليس ذلك من قبيل التَّوارد أو الصُّدفة، فلقد كشفَ البحثُ الدقيقُ الذي قامت به مجموعةٌ من فُضلاء الباحثين في هذا العصر، أنَّ الاستشراقَ هو الأبُ الشرعيُّ للعلمانية والتغريب في بلاد العُروبة والإسلام، وأنَّ المنهجيْن متقاربان، بل لو قال قائلٌ إنَّ هذا من ذاك لما أبعدَ.

وبعد: فلقد اقتضى النظرُ أن يختتم الباحثُ هذه الدراسةَ بجملة من التوصيات والمقترحات التي تثري الإضافةَ العلمية للموضوع المبحوث فيه، فمن ذلك:

أولا: لقد فرضت الدراسات الاستشراقية بخصوص الدراسات الإسلامية نفسها في ميدان البحث العلمي، بما عقدت من مؤتمرات عالمية، ونشرت من كتب سائرة، وأخرجت من مجلات ودوريات دولية، وأذاعت من موسوعات ودوائر معارف كونية، وجيَّشتْ من قوافل الباحثين المنتشرين في عشرات المراكز الثقافية، من المتصدرين على المنابر العلمية، في الجامعات الأهلية والحكومية، فلاجرمَ إذن من أنْ تُواجهَ هذه الهجمةُ الاستشراقيةُ، بيقظة علمية، ونهضة ثقافية، وذلك بعقد دورات علمية في مراكز البحث من جامعات وأندية، من أجل مدارسة آخر ما يصدره المستشرقون من آراء تخص المصحف الشريف، في المؤتمرات العلمية الحديثة التي مازالت تنعقد بالعشرات في مواضع مختلفة من العالم، ولا علم لأهل الإسلام بما يجري فيها.

ثانيا: لابد من أن يكون **الدرسُ الجامعيُّ المعاصر** في الجامعات العربية والإسلامية، مشتملا على محاور هامة، من بحوث الاستشراق والتغريب بخصوص الدراسات القرآنية،

ولا يكفي أن يعرض ذلك في مباحث باهتة لا تسمن ولا تغني من جوع، تبرز المادة الاستشراقيةُ أو التغريبية على أنها تحمل في طياتها سببَ ضعفها وعدم علميتها، ونعم إنها لكذلك بيْد إنها لمنشرةٌ بين شباب العلم وكباره، تتصدر منابر الإعلام، وتعتلي كراسي المحاضرات والندوات، فكيف تكون الحيلة فيها؟؟ أَبِدرسٍ باهتٍ لا يتغلغل في الأسباب والمسببات، ولا يبحث المسائل في جذورها، ولا يولي عنايةً لتفاصيلها وأجزائها؟؟ !!!

وأُخبرُ عن نفسي ذلك أنني تصديتُ لتدريس مادة **علوم القرآن** لبعض طلبة التخصص، في بعض السنوات الجامعية، وكان المقرر يجري على المعتاد من تدريس هذه المادة على ضوء المصادر القديمة التي أُلفتْ في هذا الشأن، والمراجع الحديثة التي طارت كلَّ مطار، وهي معروفة منتشرة بين أيدي الطلبة والأساتذة على حد سواء، وكانت منهجية التدريسِ تسير وفق المعروف المعتاد من عرض المادة شرحا لها وتفصيلا في عناصرها من غير ما ذكْرٍ لسُموم الاستشراق ولا تعريج على آفات الحداثيين من العلمانيين المعاصرين، ولبثنا

على ذلك سنين عديدة حتى فاجأنا بعضُ الطلبة الذين اطلعوا على الفكر الوافد، والآخَرُ المستلَب، بتدخلاتهم التي تقطُر سُمًّا، وتطفح شُبها وإفكا، فكنا نحاورهم ونناقشهم، فتارة ننالُ منهم وتارة ينالونَ منا لا من ديننا وقرآننا، فحينئذ جرَّدنا أنفسنا لهذا الشأن، وأخذنا نُراجع خُطط التدريس ومقرراته، وشرعنا في تقرير محاور خاصة بالاستشراق والتغريب والحداثة ومواقف هذه التيارات من مباحث علوم القرآن، فحمدنا السُّرى، وكانت النتائج سارة، وصار الطلبة أكثر إقبالا على المادة لأنها تخاطبهم بما يسمعون في منابر أخرى كالإعلام وغيره، وتكشف العُوارَ، وتزيِّف لهم البهرجَ، وتصحِّح لهم ما بأيديهم، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١).

ثالثا: لابد من أن توجَّه أنظارُ طلبة العلم، ممن يبحث له عن موضوع يكون مدارَ بحثه ودراسته لنيل شهادة جامعية، إلى العناية بدراسة آخر ما تخرجه المطابع من أفكار استشراقية، وأطروحات علمانية تغريبية، بخصوص المصحف الشريف،

(١) سورة الرعد الآية رقم ١٧.

لأن مجالَ بحثِ ذلك هو الدراسةُ العلميةُ المتأنيةُ، والجهدُ البحثيُّ الملموسُ، الذي تدعمه غَيرةٌ إسلاميَّة متبصِّرة واعية، وكفاءةٌ علمية عاليةٌ، وصبرٌ ومصابرةٌ، مع التَّوفيق الإلهي والفَتح الرباني، إذ بهما يكون الفلَجُ والتأييدُ، والنُّصرةُ والتَّسديدُ.

وأحمد اللَّه على الهداية إلى التوفيق، فهو المحمود المذكور، وولي هذه النعمة المشكور، وأصلي وأسلِّم على الهادي البشير والنبي المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

مراجع الدراسة

١/ مراجع بالعربية:

آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم دراسة نقدية للدكتور أحمد نصري الطبعة الأولى بلا تاريخ دار الكلام المغرب.

آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد للدكتور عمر بن إبراهيم رضوان دار طيبة الرياض الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

الإتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد د/ الفاضل أحمد محمد مركز الناقد الثقافي دمشق الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية نصر حامد أبو زيد سينا للنشر سنة ١٩٩٢م.

تاريخية الفكر العربي الإسلامي محمد أركون مركز الإنماء القومي بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

حصاد العقل في اتجاهات المصير الإنساني للمستشار محمد سعيد العشماوي مؤسسة الانتشار العربي بيروت الطبعة الثالثة ٢٠٠٤م.

حضارة العرب غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر طبع مصر ١٩٦٩ . ١٩٧٠م.

الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم دراسة نقدية د/ الجيلاني مفتاح دار النهضة دمشق ٢٠٠٦م.

دفاع عن القرآن ضد منتقديه د/ عبد الرحمن بدوي، ترجمة كمال جاد اللَّه، الدار العالمية للكتب والنشر ضمن سلسلة نافذة على الغرب رقم ٢.

رؤية نقدية لكتاب السنة والإصلاح للدكتور عبد اللَّه العروي عبد السلام محمد البكاري والصديق محمد بوعلام الدار العربية للعلوم بيروت ومنشورات الإختلاف الجزائر ودار الأمان الرباط الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.

السنة والإصلاح عبد اللَّه العروي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

الشبه الإستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عابد الجابري رؤية نقدية عبد السلام محمد البكاري والصديق محمد بوعلام الدار العربية للعلوم بيروت ومنشورات الإختلاف الجزائر ودار الأمان الرباط الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

علم التفسير في كتابات المستشرقين للدكتور عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها المجلد ١٥ العدد٢٥ شوال ١٤٢٣هـ.

دائرة المعارف الإسلامية هولندا بريل.

الدراسات القرآنية عند المستشرقين خلال الربع الأول من القرن الخامس عشر للهجرة للدكتور عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس مجلة البحوث والدراسات القرآنية الصادرة عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف العدد السادس السنة الثالثة رجب **١٤٢٩**هـ.

الفكر العربي محمد أركون ترجمة عادل العوا منشورات عويدات بيروت باريس الطبعة الثالثة / **١٩٨٥**م.

الفكر الإسلامي قراءة علمية محمد أركون منشورات مركز الإنماء القومي بيروت لبنان **١٩٨٧**م.

في السيرة النبوية ... الوحي والقرآن والنبوة لهشام جعيط دار الطليعة بيروت الطبعة الثانية ماي **٢٠٠٠**م.

القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية د/ محمد محمد أبو ليلة الطبعة الأولى

دار النشر للجامعات مصر، ٢٠٠٢م.

فهم القرآن القسم الثالث محمد عابد الجابري بيروت **٢٠٠٨**م.

القرآن الكريم في دراسات المستشرقين دراسة في تاريخ القرآن: نزوله وتدوينه وجمعه للدكتور مشتاق بشير الغزالي دار النفائس الأردن الطبعة الأولى **١٤٢٩**هـ.

قضايا في نقد العقل الديني محمد أركون كيف نفهم الإسلام اليوم دار الطليعة بيروت ١٩٩٨م.

مدخل إلى القرآن الكريم لمحمد عابد الجابري مركز دراسات الوحدة العربية بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسهير ترجمة د/ عبد الحليم النجار دار اقرأ الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ.

مفهوم النص نصر حامد أبو زيد المركز الثقافي العربي بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

مواقف المستشرقين من جمع القرآن الكريم ورسمه وترتيبه. عرض ونقد. للدكتور أبو بكر كافي ضمن أعمال **ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية** المنعقدة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف سنة ٢٠٠٦م بالمدينة المنورة، المنشورة في عدة مواقع على الشبكة العالمية للمعلوميات.

المستشرقون والقرآن الكريم للدكتور محمد أمين حسن محمد بني عامر دار الأمل إربد الأردن الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

المستشرقون والقرآن . . دراسة نقدية لمناهج المستشرقين عمر لطفي العالم مركز دراسات العالم الإسلامي مالطا الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

المصاحف لابن أبي داود تحقيق أرثر جفري الملحق الإنجليزي مكتبة المثنى بغداد.

نقد الخطاب الديني نصر حامد أبوزيد سينا للنشر القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

نقد النص علي حرب المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى / ١٩٩٣م.

النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة الطيب تيزيني دار الينابيع دمشق ١٩٩٧م.

وحي اللّه حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة... نقض مزاعم المستشرقين د/ حسن ضياء الدين عتر دار المكتبي دمشق الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٢/ مراجع أجنبية:

Encyclopédie Générale Larousse grand dictionnaire ; 3Òme Tome ; Librairie Larousse ; Paris 1982.

L exégèses du coran ; Claude Gillot ; in Encyclopédie universalis ; Edition de Paris ; 1990.

AL KURAN AT.welch; in Encyclopédie de L islam; Leiden et GP Maisonneuve et Larousse; Paris.

Le Coran que Sais _ je Ed. 2ème ; presses universitaire de France ; Paris1969.

Le Coran; préface J. Grosjean ; Ed. Gallimard 1967.

Introduction au Coran ; GP. Maisonneuve et Larousse ; Paris 1977.

Islam et Chrétienté ; Jargy Simon ; Publications Orientalistes de France ; 1981.

L Islam ; Masse ; H ; Librairie Arman Colin ; Paris 1940.

Islamologie ; Parea ; FM Imprimerie Catholique ; Beyrouth 1963.

نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي[1]

المقدمة

نزل القرآن الكريم على قلب رسول اللَّه ﷺ هدايةً للبشرية، وأخذًا بها إلى سُبل الاستقامة و الرَّشاد، ولما كانت مقاصد إنزال القرآن الكريم تنحو هذا المنحى، وتنزع إلى هذا المعنى، تكفَّل اللَّه عز وجلَّ بحفظه وبيانه، وإبقائه ودوامه، وتفهيمه وتفسيره، فهيأ له سبحانه وتعالى بواعث ذلك وأسبابه، ودواعيه ووسائله، فوصل إلينا بعد انقضاء قرون من نزوله، محفوظا مصانا كما أنزل، وجاءنا مفسَّرا مشروحا كما أراده المنزِل جلَّ وعلا، وكما بيَّنه المنزَل عليه ﷺ، وفهمه أولوا النجابة من أهل الفصاحة والبيان من الصحابة والتابعين، ومَنْ بعدهم من ذوي الأهلية العلمية من أهل التفسير.

(١) بحث مقدم إلى مؤتمر «القراءات المعاصرة للقرآن الكريم» جامعة شعيب الدكالي كلية الآداب شعبة الدراسات الإسلامية الجديدة المغرب ٢٠١١م.

لقد لبث المسلمون طوال تاريخهم العريق- إلا فئة ضالة منهم - يعدُّون طريق نقل القرآن الكريم من أوثق الطرق وأقربها إلى السلامة وأدناها إلى الصحة، حتى نبتَتْ فيهم- في هذا العصر- زُمرةٌ من أهل الحداثة والتغريب من المشتغلين بدراسة الفلسفة وتاريخ الأفكار البشرية، فزعمت أنها عازمةٌ على إعادة تشكيل القرآن الكريم في إخراج جديد، ونُسخة حديثة، وفق مصادر جديدة ووثائق حديثة لم تظهر إلا في الآونة الأخيرة، وتدثرت هذه الفئةُ النابتةُ بدثار «البحث العلمي» و«الموضوعية»، و«التجرد»، «والبحث عن الحقيقة»!!

ولبث المسلمون مذْ أن عرفوا هذا القرآنَ الكريمَ يفهمونه على ضوء أساليب العرب في نحوهم وبلاغتهم وبيانهم، وتهَدِّيهم إلى معاني الألفاظ، مستهدين بالثابت المنقول عن النبي ﷺ، وعن الصحابة الكرام، والتابعين الأعلام، والأئمة المشهود لهم بالتقدم في هذا الشأن الرفيع المقام، حتى نجمَتْ في هذا العصر طائفة من المفكرين العرب المسلمين، سمحتْ لنفسها أن تمارس ما تسميه: «قراءة جديدة»، و«تدبرا معاصرا»، و«تفسيرا حديثا»، و«فتحا لأفق قرآني حداثي جديد»، بدعوى أنها «تجتهد»، و«تفكر» و«تتدبر»، ولا حرج في «الاجتهاد» و«التفكر» و«التدبر»!!

ولقد نتج عن تعاطي هذه النابتة -من الضربيْن السابقيْن- للكلام في علمٍ له رجالُه وقواعدُه، وأصولُه وضوابطُه المبنية على أسس يعرفها المتخصِّصون فيه، ظهور كتابات ودراساتٍ في المشرق والمغرب كثيرة تفنَّن أصحابها في إخراجها، وتريَّث منشئوها في تصريف القولِ فيها دفاعا عن نظرية غريبة جديدة في تاريخ جمع القرآن وتدوينه، أو رأيٍ مخالف طارئ في القراءات التي قرئ بها القرآن الكريم، أو اجتهاد شاذ حادث في فهم مراد اللَّه تعالى من محكم التنزيل، ولقد وجد هؤلاء «المجددون» من القارئين لكتاب اللَّه قراءة معاصرة، ومن القائلين فيه قولا محدَثا جديدا، الدربَ سالكا إلى نشر ما يعتقدون أنه صوابٌ من الرأي، فخرجتْ من ذلك كتبٌ ودراسات روَّجت لها دور نشرٍ معروفة ببث هذا الضرب من التأليف.

ولقد أقْبلتِ النُّخب المثقفة من أبناء المغرب العربي على محاولات معروفة في قراءة النص القرآني قراءة جديدة، ودراسته على أنه ظاهرة تخضع لمناهج البحث العلمي خضوعَ النصوص البشرية لها، فكان من كلٍّ ذلك مشاريع فكرية لفتت نظري للأسباب التي دعت إلى كتابة هذه الدراسة المقدَّمة إلى

هذا المؤتمر- عنها، فمن بين هذه الأسباب:

● **رواجُ هذه المحاولات التي كُتبت من قِبل أبناء المغرب العربي** في تفسير الظاهرة القرآنية وقراءتها قراءة معاصرة بين مشرق العالم العربي ومغربه، وظهور أثرها السيِّء بين أوساط المثقفين من غير المتخصصين الشرعيين الذين بالغوا في التنويه بها، وعدِّها محاولات اجتهادية ذات اعتبار.

● **فرحُ الحداثيين من أبناء العروبة والإسلام بكثير من هذه المحاولات القارئة للقرآن الكريم** قراءة جديدة، لأنها سوف تفتح لهم أبواب التأويل والتحريف على مصراعيه، كما أنها ستمهد لهم سبيلَ القول بأن هذا الكتاب الذي يعتد به المسلمون مصدرا للتشريع والأحكام، لم يسلم طريق نقله من آفة السقط والتزيد والإلحاق!!

● **وصول هذه المحاولات إلى أيدي الناشئة من طلبة العلم، وتردُّد كثير من تفاصيلها في بعض** المحاضرات الجامعية، وتبني بعض الموجِّهين والأساتذة لها، اعتقادا بسلامة المعلومات التي تشتمل عليها، وصحة التحليلات المتوصل إليها.

● **عدم وجود دراسة مفردة للقراءات المغاربية المعاصرة للقرآن الكريم**، وغايةُ الموجود دراسات عامة تتناول ظاهرة القراءة المعاصرة بذكر نماذج من مشرق العالم العربي ومغربه، ولذلك أحببتُ أن أفرد النماذج المغاربية بالدراسة والبحث.

ولما عزم اللَّهُ لي على البحث في هذا الموضوع، طفقتُ أتفكَّر في خُطَّة الدراسة والتحليل، ومنهج تقريب المادَّة العلميَّة للقارئ والمستفيد، فكان الذي صح عندي من ذلك بعد إجالة نظر، وطول رويَّة ما يلي:

● قدَّمتُ للدراسة بـ«**مقدِّمة**» شرحتُ فيها فكرةَ البحث، وذكرتُ الأسبابَ الداعيةَ إليه، والمنهج الذي سرت وفقه في المباحث والمطالب.

● مهدتُّ للدراسة **بمبحث تمهيدي**، شرحتُ فيه بعض المصطلحات الواردة في عنوان البحث.

● ثم تخلَّصتُ بعدُ في **المبحث الأول** إلى رصد البدايات الأولى لظاهرة القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في المغرب العربي، متحدثا عن الأسباب الحاملة على ذلك.

● وفي **المبحث الثاني**: ذكرت رموز وأعلام الظاهرة في دول المغرب العربي.

*ثم خلصت في **مبحث ثالث** إلى ذكر الأسس المرجعية للقراءة المعاصرة للقرآن الكريم في المغرب العربي.

● ثم تدرَّجت إلى **مبحث رابع** في ذكر نتائج القراءة الحداثية للقرآن الكريم في المغرب العربي مع نظرات نقدية لها.

● ثم ختمتُ الدراسة **بخاتمة** اشتملت على ثمرات البحث ونتائجه، وتوصيات واقتراحات تفتح آفاقا جديدة له.

ومن مقتضيات الكتابة في هذا الضرب من البُحوث، سلوكُ سبيل المنهاج الاستقرائي لمختلف نماذج القراءات الجديدة للنص القرآني في المغرب العربي، ثم استنباط معالم الأسس المرجعية لهذه القراءات، مع التعريج على المنهج التحليلي النقدي لهذه المرجعيات في نظرة تقويمية من قِبل الباحث لهذه النماذج.

واللَّه أسأل أن ينفع بهذه الدراسة، وأن يكتب لها الحظوة والقبول، ويفتح بها أبوابا من البحث مغلقة، وأصلي وأسلم على الهادي البشير، والنبي الأمي النذير، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث التمهيدي:

في بيان معنى بعض مصطلحات عنوان البحث

في هذا المبحث التمهيدي سنُلمُّ ببعض مصطلحات عنوان هذه الدراسة التي يكون عليها مدارُها، معرضين عن التعريج على ما بان معناه منها مما هو معروف متداول.

١- في معنى القراءة:

نُسارع إلى القول بأننا ههنا لن نتعرض للمعنى اللغوي لهذا المصطلح، لأنه «لا علاقة له بنفس اللفظ الموجود في المعاجم العربية قديمها وحديثها»[١]، وهو ترجمة عربية لكلمة (Lecture) الفرنسية، وانتقل إلى العالم العربي في سياق عملية المثاقفة.

ولقد اختلفت عبارات الباحثين في ظاهرة قراءة النص القرآني المعاصرة في تعريف معنى القراءة المراد هنا، فقال كلٌّ بحسب فهمه ونظره، ففي حين عرِّفت بأنها: «استخدام

---

(١) د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص٦.

النظريات الحديثة في تأويل القرآن الكريم»[١]، نجد من عرَّفها بأنها: «تعني التفسير أو التأويل»[٢]، ويرى بعض الباحثين في هذه الظاهرة أن من لوازم الأخذ بـ: «القراءة» منهجا لفهم القرآن «المعرفة والإطلاع على المذاهب الحديثة في البحث والدراسة والنقد»[٣].

٢- في معنى المعاصرة:

وأما المعاصِرة، فهذه اللفظة مأخوذة من العصر ولها معنيان، الأول: الدهر[٤]، وهو الزمن المنسوب لشخص أو دولة أو نحو ذلك، ومنه عصر الرسول عليه الصلاة والسلام[٥]، والثاني: الوقت المعلوم الذي تُؤدَّى فيه الصَّلاة المخصوصة، التي يُقال إنها الصلاة الوسطى[٦].

---

(١) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص ٥٦.

(٢) د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص ٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) مختار الصحاح مادة عصر ص٣٤٣.

(٥) محمد رواس قلعجي وحامد قنيبي معجم لغة الفقهاء ص٣١٤.

(٦) ابن منظور لسان العرب مادة عصر ٤/ ٥٧٥.

والمعنى المُناسب لكلمة المُعاصِرة الواردة في عُنوان هذا البحث، هو المعنى الأول، وعلى هذا فيكون المُراد بالقراءة المعاصرة للقرآن الكريم، القراءات الجديدة في العصر الراهن «وسموا هذه القراءات بالمعاصرة تمهيدا لأن يكون في كل عصر قراءة جديدة للقرآن الكريم»[١].

وجرى بعضُ المعاصرين من الباحثين في ظاهرة قراءة النص القرآني قراءة معاصرة على استعمال القراءة الحداثية أثناء التعبير عن هذا الضرب من القراءات[٢]، ولعل ذلك منهم ذهابا إلى كون السالك لمنهج القراءة الجديدة للنص القرآني، لابد أن يكون متمردا على القواعد والأصول التي على ضوئها فهم هذا النصَّ الكريمَ السلفُ الصالحُ، آخذا بمناهج الغرب الحديثة في البحث والدراسة والنقد.

---

(١) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص٥٧.

(٢) من ذلك ما قد عنون به د/ الحسن العباقي كتابه الموسوم بـ: «القرآن الكريم والقراءة الحداثية دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون».

كما أن من الباحثين من قد جرى على التعبير عن هذا اللون من القراءة بـ: القراءة الجديدة»[١]، وأكدت باحثةٌ على أهمية استعمال مصطلح «القراءة العصرانية»، وتحفظها على استعمال مصطلحي القراءة الجديدة أو المعاصرة، قائلة: «لما تحمله الأولى من تحديد دقيق في توجهات أصحابها، في حين أن المصطلحات الأخرى لا تحمل بالضرورة تلازما بين المفهوم والمصطلح، فليس كل قراءة جديدة أو معاصرة يحكم عليها بالعصرنة»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) من ذلك ما قد عنون به د/ عبد المجيد النجار كتابه الموسوم بـ: «القراءة الجديدة للنص الديني» الصادر عن مركز الراية للتنمية الفكرية سنة ٢٠٠٦م.

(٢) د/ رقية طه جابر العلواني قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية في الدراسات القرآنية المعاصرة بحث ألقي في ندوة دراسة التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية المعاصرة بيروت ١١-١٢ شباط ٢٠٠٦م ص٢٠ هامش٤٩.

المبحث الأول:

بدايات ظاهرة القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في المغرب العربي

يصعب تحديد تاريخ معين لبداية ظاهرة القراءة الجديدة للنص القرآني في دول المغرب العربي، بيْد أن الذي نتحققه أن الفضاء المغاربي وخاصَّة في تونس والجزائر والمغرب، قد عرف دخول مصطلح «القراءة» إلى الساحة الأدبية في أواخر السبعينيات من القرن العشرين[١].

وكان من بين الأسباب التي جعلت ظهورَ هذا المنهاج القارئ للنصوص دينية كانت أو غير دينية أولا في مغرب العالم العربي، ثم انتشاره بعدُ في المشرق، وجود روابط ثقافية بين دول شمال إفريقيا وفرنسا التي عرفتْ مناهج النقد فيها أواخر الستينيات موجة تمرد على مناهج الدراسة الأدبية التقليدية،

---

(١) د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص١٢.

وبروز منهج جديد سمي القراءة (Lecture) وظف في قراءة النصوص الأدبية والدينية.[(١)]

ولقد تجلت هذه الروابط الثقافية بين دول المغرب العربي وفرنسا، في ظاهرة الابتعاث الطلابي، إذ ساهمت دراسة كثير من المثقفين المغاربيين في الجامعات الفرنسية كالسوربون وغيرها، في انتقال هذا الوافد الجديد الموظَّف في الفهم المعاصر للنصوص.

❋ ❋ ❋

(١) د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص ٩ و١٠.

المبحث الثاني:

رموز وأعلام ظاهرة القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في المغرب العربي

يغطي فضاءُ المغرب العربي دولا تضم ليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا، ولقد ظهرت في هذه الدول طائفةٌ من الحداثيين العلمانيين الذين اعتقدوا أنه بالإمكان تطويع النصوص الدينية، لمعاني ما يصدرون عنه من قناعات فكرية، وفدت عليهم من الغرب.

ولقد كان القرآن الكريم محطَّ عناية هذه الطائفة التي تضم أدباء ومفكرين، ومشتغلين بالفلسفة وعلم الاجتماع تأويلا وتحريفا، من خلال استعمال ما اصطُلح على تسميته: بـ«القراءة الجديدة للنص القرآني»، وإنما توسلت هذه الطائفة بهذا المنهاج المستورَد الدخيل في فهم القرآن الكريم، لأنها لا تقْدر على البَوْح بتمردها الصأرخ على المرجعية الإسلامية في ثوابتها ومرتكزاتها علانيةً أمام الملإ، لعدم شجاعتها

الأدبية، وخوفها من ذهاب مناصبها وهيبتها عند قارئيها والمغرمين بمتابعة منشوراتها وكتبها.

ولسنا هنا نرومُ تقصي أسماء من تبنى منهج القراءة الحداثة للنص القرآني في دول المغرب العربي على نحوٍ مستوعب، وسنقتصر على الرموز والأعلام دون التلاميذ والأتباع كما دلَّ على ذلك عنوان هذا المبحث، وهؤلاء الرموز والأعلام هم الذين سنختارهم لاحقا نماذج للدراسة والتحليل، على أننا سنختار من كلِّ قطر مغاربي علَما واحدا[(١)].

فمن أعلام هذا التيار الحداثي في المغرب:

● د/ محمد عابد الجابري، الذي ولد في فكيك بشرق المغرب سنة ١٩٣٦م، وحصل على دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة في سنة ١٩٧٦م، ثم على دكتوراه الدولة في الفلسفة عام ١٩٧٠م من كلية الآداب بالرباط، وعمل أستاذا في نفس الكلية لمادة الفلسفة والفكر الإسلامي، توفي سنة ٢٠١٠م، وللجابري كتبٌ كثيرة في الفلسفة والفكر الإسلامي، يهمنا

---

(١) لم نختر من موريتانيا أحدا لأن البحث أسلمنا إلى أنه لا يوجد نموذج مُسعِفٌ على ما نحن بسبيله.

منها هنا كتابه: «فهم القرآن الكريم» في أجزاء صدرت عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت سنة ٢٠٠٨م، وكتابه: «مدخل إلى القرآن الكريم».

ومن أعلام هذا الاتجاه في الجزائر[١]:

● د/ محمد أركون: الذي ولد في مدينة تاوريرت بمنطقة القبائل الأمازيغية بالجزائر سنة ١٩٢٨م، وأكمل دراسته الثانوية في وهران، ثم ابتدأ دراسته الجامعية بكلية الفلسفة في الجزائر العاصمة، ليتمها في السوربون في باريس، وهناك حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٦٨م، وعمل أستاذا في السوربون لمدة طويلة، وتوفي سنة ٢٠١٠م، ومحمد أركون كتبٌ كثيرة في الفلسفة والفكر الإسلامي بالفرنسية تُرجم كثيرٌ منها إلى العربية، يعنينا منها ههنا، كتابه عن: «القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني»،

---

(١) اخترنا محمد أركون ممثلا للجزائر لأنه جزائري أصلا، وإن كان بعض الباحثين اختاره ممثلا لفرنسا، فذلك لأنه أقام هناك مدة طويلة، وانظر: د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص٦٠.

وكتابه: «الفكر الإسلامي نقد واجتهاد» ففيه فصول خاصة بتفسير القرآن الكريم وتدوينه وجمعه، وكتابه عن: «الفكر الإسلامي قراءة علمية» ففيه مباحث خاصة بالقرآن الكريم.

ومن أعلام هذا الاتجاه في تونس:

● د/ عبد المجيد الشرفي: أستاذ الحضارة العربية الإسلامية في كلية الآداب جامعة تونس، متخصص في الدراسات الإسلامية، له كتب سترد الإحالة إليها، اشتملت على محاولات جديدة في قراءة القرآن الكريم قراءة حداثية.

ومن أعلام هذا التيار في ليبيا:

● د/ الصادق النيهوم: ولد سنة **١٩٣٧م** في بنغازي بليبيا ودرَس بالجامعة الليبية بكلية الآداب والتربية في قسم اللغة العربية، وتخرَّج منها، ونال الدكتوراه من جامعة ميونيخ، ودرَّس مادة مقارنة الأديان بجامعة فنلندا، وتوفي سنة **١٩٩٤م** في جنيف، له كتب فيها آراء بخصوص القراءة الجديدة للقرآن الكريم سترد الإحالة عليها فيما يأتي.

ومن الملاحظ على هذه الرموز التي تتبنى منهجا حداثيا في

التعامل مع القرآن الكريم تاريخا وتفسيرا، ما يلي:

- **أغلب هؤلاء الأعلام ليسوا من المتخصصين في الدراسات الشرعية** بالمعنى الدقيق لكلمة التخصص، فهم في العموم متخصصون في الفلسفة والفكر الإسلامي والأدب، وقد جوَّزوا لأنفسهم أن يتكلموا في علمٍ له رجالُه الذين يحذقون قواعده وضوابطه، ويُتقنون أصوله ومبادئه، وإنما تسَوَّر هؤلاء على هذا الباب، بدعوى فتح مجالات الاجتهاد والتجديد، لإخراج الشعب العربي من التخلف إلى التقدم، ومن التبعية المطلقة لسلطة النقل إلى الاحتكام إلى مقولات العقل!!!

- **أغلب هؤلاء من الطبقة التنويرية من ذوي النزعة التمردية على الموروث الثقافي للأمة الإسلامية**، ولذلك تجاسر هؤلاء على ركوب موجة نقد أصول المرجعية الإسلامية، وهدم المعطى الحضاري للأمة، الذي وصل إلينا في شكل اجتهادات دائرة حول القرآن الكريم والسنة النبوية، وبناء نظريات غريبة، وآراء شاذَّة حول هذين الأصلَيْن العظيمَيْن، تنال من منزلتهما عند الأمة، وتزحزح ثقة المسلمين بهما.

- **تتبنى هذه الطائفة من القارئين للقرآن الكريم قراءة معاصرة، العلمانيةَ منهجا للحياة**، وخطةً سالكة للتعامل مع أحكام الإسلام وتشريعاته، فلا جرمَ إذن من أن يكون لها منهجٌ حداثي في قراءة القرآن الكريم، يقوم على أساس التأويل والتحريف، لتمرير قناعاتها الفكرية اللادينية، وتأصيل اجتهاداتها الشاذة إرضاءً للغرب، وتزلفا له.

- تعاطي هؤلاء الكتابةَ عن القرآن الكريم تاريخا وتفسيرا، **إنما جاء مجاراة لموضة التأليف في الإسلاميات من قِبل كثير من المتسورين** على هذا الباب في هذا العصر، وأيضا من أجل ترويج كتبهم ومنشوراتهم، لأنه في الحق ما كانوا يكونون مقروءين لولا كتابَتُهم في موضوعات تتصل بدين وثوابت الأمة.

❊ ❊ ❊

المبحث الثالث:

الأسس المرجعية للقراءة المعاصرة للقرآن الكريم في المغرب العربي

لا يكاد يخرج في الجملة ما طرحه الحداثيون العرب في دول المغرب العربي بخصوص «نزواتهم الفكرية» تجاه القرآن الكريم عن أسس مرجعية واحدة، ومنطلقات تنظيرية متحدة، رغم تباين الأوطان، واختلاف المشارب والنزعات والمناهج، وسنذكر هنا أهم معالم الأسس المرجعية للحداثيين في المغرب العربي في تناولهم للنص القرآني:

١- **التاريخانية**: «مذهب يقرر أن القوانين الاجتماعية تتصف بالنسبة التاريخية، وأن القانون من نتاج العقل الجمعي، وتعمم ذلك على الشرائع الإلهية أيضا»[١]، وإذا أُخذ بهذا الأساس المرجعي منهاجا لتفسير النصوص الدينية،

(١) د/ أحمد محمد الفاضل الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد ص٢٣٧.

كان معنى ذلك أن تكون هذه النصوص رهينة تاريخها إذ «لا يمكن فصل أي نص عن تاريخه»[١].

ولقد كان هذا المنطلق المنهجي الذي أخذ به فلاسفة التنوير الغربي، مرجعا أساسيا في تعامل العلمانيين من القارئين للقرآن الكريم من دول المغرب العربي مع نصوص الكتاب العزيز، ومن بين هؤلاء:

أ- **محمد أركون** الذي عرف في كتاباته المتعددة عن القرآن الكريم بأخذه بهذا المنهاج التاريخاني، ودعوته الملحة للمسلمين إلى وجوب قراءة القرآن المجيد على ضوئه، يقول في ذلك: « ينبغي أن يستيقظ المسلمون، أن يفتحوا عيونهم، أن يقرؤوا القرآن بعيون جديدة، أن يتموضعوا في عصره وبيئته لكي يفهموه على حقيقته، وعندئذ لا يعودون يسقطون عليه أفكار عصرهم وهمومه، أو نظرياته وأيديولوجياته، فالقرآن ليس كتابا في علم الفيزياء أو الكيمياء، ولا في علم الاجتماع والاقتصاد، وهو لا يفرض نظاما اقتصاديا محددا دون غيره،

---

(١) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص٨٨.

ولا نظاما سياسيا معينا ، هذه الأشياء متروكة للبشر لكي يحلوها طبقا لقوانين علم الاقتصاد والاجتماع والسياسة، القرآن هو أولا وقبل كل شيء خطاب ديني يتحدث ببلاغة عالية عن موضوعات أساسية تخص البشر أينما كانوا كالحياة والموت والآخرة والعمل الصالح، والعدل وحب الجار. . . »[١]، ولا يتورع محمد أركون تبعا لهذا المنهاج أن يدعي أن الخطاب القرآني «تعبير رمزي ذو بنية أسطورية تعبر عن وقائع أصيلة ترتبط بالوضع الثقافي للجماعة التي أبدعته»[٢].

ب- **الصادق النيهوم** الذي يرى استحالة تطبيق الشعائر الإسلامية المؤصَّلة في القرآن الكريم، لأن النص القرآني مرهون بتاريخه فيقول: « الثابت أن القرآن لا يتردد في القول بأن ركن الإسلام الأول ليس هو الصلاة والزكاة وأداء الشعائر، كما تزعم نظرية القواعد الخمس[٣]، بل هو مبدأ

---

(١) د/ محمد أركون قضايا في نقد العقل الديني ص ٢٨٥ و٢٨٦.

(٢) Lectures du Coran P. 10

(٣) هي قواعد الإسلام التي بني عليها الواردة في حديث ابن عمر المشهور.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يمكن تطبيقه إلا في مجتمع قائم على سلطة الأغلبية»[١].

٢ - **التأويل**: إذا كان التأويل عند أهل الأصول يعني: «حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه مع احتماله له بدليل يعضده[٢]»، وأنه لابد أن يكون في نطاق النص، ضمن شروط وضوابط[٣]، فإنه غدا مطية كثير من مشاريع القراءة الحداثية للنص القرآني في المغرب العربي، لدفع التشريعات الإسلامية، وليِّ أعناق كثير من محكمات نصوص الأحكام الربانية.

وقبل بيانِ طريقة أخذ دعاة القراءة الجديدة للنص القرآني في المغرب العربي بالتأويل منهجا للقراءة، نشير إلى عظم منزلة التأويل عند هؤلاء الدعاة إذ يرون -ويشاركهم في هذا كل قارئ حداثي من المشرق- أن «تأويل الكتاب المقدس حق لكل شخص، فما يعنيه النص لشخص ما، لا يعني أنه هو بعينه

---

(١) الصادق النيهوم إسلام ضد الإسلام ص ١٥.

(٢) الآمدي الإحكام في أصول الأحكام ٣/ ٧٣.

(٣) إبراهيم محمد طه بويداين التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءة المعاصرين ص١٢٧ وما بعدها.

ما يقصده لشخص آخر، فلكل واحد الحرية في تأويل وفهم النصوص الكتابية طبقا لتراثه الخاص وتجربته الإنسانية»[١].

ولقد نوَّع بعض الباحثين في ظاهرة القراءة الحداثية للقرآن الكريم التأويل إلى أنواع بحسب استقراء بعض المشاريع الفكرية في هذا المجال، فمن ذلك:

● التأويل الزمني: ونسبة الزمن إلى التأويل كانت كذلك «لأن عنصر الزمن يعتبر فيه عاملا حاسما في تحديد معاني النص الديني، وفي صرفها عن مدلولها الظاهري إلى مدلولات أخرى يقتضيها الزمن الذي يعيش فيه المخاطَب بذلك النص»[٢]، وفُسِّر الزمنُ هنا بـ«الحال التي يكون عليها المخاطبون، والأوضاع التي تتشكل عليها حياتهم الروحية والثقافية والاجتماعية والتي تتغير بعامل الزمن»[٣].

---

(١) د/ رقية طه جابر العلواني قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية في الدراسات القرآنية المعاصرة ص٤.

(٢) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص٩٥.

(٣) المصدر السابق.

وكان هذا النوع من التأويل سببا عند العلمانيين من أصحاب القراءة المعاصرة للنص القرآني، في إبطال كثير من أحكام الحدود بدعوى أنها مرتبطة بزمان ومكان منفصليْن عن زماننا، ولعل **عبد المجيد الشرفي** يعبر عن هذا الضرب من التأويل عندما يقول: «لا ينبغي أن يكون تنفيذ عقوبة معينة كما هو الشأن في القصاص والسرقة وغيرهما محسوبا على الخضوع لأوامر إلهية لا صلة لها بالزمان والمكان، بل هي مما اقتضته ضرورات الاجتماع والأخلاق، وهي أمور متغيرة وغير مستقرة، تتأثر بعوامل عديدة منها الثقافي ومنها الاقتصادي والسياسي»[١].

● التأويل المقاصدي: سلك المؤوِّلة الجُدد من أصحاب القراءة الحداثية للقرآن الكريم من أهل المغرب العربي، هذا النوع من التأويل الذي «ينتهي بالنص الديني إلى إهدار الأحكام المتعلقة بضبط الأفعال من حيث إذا تحققت المقاصد بدون ضوابطها وتفاصيلها أصبحت هذه الضوابط لاغية في القراءة التأويلية»[٢].

---

(١) د/ عبد المجيد الشرفي الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص٨٥.

(٢) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص١٠٤.

وتسارع أصحابُ القراءة المعاصرة للقرآن الكريم من دول المغرب العربي، إلى القول في أحكام الشريعة بقولٍ رأوا فيه أن هذه الشرائع إذا حققت مقاصدها، فلا غضاضة من إبطال ما ورد بخصوصها من حدود منصوصة مقيدة بزمنٍ غير زماننا، وبوضعٍ غير وضعنا، فمثلا يحاول **عبد المجيد الشرفي** أن يدفع تطبيق حد السرقة المنصوص عليه في القرآن الكريم بأنه حد مناف للقيم الحديثة، ولهذا تواصل البحث عن **تعليلات مختلفة** لتحاشي إقامته، ويذكر أن الأصوات المنادية بالعدول عنه تعددت، لمنافاته لحقوق الإنسان[1].

وعندما سئل **محمد أركون** عن كيفية التعامل مع قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ (سورة النساء الآية ١١) أجاب بأنه «لا يمكننا أن نستمر في قبول ألا يكون للمرأة قسمة عادلة، فعندما يستحيل تكييف النص مع العالم الحالي، عندما يكون منبثقا عن وضع اجتماعي لا يتناسب في شيء مع عالمنا الحاضر، ينبغي العمل على تغييره»[2].

---

(١) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص١١٠.

(٢) إبراهيم محمد طه بويداين التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءة =

٣ - مناهج العلوم الإنسانية: غدا القرآن الكريم بالنسبة لأصحاب المشاريع الحداثية في قراءة النص الكريم في العصر الراهن مرتعا خصبا لتطبيق نظريات العلوم الإنسانية، «وبتتبع واستقراء مختلف كتابات المعاصرين الداعية إلى فهم كتاب اللَّه في ضوء المناهج الحديثة لتحليل الخطاب، لا نكاد نجد قاسما مشتركا بين مختلف الكتابات سوى تلك الرغبة الجامحة لإسقاط أي نظرية على النص القرآني دون مراعاة مدى توافقها معه أو مجافاتها له، والدارسُ اليومَ يستطيع أن يقرر. . .أنه ما من منهج أو نظرية معرفية ظهرت إلا انعكس صداها في الدرس القرآني»[١].

وكثيرٌ من أصحاب القراءة المعاصرة للقرآن الكريم من المغرب العربي، وظَّفوا بعض هذه المناهج المعرفية الحديثة لفهم آيات الكتاب العزيز، ومن بين هؤلاء **محمد أركون** الذي

= المعاصرين ص٢٠٤.

(١) د/ عبد الرزاق هرماس القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب جامعة قطر حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية العدد التاسع عشر ١٤٢٢هـ ص ٢٣.

حاول الأخذ بعدة مناهج في قراءته للنص القرآني منها البنيوية فاللسانيات ثم السيميائيات، ثم انتقل إلى علم الأناسة والأنثروبولوجيا، ولعله يخلط أحيانا بين هذه المناهج كلها أثناء عملية القراءة[١]، ذلك لأن القراءة الإيمانية حسب أركون لا تخدم القرآن الكريم ولا الفكر الإسلامي، ويجب أن يُخدمَ هذا النوع من الفكر من قبل باحثين مستقلين، عوض خدامه المتحمسين، وهم المستشرقون واللادينيون[٢].

ونقف هنا بالقارئ الكريم على كيفية توظيف **محمد أركون** للسانيات البنيوية، في قراءة القرآن الكريم:

- يعرِّف **أركون** القرآن الكريم تبعا للمنهج المعلن عنه في القراءة بأنه «مجموعة محدودة ومفتوحة من النصوص باللغة العربية، يمكن أن نصل إليها ماثلة في النص المثبت إملائيا بعد القرن الرابع الهجري»[٣]، وهذه النصوص تم شرحها ثم تطبيقها

---

(١) د/ عبد الرزاق هرماس القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب ص٣١.

(٢) أحمد بوعود محمد أركون والمنهج الألسني النقدي في دراسة الظاهرة القرآنية منشور على موقع الحزب الليبرالي الديمقراطي العراقي www.liberaldemocraticpartyofiraq.com

(٣) محمد أركون الفكر العربي ص٣٢.

وفرضها على حياة الناس بطريقة لا تسمح بحرية الفكر، يقول أركون: «كان الوحي قد ترسخ على هيئة نظام معرفي مهيمن تماما... ولقد حدث تاريخيا أن وجد أناس هضموا هذا النظام المعرفي وتمثلوه وفسروه بشكل أرثوذكسي صارم ثم طبقوه بكل جبروت هكذا تجمعت كل الشروط الملائمة لتصفية إلحاح الفهم والتعقل، أو على الأقل لضبط هذا الإلحاح وسجنه ضمن حدود لا يتعدها، لكننا نعرف جيدا ماذا يعني هذا الضبط وتلك الرقابة، لذا نلاحظ أن هناك حاجة مستمرة للنضال من أجل اكتساب استقلالية نسبية للفكر..»[١].

- وينطلق **محمد أركون** بعد هذا في مشروعه القراءتي للقرآن الكريم قائلا: «ينبغي أولا إعادة كتابة قصة تشكل هذا النص بشكل جديد كليا، أي نقد القصة الرسمية للتشكيل التي رسخها التراث المنقول نقدا جذريا، وهذا يتطلب الرجوع إلى كل الوثائق التاريخية التي أتيح لها أن تصلنا سواء كانت ذات أصل شيعي أم خارجي أم سني، هكذا نتجنب كل حذف ثيولوجي لطرف ضد آخر، المهم عندئذ التأكد من صحة

---

(١) محمد أركون تاريخية الفكر الإسلامي ص ٢٩٣.

الوثائق المستخدمة، بعدها نواجه ليس فقط مسألة إعادة قراءة هذه الوثائق، وإنما أيضا محاولة البحث عن وثائق أخرى ممكنة الوجود كوثائق البحر الميت التي اكتشفت مؤخرا. . .هكذا نجد أنفسنا أمام عمل ضخم من البحث وتحقيق النصوص الذي يتبعه فيما بعد- وكما حدث للأناجيل والتوراة - إعادة قراءة سميائية ألسنية للنص القرآني، إن المنهج الألسني رغم غلاطته وثقل أسلوبه، يمكنه أن يحررنا من تلك الحساسية التقليدية التي تسيطر على علاقتنا البسيكولوجية بتلك النصوص»[١].

- ويرى **أركون** أن إعادة قراءة النص القرآني تمر بمراحل ثلاثة: ● **مرحلة الدراسة اللسانية**: وهنا لايحدد أركون منهجا منضبطا لفهم القرآن الكريم وتفسيره في ضوء اللسانيات الحديثة «ويقتصر جل كلامه على المطالبة بطرح المنطق اللغوي في فهم النصوص، وترك علوم اللسان العربي للبحث في بنية الكلام القرآني»[٢]. ● **مرحلة التعرف على البنية**

---

(١) محمد أركون تاريخية الفكر الإسلامي ص٢٩٠-٢٩١.

(٢) د/ عبد الرزاق هرماس القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب ص٣٤.

الأسطورية للقرآن الكريم: يتكلف **أركون** من أجل إضفاء البنية الأسطورية على الخطاب القرآني، فيقرر بأن الأسطورة تعبير رمزي عن حقائق أصلية وكونية وترتبط بالوضع الثقافي للمجتمع الذي يخلقها[١] ● **مرحلة إعادة تقويم التراث التفسيري المتراكم**: يقول **أركون** منوها بالتراث التفسيري الباطني ذامًّا غيره من التفاسير التي نعتها بـ: «التقليدية»[٢]: «. . .وبالفعل فإن الذين حازوا اسم أهل السنة والجماعة قد عملوا على تبني منهج في قراءة القرآن يناسب فرض نظرية الأمر الواقع فالطاعة تجب للخليفة وذلك بإضفاء المشروعية على حكمه. . .وهكذا فقد جرى رفض إمكانية وجود معنى باطن للقرآن من قبل هؤلاء، غير أن هذا المعنى هو الذي سيحظى بالأهمية عند الشيعة بفضل تقنية في التأويل تخترق ظواهر الكلم لبلوغ الباطن، وبحكم ذلك فإن الذين اعتبرتهم الأيديولوجية الرسمية مارقون من الدين، هم الذين كانت لهم القدرة لمعارضة الموقف الذرائعي للسنيين بموقف ديني قادر

---

(١) د/ عبد الرزاق هرماس القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب ص٣٥.

(٢) Arkoun ; Lectures du Coran P. 14-19.

على إبقاء الإلحاح الأول للوحي في قلوب الناس»[١].

٤ - **عقلنة النص القرآني**: يهدف هذا المنهج الأدواتي في القراءة الحديدة للقرآن الكريم إلى رفع عائق الغيبية أي زحزحة الوحي عن مكانته باعتباره مصدرا للمعرفة، ويتم ذلك عن طريق التعامل مع الآيات بكل ما توفره النظريات والفلسفات الحديثة، ويكون ذلك بواسطة نقد علوم القرآن، والتوسل بالمناهج المقررة في علوم الأديان بالغرب، وإعطاء العقل سلطة مطلقة في إخضاع الآيات للنقد[٢].

ولقد تولى د/ **محمد عابد الجابري** في المغرب كِبْر هذا الاتجاه العقلاني في قراءة النص القرآني، وذلك منذ أن شرع يدعو في كتبه إلى استعمال «العقلانية» و«الروح النقدية» في التعامل مع التراث العربي[٣].

---

(١) Arkoun ; Lectures du Coran P 18. ولقد نوه أركون بهذه المراحل الثلاثة في مبحث بعنوان معنى القرآن ضمن مقدمته لترجمة كازيميرسكي للقرآن الكريم المنشورة عام ١٩٧٠م. وانظر د/ عبد الرزاق هرماس القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب ص٣٤.

(٢) د/ طه عبد الرحمن روح الحداثة ص١٨٣.

(٣) انظر مثلا محمد عابد الجابري إشكاليات الفكر العربي المعاصر ص٣١ و٣٥.

«ويبرز هذا المنحى العقلاني . . بقراءته النقدية لمختلف الروايات والمصادر التاريخية إضافة إلى تبني منهج علمي موضوعي يقارب النص بعيدا عن ظلال الانتماء العقدي»[١].

يقول **الجابري** منوها بهذا المنهاج الذي سار عليه في قراءة القرآن الكريم: «إن خطابنا هنا لن يكون دعوة، ولا خطابا مضادا لأية دعوة، إنه خطاب ينشُد التعبير عن الحقيقة كما تبدَّت لنا من خلال موقف حيادي موضوعي من الوقائع وتعامل نقدي مع المصادر»[٢].

ويمكن تلخيص معالم قراءة الجابري للقرآن الكريم - مع إبداء بعض النظر النقدي لهذه المعالم- في العناصر الآتية:

١ - مبرر القراءة الجديدة عند الجابري: يبين **الجابري** السبب الحامل له على تعاطي عملية القراءة بقوله: «. . .فهم

(١) فؤاد بوعلي الأسس المنهجية للقراءة الحداثية للنص القرآني محاولة في التفكيك والتأسيس منشور على موقع مجلة التسامح www.altasamoh.net التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في سلطنة عمان العدد ٢٤ خريف ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

(٢) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص٢٦.

القرآن مهمة مطروحة في كل وقت ومطلوبة في كل زمان، وقد يكفي التذكير بأنَّ اقتناعنا بأن القرآن يخاطب أهل كل زمان ومكان، يفرض علينا اكتساب فهم متجدِّد للقرآن بتجدد الأحوال في كل عصر»(١).

٢- **عَدُّ القرآن الكريم ظاهرةً**: جرت أغلب القراءات الحداثية للقرآن الكريم على عدِّه ظاهرة، تعرض على بساط الدرس والبحث والنقد، والجابري لم يكد يشذ عن هذه العادة، فهو يقول متحدثا عن قيمة التعاريف السابقة للقرآن الكريم وضرورة تجاوزها أنه يجب: « استعادة الأسئلة القديمة التي كانت وراء كونها، وطرح أخرى حديثة تتجاوزها، أعني بذلك طرح مسار الكون والتكوين للظاهرة القرآنية نفسها»(٢).

٣- **تعريف الظاهرة القرآنية**: يبادر **الجابري** إلى تعريف القرآن بعد أن أعرض عن تعاريف السابقين له وتجاوزها، فيقول: « القرآن إذا وحي من اللَّه حمله جبريل إلى محمد بلغة العرب وهو من جنس الوحي الذي في كتب الرسل الأولين»(٣)

(١) د/ محمد عابد الجابري مقدمة القسم الأول من فهم القرآن ص٦.
(٢) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٩.
(٣) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٤.

مغفلا من التعريف كون القرآن معجزا متواترا معبدا بلفظه[١]، ويشذ **الجابري** في تفسير ما سماه بـ: «الظاهرة القرآنية» عندما يعُدُّ الوحي «تجربة روحية» «وإنما قد تصدق هذه العبارة على علاقة النبي ﷺ القلبية والوجدانية والروحية، باستقبال الوحي، وأما الوحي، وأما الموحَى به، فشيءٌ آخر»[٢].

٤- تجاوزُ المنقول حول النَّص القرآني من تفاسير وتأويلات سابقة: يقوم مشروع الجابري في قراءة القرآن الكريم على أساس «فصل» المقروء (القرآن) عن القارئ (التراث التفسيري) للتعامل مع «النص» في «أصالته» من غير وسائط، وفي ذلك يقول **الجابري**: «... لقد كنَّا نطمح إلى أن نوضح كيف أن فهم القرآن ليس هو مجرد نظر في نصٍّ مُلثث هوامشه وحواشيه بما لا يحصى من التفسيرات والتأويلات، بل هو أيضا فصْل هذا النص عن تلك الهوامش والحواشي، ليس من أجل الإلقاء بها في سلة المهملات، بل من أجل

(١) عبد السلام البكاري والصديق بوعلام الشُّبه الإستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم رؤية نقدية ص٣٥.

(٢) عبد السلام البكاري والصديق بوعلام الشُّبه الإستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم رؤية نقدية ص٣٥.

ربطها بزمانها ومكانها، كي يتأتى لنا الوصل بيننا نحن في عصرنا، وبين النص نفسه كما هو في أصالته الدائمة»[١].

٥- النظرة التاريخية للقرآن الكريم: يقول الجابري: «القرآن تاريخي، وللتعامل معه لا بد من فكر تاريخي متتبع لتطور الثقافة العربية، وخصوصا الجانب الكلامي والفقهي»[٢]، لقد كان مشروع الجابري في فهم القرآن الكريم «يطمح إلى تأسيس قراءة تاريخية للنص تضع السور في سياق محطات شهدت متغيرات سياسية وثقافية ولغوية وعلائقية بالتضاد أو الائتلاف مع الدعوة»[٣].

والظاهر من تصرفات الجابري في قراءته الجديدة للقرآن الكريم، أنه يعُدُّ التنزيل الحكيم نتيجة تاريخية لما سبقه ومهَّد له من حركات ثقافية ودينية في الجزيرة العربية[٤].

---

(١) د/ محمد عابد الجابري مقدمة القسم الأول من فهم القرآن ص٧.

(٢) د/ محمد عابد الجابري سلسلة مواقف العدد٥٩ ص١١.

(٣) وليد نويهض محمد عابد الجابري مفسرا صحيفة الوسط البحرينية العدد ٢٧٨٩ الأربعاء ٥/ ٥/ ٢٠١٠م ص١٨.

(٤) عبد السلام البكاري والصديق بوعلام الشُّبه الإستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم رؤية نقدية ص٥٣.

ولقد أدى المنهج التاريخي في مشروع الجابري للقرآن الكريم إلى اعتماده جملة من الإجراءات أثناء عملية القراءة منها:

أ- اعتماد ترتيب النزول في فهم النص: والهدف من هذا الإجراء «التعرف على المسار التكويني للنص القرآني باعتماد مطابقته مع مسار الدعوة المحمدية، فإن دور المنطق أو الاجتهاد لابد أن يكون مركزا أساسا على المطابقة بين المسارين: مسار السيرة النبوية والمسار التكويني للقرآن»(١).

ب - اعتماد منهج الشك في المسلَّمات التي أجمع عليها السابقون في علوم القرآن: ظل **الجابري** مؤمنا «بأن سبيل الوصول إلى اليقين هو الشك في كل المعطيات التي وصلت في الذهنية العربية إلى حد اعتبارها من المسلَّمات. لذلك شكك في أمية الرسول وزعم أنه كان عالما بالقراءة والكتابة(٢)، وشكَّك في تمامية النص القرآني، وتعامل معه كنص عادي يمكن فيه السقط والزيادة حيث أعاد الحديث

---

(١) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٤٥.

(٢) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص ٨٠.

القديم حول التحريف[١]... وشكّك في واقعية القصص القرآني[٢]»[٣].

ت - رفض كل ما له بُعد غيبي ذي حمولة إعجازية وتوظيف التأويل في فهمه: أخضع **الجابري** كلَّ ما ورد ثابتا من معجزات لسلطان العقل، فوقف عند كل ذلك مؤوِّلا منسجما مع «عقلانيته» التي ارتضاها منهجا في قراءة القرآن الكريم، فانشقاق القمر لا يخرج عن ككونه خسوفا، وحادث الإسراء والمعراج كان مناما لا يقظة[٤].

***

---

(١) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢١٧.

(٢) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٥٨.

(٣) فؤاد بوعلي الأسس المنهجية للقراءة الحداثية للنص القرآني محاولة في التفكيك والتأسيس منشور على موقع مجلة التسامح العُمانية.

(٤) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص١٨٨ ويقول الجابري هنا بخصوص هاتين المعجزتين: « إنها تراث لنا ومن حقنا، بل من واجبنا أن نختار منها ما لا يتعارض مع الفهم الذي ينسجم مع مبادئ العقل ومعطيات العلم في عصرنا».

المبحث الرابع:

نتائج القراءة الحداثية للقرآن الكريم في المغرب العربي

لقد أسفرتْ موضة القراءة المعاصرة للنص القرآني في المغرب العربي، عن ظهور مفاهيم جديدة للثوابت الإسلامية التي أصَّلتِ القولَ فيها تأصيلا واضحا بينا محكماتُ الكتاب العزيز، وبيِّناتُ نصوصِ الأحاديث النبوية الصحيحة، وناصعاتُ عباراتِ اجتهادات الأئمة الأعلام من سلف وخلف هذه الأمة الإسلامية.

ونسوق هنا جملة من هذه المفاهيم الجديدة، فمن ذلك:

● **ظهور مفهوم جديد للوحي (القرآن الكريم)**: تجاسر التيار الحداثي القارئ للقرآن الكريم في المغرب العربي، على تحديد معنى جديد للوحي منسجما مع نظريته في الفهم الجديد للنص القرآني، ولقد شجع هذا التيارَ الحداثيَ على هذا التجاسر وضعُهُ القرآنَ الكريمَ في حيز «المفكَّر فيه»، بعد أن كان -حسب رأي التيار- في حيز «اللاَّمفكر فيه»، يقول **أركون**

في هذا السياق: «نحن نريد للقرآن المتوسل إليه من كل جهة والمقروء والمشروح من قبل كل الفاعلين الاجتماعيين المسلمين مهما يكن مستواهم الثقافي وكفاءتهم العقائدية، أن **يصبح موضوعا للتساؤلات النقدية، والتحريات الجديدة المتعلقة بمكانته اللغوية والتاريخية والأنتروبولوجية والتيولوجية والفلسفية** نطمح من جراء ذلك إلى إحداث نهضة ثقافية عقلية وحتى إلى ثورة تصاحب الخطابات النضالية العديدة من أجل أن تفسِّر منشأها ووظائفها ودلالاتها، ومن ثَمَّ من أجل السيطرة عليها»(١).

ولقد سعى الاتجاه العلماني في قراءة النص القرآني في المغرب العربي إلى أن يزحزح المفهوم السائد للوحي عند المسلمين اليومَ ويتجاوزه(٢)، ويفسِّره على أنه ظاهرة طبيعية كسقوط المطر، أو هبوب الريح(٣)، كما سعى هذا التيار

---

(١) محمد أركون الفكر الإسلامي قراءة علمية ص ٢٤٦.

(٢) محمد أركون القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ص٢٧-٢٨.

(٣) محمد أركون القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب =

العلماني إلى أن يكون النص القرآني تابعا للواقع(١)، ظني الدلالة متعدد المعنى(٢)، نسبي الثبوت(٣)، فيه أخطاء نحوية ولغوية وإملائية(٤)، ينبغي نزع القداسة عنه وانتقاده(٥).

= الديني ص٩٨ وانظر تعليق المترجم في الهامش.

(١) انظر على سبيل التمثيل كلام محمد أركون في هذا في الفكر الإسلامي قراءة علمية ص٢٠.

(٢) انظر على سبيل التمثيل محمد أركون في تاريخية الفكر العربي الإسلامي ص١٤٣ و عبد المجيد الشرفي في الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص١٥٦.

(٣) انظر على سبيل التمثيل محمد أركون في الفكر الإسلامي واستحالة التأصيل ص٤١ والفكر الإسلامي نقد واجتهاد ص٨٥ وعبد المجيد الشرفي الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص٤٥-٤٩ ومحمد عابد الجابري في مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢١٧.

(٤) انظر على سبيل التمثيل محمد أركون في الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي ص٣٥-٣٦ والصادق النيهوم إسلام ضد الإسلام ص٢٠٩-٢١٠ ولقد تكفل بالرد على مثل هذه الاعتراضات د/ أحمد محمد الفاضل في الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد ص٤٥١ وما بعدها.

(٥) منى محمد بهي الدين الشافعي التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم ص١٠٢-١٠٣.

● ظهور مفهوم جديد للدين (الإسلام): فالإسلام -حسب التيار العلماني في القراءة الحداثية للقرآن الكريم- عبارة عن مقتبسات من شعائر وطقوس الجاهلية وغيرها من أساطير الشعوب القديمة(١)، وهو لا يختلف عن بقية الأديان كالمسيحية، في كونه نتاجا للقوى المحسوسة التي تشكله عقاديا وأيديولوجيا(٢)، وهو يقع ضمن الإطار المعرفي للقرون الوسطى(٣)، وسيصبح الإسلام بفعل العولمة والحداثة شيئا باليا لامعنى له، وسوف يتبخر ويذهب مع الريح(٤)، وسينهار الإسلام المثالي، ويبقى الإسلام التاريخي للذكرى

---

(١) انظر محمد أركون في القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ص١٠٨ وتاريخية الفكر العربي الإسلامي ص٢٣١ وعبد المجيد الشرفي في الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص ٢٦.

(٢) محمد أركون قضايا في تقد العقل الديني ص١٥٧.

(٣) محمد أركون قضايا في تقد العقل الديني ص١٩٤.

(٤) محمد أركون قضايا في تقد العقل الديني ص ٦٠ ود/ أحمد إدريس الطعان مآل الإسلام في القراءات العلمانية بحث منشور على عدة مواقع منها موقع صيد الفوائد www.saaid.net وهو جزء من أطروحة الباحث التي نُشرت بالرياض بدار ابن حزم عام ١٤٢٨هـ الموسومة بـ: «العلمانيون والقرآن الكريم تاريخية النص».

والدراسة فقط كما حصل للمسيحية[1]، ولاينبغي عدُّ قيم الإسلام حقائق مطلقة، ومن الخطأ أن ننتزعها من سياقها التاريخي، لأن الإسلام رسالة موجهة إلى أناس بأعيانهم في القرن السابع الميلادي، ولذلك نجد فيها ظواهر تتناسب مع ثقافة ذلك العصر كالجنة والنار وإبليس والملائكة والطوفان وغير ذلك، وهي بعيدة عن التصورات الحديثة، وليست لها الدلالات ذاتها التي كانت موجودة في ذلك العصر[2].

● التبشير بدين جديد: حرص التيار الجديد في القراءة الحداثية للنص القرآني في دول المغرب العربي- تبعا لخلفيته العلمانية - في أن يبشر بإسلام جديد يقوم على أساس مفهوم جديد لمعنى الإيمان، فالإيمان الحديث «يقبل إعادة النظر حتى في الأصول الأولى من أجل انتهاكها وإعادتها إلى المشروطيات المشتركة للجدلية الاجتماعية»[3]، إن الإيمان بالمعنى الحديث

---

(١) محمد أركون قضايا في تقد العقل الديني ص٦٠ و٣٢٨ و٣١٨ وانظر د/ أحمد إدريس الطعان مآل الإسلام في القراءات العلمانية.

(٢) عبد المجيد الشرفي في الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص٤٥ وانظر د/ أحمد إدريس الطعان مآل الإسلام في القراءات العلمانية.

(٣) محمد أركون القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ص٨٣ و٨٤ وانظر د/ أحمد إدريس الطعان مآل الإسلام =

يقبل حتى فكرة موت اللَّه وغياب اللَّه عن العالم، وذلك ينافي مبادئ الإيمان التقليدي[١]، واللَّه عز وجل في مفهوم الإيمان المبشَّر به من قِبل المؤوِّلة الجُدد ليس هو اللَّه في التصور الإسلامي، بل إنه الأمل بالعدالة والحرية والمساواة[٢].

واليوم الآخر في مفهوم هذا التيار العلماني، ليس هو ما ورد منصوصا عليه في «الأفكار المتلقاة» عند أصحاب الإيمان التقليدي بل إن العالم الآخر أسطورة ولَّدها الكهنةُ ليسطروا على الناس ويحكموهم[٣]، إن البعث عند هذا التيار ليس هو البعث بعد الموت، وإنما هو البعث من عالم الطفولة والتخلف إلى عالم التقدم والوعي[٤].

● التبشير بنموذج جديد للمسلم المتدين: رسم العلمانيون المغاربيون من الحداثيين القارئين للقرآن قراءة جديدة، صورة

= في القراءات العلمانية.

(١) محمد أركون قضايا في نقد العقل الديني ص٢٠٧ وانظر د/ أحمد إدريس الطعان مآل الإسلام في القراءات العلمانية.

(٢) محمد أركون قضايا في نقد العقل الديني ص٢٨٢ وانظر د/ أحمد إدريس الطعان مآل الإسلام في القراءات العلمانية.

(٣) الصادق النيهوم الإسلام في الأسر ص٨٢.

(٤) الصادق النيهوم الإسلام في الأسر ص١٠٦-١٠٧.

للمسلم المعاصر تخالف كثيرا من تفاصيل صورته التي بيِّنت معالمها في الكتاب والسُّنة، فليس من شرط المسلم المعاصر أن يشهد أنَّ محمدا رسول اللَّه لأن الجزء الثاني من الشهادة ليس من الإسلام لأنه أضيف إلى الأذان فيما بعد، إذ كان الإسلام في البداية دعوة إلى لقاء كل الأديان[١]، والصلاة مسألة شخصية[٢]، وليست واجبة[٣]، وتغني عنها رياضة اليوغا وهو ما غفل عنه الفقهاء[٤].

والزكاة ليست بواجبة وإنما هي اختيارية[٥]، ولأنها «تمس الثروات الصغيرة والمتوسطة أكثر مما تمس الثروات الضخمة. . .ولم توضع للحد من الثروات الكبيرة القائمة على الربح المرتفع، فهذه لم تكن معهود العرب زمن النبوة. .ولذلك فالزكاة وحدها لا يمكن أن تنال شيئًا من

(١) الصادق النيهوم محنة ثقافة مزورة صوت الناس أم صوت الفقهاء ص٢٤-٢٥.

(٢) عبد الرزاق هرماس القراءة الجديدة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص١٢٩- و١٦٩ ناقلا عن محمد أركون.

(٣) عبد المجيد الشرفي الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص٦٣.

(٤) الصادق النيهوم الإسلام في الأسر ص١٢٧ و١٣٤.

(٥) عبد المجيد الشرفي الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص ٦٣.

الفوارق الطبقية الكبيرة لأنها وضعت أصلا لمجتمع ليس فيه مثل هذه الفوارق الطبقية الكبيرة»[١]، والصوم كذلك ليس فرضا وإنما هو للتخيير[٢]، والحج كذلك من الطقوس الوثنية التي أقرها الإسلام مراعاة لحال العرب[٣].

«وهكذا تُميَّع كلُّ الشعائر الإسلامية وتعتبر طقوسا وثنية تحدرت إلى القرآن من البيئات والأمم السابقة والجاهلية، وقد مارس الفقهاء دورهم في تقنينها[٤].... وهكذا طُمس الإسلام الرباني الذي أرسل به محمد ﷺ، ويبرز الإسلام العلماني المخترع بأركانه الجديدة العصرية المفتوحة والقابلة لكل الأفهام والتأويلات، والتي لم تتوقف عند هذا الحد، لأنه لا حدود يمكن الوقوف عندها في الخطاب العلماني»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) محمد عابد الجابري وجهة نظر ... نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر ص١٥٠-١٥١.

(٢) عبد المجيد الشرفي الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص٦٣- ٦٤.

(٣) عبد المجيد الشرفي الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص٦٥.

(٤) محمد أركون تاريخية الفكر العربي الإسلامي ص٨١.

(٥) د/ أحمد إدريس الطعان مآل الإسلام في القراءات العلمانية.

الخاتمة

كانت هذه الدراسة عرضا مختصرا لأهم معالم المنهاج الحداثي في قراءة القرآن الكريم في دول المغرب العربي، وفيما يلي تلخيص لأهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسة:

١- لعل **زعماء القراءة** الحداثية للنص القرآني في المغرب العربي من **الرواد الأوائل** لهذا النوع القرائي في العالم العربي، إذ تخطت بحوثهم المغرب، لكي تصل إلى ساحة البحث والثقافة في مشرق العالم العربي، فأثمرت هناك بحوثا ودراسات سارت على دربهم، ونسجت على منوالهم.

٢- كانت **غايةُ القراءة الحداثية** للقرآن الكريم في المغرب العربي «تفريغَ القرآن من مضمونه الاعتقادي والتشريعي والأخلاقي، وتحويله إلى وعاء فارغ مهيأ لكل ما يمكن أن يلصق به من المعاني والأفكار»[1].

---

(١) د/ محمد سعيد رمضان البوطي جنون القراءة المعاصرة من أين =

٣- **كانت بحوثُ ودراساتُ ومناهجُ الاستشراق** حاضرة في قراءات كثيرٍ من النماذج التي ذكرناها آنفا، ولقد صرَّح بذلك بعضُ أصحاب هذه النماذج مثل **محمد أركون** الذي ينوه بمنهج المستشرقين قائلا: «... فهم يقارعون المسلَّمات والفرضيَّات الإسلامية باليقين العلموي scientiste»[١]، وبعضُ هؤلاء وإن لم يصرح علانية بالتأثر- وهو لن يفعل ذلك-، فظاهرٌ من آرائه بخصوص القرآن الكريم وتفسيره أنه صادرٌ عن خلفية استشراقية كحال محمد عابد الجابري الذي كشف النقد لمدخله إلى القرآن الكريم بروز الأثر الاستشراقي في ثناياه[٢].

= وإلى أين؟ محاضرة ألقاها الشيخ الدكتور في المركز الثقافي والاجتماعي في باريس سنة ٢٠٠١م، لمناسبة انعقاد ندوة بعنوان: «القرآن بين التفسيرات العلمية والشطحات الذاتية»، وكان من بين المدعوين لها محمد أركون بيْد أنه اعتذر في آخر لحظة، ومحاضرة الدكتور البوطي توجد على موقعه الشخصي.

(١) محمد أركون تاريخية الفكر العربي الإسلامي ص٢٥٣ وانظر للتوسع د/ الحسن العباقي الاستشراق في فكر محمد أركون بين الشعور بالمديونية والرغبة في التجاوز منشور في مجلة إسلامية المعرفة العدد٥٥.

(٢) انظر مواضع كثيرة من كتاب الشُّبه الإستشراقية في كتاب مدخل =

٤- أخفقتْ مُعظم مشاريع القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في المغرب العربي، في تطبيق النظرية الجديدة في القراءة على نصوص الكتاب العزيز[١]، فأعمال أركون في مجال تطبيق النظرية التي بشَّر بها قليلةٌ جدًّا كـ: «قراءة لسورة الفاتحة»، و«قراءة لسورة الكهف»[٢] وللمناوئين لفكر أركون ومنهجه في التناول لهاذين النموذجين نظرات وانتقادات[٣]، وما قام به محمد عابد الجابري في التفسير الواضح وبحسب القارئين لعمله «أدعى إلى أن لا يكون التفسير واضحا على الإطلاق. . . وهو يخالف أبسط قواعد البنيوية واللسانيات، وإذا كان قد فعل ذلك بقصد الوضوح والإيضاح، فإن هذه الطريقة تزيد

= إلى القرآن الكريم رؤية نقدية لعبد السلام البكاري والصديق بوعلام.

(١) يصف د/ عبد الرزاق هرماس هذه المشاريع بـ: «مشاريع نظرية معلَّقة أو مؤجَّلة» وانظر قضية قراءة النص القرآني ص١٠٧.

(٢) Lectures du Coran P 41-68 69-86.

(٣) انظر ملاحظات د/ الحسن العباقي على قراءة أركون لسورة الفاتحة في القرآن الكريم والقراءة الحداثية ص٢٥٠ وما بعدها، وملاحظات د/ عبد الرزاق هرماس على قراءة أركون لسورة الكهف في قضية قراءة النص القرآني ص١١٠ وما بعدها.

من غموض النص الذي لم يعد نصا، وتحوّله إلى مجموعة ضخمة من المفردات والفقر المتناثرة»[١]، كما أن في «المدخل» للجابري إلى «التفسير الواضح» أخطاءً «تقدح في منطلقات المشروع كما أقر بذلك أحدُ المعجبين بأعمال المفكر الراحل[٢].

٥- مشاريع القراءة الحداثية للقرآن الكريم في المغرب العربي **مجافية للضوابط العلمية**، لأن أغلبها يتبنى «موقفا نقديا أو هدْميًا من التراث التفسيري من مختلف مباحث علوم القرآن ومن علوم اللسان العربي، لكنها في هذا النقد لا تلتزم بضوابط علمية مقررة، بل تؤسس هذا النقد على افتراضات مخطئة يتم الإلحاح والحرص عليها»[٣]، كما أن هناك قصورا منهجيا في تحصيل

---

(١) رضوان السيد محمد عابد الجابري وتفسير القرآن منشور على موقع الملتقى الفكري للإبداع www.almultaka.net

(٢) جهاد فاضل إسلاميات محمد عابد الجابري: مسار التنزيل مساوق لمسيرة الدعوة مجلة القبس الكويتية التي تصدر عن الجهة التي تنشر الجريدةَ المشهورةَ العدد ١٣٣٠٧، ١٥/ ٠٦/ ٢٠١٠م ص٣٢.

(٣) د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص١١٠.

الأدوات اللازمة للخوض في التفسير، وتلك الرزيةُ العامة للتيار العلماني العربي الحديث في تفسير القرآن الكريم[١].

٦- في هذه المشاريع القارئة للقرآن الكريم كثير من **التعالي** على «القراءات المؤمنة»[٢] في نظر محمد أركون، كما أن في هذه المشاريع قدرا غير قليل من الاستخفاف بـ«الأفكار المتلقاة» كما يسميها الجابري.

٦- لم تسلم مشاريع القراءة الحداثية للنص القرآني في المغرب العربي من الوقوع في **أخطاء علمية** نابعة من المنهاج العام لكل مشروع من هذه المشاريع التي اشتملت على كثير من الخطَل الواضح، والتمحُّل المخزي، والغلط البيِّن الذي نبه عليه بعضُ الباحثين المعتنين بفكر محمد أركون ومحمد عابد الجابري[٣].

---

(١) منى محمد بهي الدين الشافعي التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم ص٦٤٤.

(٢) محمد أركون الفكر الإسلامي قراءة علمية ص٣٣.

(٣) من الذين اعتنوا بإبراز أخطاء الرجلين أركون والجابري د/ خالد كبير علال في كتابه: «الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد أركون ومحمد عابد الجابري» المنشور في الجزائر سنة ٢٠٠٨م.

٧- أرادت هذه المشاريع القارئة للقرآن الكريم أن **تركب أخطاء قديمة** وقعت -عن حسن نية من الباحثين القدامى- أثناء تناول الحديث في علوم القرآن، «وتحوّلها مع شذوذها إلى ثوابت تاريخية، وحقائق قطعية، لتوظيفها لخدمة أهداف إيديولوجية معروفة»[١].

وبعد فإذا كان لنا من مقترحات وتوصيات في مُتمِّ هذه الدراسة، فذاك الذي نذكره على هذا النحو:

● لقد استطاع كثير من مشاريع هذه القراءات المغاربية للنص القرآني، أن يصل إلى جمهور عريض من المثقفين في المشرق والمغرب، وذلك بفضل وسائل النشر المعتمدة من قبل أصحاب هذه المشاريع، إذ تنشر لهم دور نشر ذائعة الصيت، واسعة البث، تصل إلى جمهور كثير من المتابعين لكل مايصدر في عالم المطبوعات، فلا جرم إذن من أن يكون ما ينشر من دراسات نقدية لهذه المشاريع في مستوى الكتب المنتقدة جمال منظرٍ، وسعة انتشارٍ، وقوة جاذبيةٍ. . .

(١) د/ عبد المجيد الصغير في تقديمه لكتاب د/ حسن العباقي عن القرآن الكريم والقراءة الحداثية ص١٠.

● لقد أفلحت هذه المشاريع الحداثية في قراءة النص القرآني من تكوين جيل من المثقفين الدائرين في فلك منشئيها، والصادرين عن أطروحاتهم وقناعاتهم، وتبوَّأ هؤلاء التلاميذ والأنصار مناصب هامة في الجامعات والمؤسسات الثقافية[1]، فحاضروا في مشاريع الأساتذة المنظِّرين، ووجهوا البحث العلمي في بعض المؤسسات التعليمية توجيها إيديولوجيا، وذلك باقتراح موضوعات للبحث والدراسة لنيل شهادات علمية مرموقة[2]،

---

(١) كثيرون هم الذين روَّجوا لهذا النوع من القراءة الحداثية للنص القرآني في المغرب العربي، وفهموا الإسلام بمنظار روادها، ومنهم الطاهر الحداد، والصادق بلعيد وهشام جعيط ومحمد الطالبي ومصطفى بوهندي وغيرهم.

(٢) أشرف عبد المجيد الشرفي - تلميذ أركون - ومحمد محجوب بجامعة الزيتونة وجامعة تونس الأولى على أبحاث السلك الثالث، وكانت موضوعاتها كالآتي:

* خصائص التعامل مع التراث الإسلامي عند محمد أركون من خلال كتابه قراءات في القرآن لرمضان بن رمضان ١٩٩١م.

* إشكالية القراءة في الفكر العربي الإسلامي المعاصر إنتاج محمد أركون نموذجا لخالد السعيداني ١٩٩٧م.

* إشكالية قراءة النص القرآني في الفكر العربي المعاصر لإلياس قويسم ٢٠٠٠م.

وتسللت بعضُ نظريات هذه المشاريع إلى ساحة الدرس الجامعي، فوجهت أنظار الناشئة إلى توظيف المناهج الأدبية في إخضاع النص القرآني للنقد والتمحيص، فلا جرم إذن من سلوك سبيل مضاد ينقل المناقشات النقدية حول هذه المشاريع من قبل أهل الرسوخ في علم التفسير من فضاءات مغلقة تحاور نفسها بنفسها، إلى فضاء الجامعات تدريسا وتأليفا لرسائل علمية، وعقدا لندوات ولقاءات. . .

● لابد من تكوين فرق بحث من أهل العلم بالتفسير وغيرهم، لمراجعة كل عمل يصدر عن هذه المشاريع القارئة لكتاب اللَّه قراءة حداثية[1]، ورصد كل ما تقذفه المطابع من بنات أفكار مَنْ يتبنى النظرية الجديدة في القراءة. . .

---

(١) من الأعمال التي يقوم بها فريق بحث من طلبة الدراسات العليا تحت إشراف عبد المجيد الشرفي مشروع المصحف وقراءاته، ويقوم هذا العمل على استقصاء كل المخطوطات القديمة للقرآن الكريم والتي يقال إن فيها بقايا من مصاحف صحابة وغيرهم مما لم يعتمده الخليفة الراشد عثمان بن عفان، وهذا العمل مشبوه تجد صداه يتردد نقدا ومراجعة وتعليقا في كثير من المواقع الإسلامية كموقع ملتقى البيان لتفسير القرآن www.Bayan- alquran.net .

*لابد من المراوحة في الانتقادات الموجَّهة من قبل أهل العلم إلى هذه المشاريع، بين النقد المنهجي القائم على كشف الأسس المرجعية والمنطلقات، وبين النقد التجزيئي القائم على ذكر الجزئيات والتفاصيل، إذ ليس يغني أحدهما عن الآخر[١].

وأسأل اللَّه عز وجل في خاتمة هذه الدراسة، أن ينفع بها، ويجزل بها الأجر، ويغفر بها الذنب، وصلى اللَّه وسلَّم على محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) لا يحبذ الدكتور مساعد الطيار هذا النوع من النقد التفصيلي لهذه المشاريع ويرى أن نقد الأسس والمنطلقات والمناهج أجدى، قال ذلك في برنامج مداد على قناة دليل الفضائية لمناسبة العروض لكتاب المدخل إلى القرآن الكريم للجابري وانظر موقع ملتقى أهل التفسير net . tafsir

المصادر والمراجع

- **أركون محمد** تاريخية الفكر العربي الإسلامي الطبعة الأولى ١٩٨٦م بيروت لبنان منشورات مركز الإنماء القومي.

الفكر الإسلامي نقد واجتهاد الطبعة الثالثة ١٩٩٨م بيروت لبنان دار الساقي.

الفكر الإسلامي قراءة علمية ١٩٨٧م بيروت لبنان منشورات مركز الإنماء القومي.

الفكر العربي الطبعة الثالثة ١٩٨٥م ترجمة عادل العوا بيروت باريس منشورات عويدات.

Lectures du Coran Maisonneuve et larose Paris 1982.

القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني الطبعة الأولى ٢٠٠١م بيروت لبنان دار الطليعة.

قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم الطبعة الأولى ١٩٩٨م بيروت لبنان دار الطليعة.

- **الآمدي علي بن أبي علي** الإحكام في أصول الأحكام ١٩٨٠م بيروت لبنان دار الكتب العلمية.

- **البكاري عبد السلام بوعلام الصديق** الشُّبه الإستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عابد الجابري رؤية نقدية الطبعة الأولى ٢٠٠٩م بيروت لبنان الدار العربية للعلوم والجزائر منشورات الاختلاف و الرباط دار الأمان.

- **بويداين إبراهيم محمد** طه التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين دراسة أصولية فكرية معاصرة رسالة ماجستير غير مطبوعة من جامعة القدس ٢٠٠١م.

- **بوعود أحمد** محمد أركون والمنهج الألسني النقدي في دراسة الظاهرة القرآنية منشور على موقع الحزب الليبرالي الديمقراطي العراقي www.liberaldemocraticpartyofiraq.com

- **بوعلي فؤاد** الأسس المنهجية للقراءة الحداثية للنص القرآني محاولة في التفكيك والتأسيس منشور على موقع مجلة التسامح www.altasamoh.net التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في سلطنة عمان العدد ٢٤ خريف ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

- **البوطي محمد سعيد رمضان** جنون القراءة المعاصرة من أين وإلى أين؟ محاضرة ألقاها الشيخ الدكتور في المركز الثقافي والاجتماعي في باريس سنة ٢٠٠١م، لمناسبة انعقاد ندوة بعنوان: «**القرآن بين التفسيرات العلمية والشطحات الذاتية**»، ومحاضرة الدكتور البوطي توجد على موقعه الشخصي www.fikr.com.

- **الجابري محمد عابد** إشكاليات الفكر العربي المعاصر بلا تاريخ طبع الدار البيضاء المركز الثقافي العربي.

فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول ٢٠٠٩م بيروت لبنان مركز دراسات الوحدة العربية.

سلسلة مواقف العدد ٥٩.

مدخل إلى القرآن الكريم الطبعة الأولى ٢٠٠٦م لبنان بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.

وجهة نظر... نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر الطبعة الثالثة ٢٠٠٤م بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.

- **السيد رضوان** محمد عابد الجابري وتفسير القرآن منشور على موقع الملتقى الفكري للإبداع www.almultaka.net

- **الشافعي منى محمد بهي الدين** التيار العلماني وموقفه من تفسير القرآن الكريم عرض ونقد الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ القاهرة مصر دار اليسر.

- **الشرفي عبد المجيد** الإسلام بين الرسالة والتاريخ ٢٠٠١م بيروت لبنان دار الطليعة.

- **الطعان أحمد إدريس** مآل الإسلام في القراءات العلمانية بحث منشور على عدة مواقع منها موقع صيد الفوائد www.saaid.net

- **طه عبد الرحمن** روح الحداثة الطبعة الأولى ٢٠٠٥م المغرب الدار البيضاء المركز الثقافي العربي.

- **العباقي الحسن** القرآن الكريم والقراءة الحداثية دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون الطبعة الأولى ٢٠٠٩م سوريا دمشق دار صفحات للدراسات والنشر.

- **العلواني رقية طه** قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية في الدراسات القرآنية المعاصرة بحث ألقي في ندوة دراسة التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية المعاصرة بيروت ١١-١٢ شباط ٢٠٠٦م.

- **فاضل جهاد** إسلاميات محمد عابد الجابري: مسار التنزيل مساوق لمسيرة الدعوة مجلة القبس الكويتية التي تصدر عن الجهة التي تنشر الجريدةَ المشهورةَ العدد ١٣٣٠٧، ١٥/٠٦/٢٠١٠م.

- **الفاضل أحمد محمد** الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد ٢٠٠٨م الطبعة الأولى سوريا دمشق مركز الناقد الثقافي.

- **قلعجي محمد رواس وقنبي حامد** معجم لغة الفقهاء الطبعة الأولى ١٩٨٥م بيروت دار النفائس.

- **كالو محمد محمود** القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير الطبعة الأولى ٢٠٠٩م سوريا حلب دار اليمان.

- **ابن منظور** محمد بن مكرم لسان العرب الطبعة الأولى بيروت دار صادر.

- **النيهوم الصادق** إسلام ضد الإسلام ١٩٩٤م لندن قبرص رياض الريس للكتب والنشر.

الإسلام في الأسر ١٩٩١م لندن قبرص رياض الريس للكتب والنشر.

محنة ثقافة مزورة صوت الناس أم صوت الفقهاء؟الطبعة الثانية ١٩٩٦م لندن رياض الريس للكتب والنشر.

- **هرماس عبد الرزاق** قضية قراءة النص القرآني بحث مرقون لم ينشر بعدُ.

القراءات الجديدة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير رسالة دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب الرباط ١٤٠٨هـ غير مطبوعة.

القرآن الكريم. . . .ومناهج تحليل الخطاب جامعة قطر حولية كلية الشريعة العدد١٩/ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

- **وليد نويهض** محمد عابد الجابري مفسرا صحيفة الوسط البحرينية العدد ٢٧٨٩ الأربعاء ٥/ ٥/ ٢٠١٠

الفهم الحداثي للنص الديني
بين دعاوى الاجتهاد المنضبط والتَّجديد المتفِّلت[١]

مقدمة البحث

شهد العصرُ الحديثُ في العالم الغربي ثورةً هائلة في العلوم والمعارف الحديثة التي غيَّرت كثيرا من المفاهيم، وزحزحت كثيرا من القناعات والمرجعيات، ونَسفت كثيرا من النظريات والأطروحات، وأسقطتْ كثيرا من المذاهب والتيارات، وأصبح العلمُ هو المعبودُ، وغدا الإنسانُ هو محور الكون وسيده، وفُهمت الأديان والِمللُ والأفكار والأطر المرجعية، على ضوء أنَّ العلمَ هو الحاكمُ على الكلِّ والمهيْمن على المعرفة الإنسانية، وأنَّ قولَه هو القولُ الفصْلُ، وحكْمه هو الحكْم الجزْل.

---

(١) يجث مقدَّمٌ إلى الملتقى الدولي: «فهم القرآن والسنة على ضوء علوم العصر ومعارفه» جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة الجزائر ١٤٣٣هـ الموافق ٢٠١١م.

ولما حصلَ التلاقي بين العالمين: الغربي والعربي في محطَّات تاريخية معروفةٌ أسبابها ودواعيها، انتشرتْ في العالم العربي هذه الأفكارُ التي عمِل «الاستشراق» و«التغريب» و«الاستعمار» على «توطينها» بدعوى أنها «مثاقفة» أو «استفادة من مُعطًى إنساني مشترك» لا يعرف له دينا ولا وطنا، فحدثتِ الرجفة أو ما يُسمِّيه بعضهم بـ«الصدمة»، وكان من نتائج ذلك وآثاره، ظهور طبقة من المفكِّرين العرب والمسلمين الذين تلقفوا الأفكار الغربية تلقف العاشق الولهان، وتبنَّوها تبني الوامق الصَّديان، فنشأت معارك بين القديم والجديد، وصِدامات بين فكر وافد دخيل يرى أن معارف العصر وعلومه يجب أن تكون منها البدايةُ وإليها يكون المنتهى، وبيْن فكرٍ يُرى أنه منغلق أو محافظ، لا يبغي بدينه فكرا جديدا، ولا بالطرق المنهجية القديمة المؤسَّسة على الكتاب والسنة في فهم واستنباط الحكم بديلا.

ونجمَ الخلافُ بين الطائفتين واستشرى أُوَارُه، وزاد الطِّينَ بلةً تمسُّكُ الفريق الأول بمنهجٍ غريبٍ في فهم النُّصوص وتفسيرها تفسيرا شاذا، يخالف المجمعَ عليه عقلا ونقلا، وتاريخا ولغة وذوقا.

ومدارُ هذه المشاركة في هذا الملتقى المبارك على بيان معالم المنهاج الغريب الدَّعي الذي تمسك به كثيرٌ من الحداثيين من العلمانيين وأدعياء الاجتهاد من العصرانيين في فهم النصوص كتابا وسنةً.

ولقد اقتضى منهجُ العمل تقسيم مباحث الدراسة على هذا النحو:

المبحث التمهيدي في شرح المصطلحات الواردة في عنوان الدراسة.

المبحث الأول: الأسباب الداعية لأخذ الحداثيين من أدعياء الاجتهاد المنضبط، والتجديد المتفلت بمنهاج شاذ لفَهْم النصوص وفيه:

المطلب الأول: المطلب الأول: تفصيل القول في الأسباب المؤدية إلى الفهم الجديد للنصوص الشرعية.

المطلب الثاني: نتائج الأسباب الحاملة على الفهم الحداثي للنُّصوص الشرعيَّة.

المبحث الثاني: مناهج الحداثيين النابعة من معارف العصر وعلومه - في فهم النصوص كتابا وسنة وفيه:

المطلب الأول: فهم القرآن الكريم على ضوء مناهج البحث في علوم العصر.

المبحث الثالث: تقويم مناهج الحداثيين في فهم النص الديني، وبيان آثار تبني الطرح الحداثي في الفهم.

الخاتمة في أهم الخلاصات والتَّوصيات والمقترحات التي تُثري الإضافة العلميَّة للموضوع المبحُوث فيه.

ويتوقع الباحثُ أن يحقق أهدافا علمية من خلال هذه الدراسة، منها:

١/ تقويمُ الدِّراسات الحداثية المعاصرة التي يتأرجحُ حالُها بين ادعاء الاجتهاد المنضبط، ودعوى تجديد الفهم للنص الديني.

٢/ اقتراح منهجية عملية للتصدي لأدعياء الاجتهاد والتجديد المُنفلت في العصر الحديث.

ولعل المنهاج المرضي في مثل هذا الضرب من البحوث هو المنهاج القائم على الاستقراء والدراسة والتحليل، مع ما قد يستوجب ذلك من المقارنة بين الآراء والترجيح بينها والموازنة بين غثِّها وسمينها.

واللَّه أسألُ أنْ يضع لهذه الدراسة الحُظوة والقَبول، وأن ينفع بها وأن يبارك في جهود صاحبها، وأن يجعل عمله خالصا لوجهه تعالى، وصلَّى اللَّه وسلَّم وبارك على الرَّحمة المهداة والنِّعمة المزجاة، سيدنا محمَّد بن عبد اللَّه، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

المبحث التمهيدي

في شرح المصطلحات الواردة في عنوان الدراسة

لا بد من أجل الوقوف على موضوع هذه الدراسة من افتتاحها بمبحث تمهيدي، نجلِّي فيه معاني بعض المصطلحات التي اشتمل عليها عنوانها، حتى يتبين للقارئ الكريم هدفها وغايتها، فمن ذلك:

أولا: المقصود من الفهم الحداثي:

١/ **الحداثة لغةً**: لما كان الفهمُ هنا مضافا إلى الحداثة، ناسبَ أن نعرِّف بها، حتى يتبين معنى الفهم الذي أضيف إليها، فالحداثة لغة من حدث حدوثا وحداثة فهو حديث، ويقال حدُث نقيض قدُم[1].

٢/ **الحداثة اصطلاحا**: إذا نحن لم نعرج على معنى المصطلح في بيئته الأصلية في أوروبا، وأردنا أن نقف على معناها في التداول الثقافي العربي، فـ«إن مفهوم الحداثة في

---

(١) الفيروزبادي القاموس المحيط مادة حدث.

الفكر العربي مفهوم مطاط، وغير مستقر، وليس له صورة واحدة، أو شكل محدَّد فهو مفهوم متحرك وشمولي، يشمل كل التيارات الفكرية والمذاهب الفلسفية بكل فروعها التي وفدت لعالمنا العربي»(١).

ولما كان مفهوم الحداثة ModernitÕ بهذه الدرجة من الغموض، اختلفت آراء الحداثيين العرب في بيان معناها، وإن اتفقوا على كثير من مقتضياتها ومستلزماتها، فعبد المجيد الشرقي يرى أن المفهوم «مستعمل للدلالة على المميزات المشتركة بين البلدان الأكثر تقدما في مجال النمو التكنولوجي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي»(٢)، وأنَّ «أهم ما يميز المجتمعات التي تتسم بالحداثة قدرتها بخلاف المجتمعات التقليدية على الابتكار والتغيير»(٣)، وأن من أهم لوازم الحداثة «العقلانية، إذ لا تتصور الحداثة بدون عقلنة»(٤)،

---

(١) د/ الجيلاني مفتاح الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم ص٢١.

(٢) د/ عبد المجيد الشرقي الإسلام والحداثة ص٢٤.

(٣) د/ عبد المجيد الشرقي الإسلام والحداثة ص٢٥.

(٤) المصدر السابق.

وحنا عبود يرى أن «الحداثة فعل كوني شمولي، وعندما يكون هذا الفعل محليا نطلق عليه اسم التجديد أو جديد»»[١].

وإذا أردنا أن نقرِّب الحداثة في تعريفٍ يجمع أهمَّ ما قد تستعمل فيه، فإننا نقول: «الحداثة مذهب فكري وأدبي يحمل جذوره وأصوله من الغرب، يقوم على أساس التمرد على الموروث الثقافي والحضاري، ومحاولة تجاوزه بعد فهمه وتفسيره».

ومن أهم خصائص الطرح الحداثي «الثورة الهائجة على القديم وخاصة الدين وما يتصل به، حتى ولو كان الدين فيه وثنية وانحراف، وكذلك الجنس والإباحية والانحلال، وأخيرا محاولة تغطية ذلك كله بفكر أو أدب من خلال السعي إلى جديدٍ والبحث عن حديثٍ في تلك الظلمات وذلك التيه»[٢].

ومما يمكن أن يلاحظ على الحداثيين العرب «أنهم تبريرا لدعوى الانقطاع عن تراثهم، يمجدون تراث غيرهم، وتهربا من مواجهة حاضرهم أو ماضيهم ينتقدونه جملة أو تفصيلا

---

(١) حنا عبود الحداثة عبر التاريخ مدخل إلى نظرية ص٥٧.

(٢) د/ عدنان علي رضا النحوي الحداثة من منظور إيماني ص٦٦ و٦٧.

لتبرير اتباع حاضر غيرهم، فالحداثة تعني عندهم انقطاعا عن الماضي إذا كان هذا الماضي هو ماضي الذات العربية نفسها، أما إذا كان ماضي الغرب فهي اتصال واستمرار وثيقين»[١].

وإذا أردنا أن نقف على معنى قولنا في العنوان: الفهم الحداثي، بعد هذا الذي شرحناه من معنى الحداثة، كان المراد دائرا على المقاربات العربية المعاصرة للقرآن الكريم وللسنة النبوية الرامية إلى الثورة على الضوابط المنهجية القديمة في التفسير والشرح.

ثانيا: المقصود بالنص الديني: مرادنا من هذا الإطلاق «النص الإسلامي [و هو] هنا محصور في النصين القرآني والحديثي»[٢].

ثالثا: المقصود من الاجتهاد المنضبط: إذا كان الاجتهاد يعني لغةً استفراغ الوسع وبذل القوة والطاقة لبلوغ غاية ما[٣]،

(١) د/ سعيد شبار النخبة والأيديولوجيا والحداثة ص ٩٨.

(٢) د/ سعيد شبار النص الإسلامي في قراءات الفكر العربي المعاصر ص١٣.

(٣) ابن منظور لسان العرب ٣/ ١٣ مادة جهد.

فإن معناه اصطلاحا «استفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرع على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد عليه»[١].

وإذا كان الاجتهاد بشروطه المعتبرة: العلم باللغة، وبالكتاب والسنة وغير ذلك[٢] عُدَّ منضبطا يعني مقيدا بالضوابط المنهجية التي تعصم من الزلل، وتقي موارد الهلكة والخطأ، وإذا كان غير ذلك سمي اجتهادا منفلتا أو متسيبا.

رابعا: **المقصود من التجديد المتفلت**: ما يقوم به الاتجاه العقلاني من محاولة لتفسير النصوص الشرعية وفق مقتضيات الفلسفة البشرية، وليّ أعناق النصوص ليًّا لتتفق معها، والتجديد المتفلت من الدين هو الذي يسعى دعاته إلى تغيير حقائقه الثابتة القطعية لتلائم أوضاع الناس وأهواءهم.

❊ ❊ ❊

---

(١) الشوكاني نقلا عن الآمدي إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص٢٥٠.

(٢) انظر هذه الشروط مفصلة عند الشوكاني إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص٢٥٠-٢٥٢.

المبحث الأول:
الأسباب الداعية لأخذ الحداثيين من أدعياء الاجتهاد المنضبط والتجديد المتفلت بمنهاج شاذ لفَهْم النصوص

هذا المبحث كالتوطئة لما بعده فهو معقودٌ لبيان الأسباب التي من أجلها أخذ الحداثيون المعاصرون من أدعياء التجديد المتفلت، والاجتهاد المنضبط بمنهاج معتمد على معارف العصر وعلومه لفهم النصوص الإسلامية قرآنا وسنة فهما شاذا غريبا، لم يتقدمهم إليه أحدٌ من سلف هذه الأمة.

والمتأمل في هذه الأسباب يجدها لا تكاد تخرج عن ثلاثة أسباب رئيسية:

أولا: أسباب تاريخية: الاستعمار، الاستلاب والتغريب والاستشراق.

ثانيا: أسباب شخصية: الدراسة في الغرب والابتعاث، والتثقيف الذاتي على كتب وثقافة الغرب.

ثالثا: ادعاء الاجتهاد والتصدر للإفتاء والتوجيه التربوي والإداري.

المطلب الأول:

تفصيل القول في الأسباب المؤدية

إلى الفهم الجديد للنصوص الشرعية

أولا : الأسباب التاريخية : الاستعمار والاستلاب والتغريب والاستشراق.

لقد عرفت الأمة العربية والإسلامية في العصر الحديث منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي هجْمةً استعمارية طرقت أبواب العالم الإسلامي بأسره، احتلتْ فيها الدولُ الاستعماريةُ الكبرى أرضَ الإسلام، واستغلَّت خيراته وسخَّرت طاقاته وإمكانياته، وحاولتْ مسخَ هويته ودينه، واستلاب ثقافته وحضارته، ولقد استعان الاستعمار في إنجاح غارته، وإنجاز هجمته، بوسيلتين اثنتين هما :

١/ قوافل المستشرقين والمنِّصرين التي جيَّشها ضمن جيوش زحفه.

٢/ قوافل المستلَبين من أبناء المسلمين.

أولا : لقد انطوى عملُ المستشرقين والمنصِّرين في بلاد الإسلام على حدٍّ سواء «على نزعتين رئيسيتين : **النزعة الأولى** : تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية ، وتمهيد النُّفوس بين سكان هذه البلاد لقَبول النفوذ الأوربي والرضاء بولايته ، **النزعة الثانية** : الروح الصليبية في دراسة الإسلام ، تلك النزعة التي لبست ثوب البحث العلمي ، وخدمة الغاية الإنسانية المشتركة»[(١)] .

ومن معالم **النزعة الأولى** ومظاهرها : إضعافُ القيم الإسلامية ، وتمجيدُ القيم الغربية المسيحية ، فبخصوص المعلم الأول ، استطاع الاستشراقُ أن يقدِّم دينَ هذه الأمة للمسلمين تقديما مشوَّها ، وذلك «عن طريق شرح تعاليم الإسلام ومبادئه شرحا يُضعف في المسلم تمسكه بالإسلام ، ويقوِّي في نفسه الشَّكَّ فيه كدين ، أو على الأقل كمنهجٍ سلوكي يتَّفق وطبيعة الحياة القائمة»[(٢)] .

---

(١) د/ محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٥٢ .

(٢) د/ محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٥٢ و٥٣ .

وسعى الاستشراقُ فيما كتبه عن الإسلام أيضا إلى تمجيد القيم الغربية المسيحية فصوَّر للمسلمين أنَّ سرَّ تقدم الغرب إنما كان لِ«أصالة القيم المسيحية، وقوة صلتها بتحرير الإنسان من الجهل والفقر والمرض، وقوة صلتها كذلك بانطلاق الإنسان في الحياة من غير خوف أو وجل»[١].

وتتجلى **النزعة الثانية** في دراسات المستشرقين عن الإسلام في كتاباتهم المتنوعة التي تطفح بالحقد على دعوته ونبيه ﷺ، إذ يصور الإسلام على أنه من صنع محمد، وأنه دين بشري، وأن الرَّسول لفَّق فيه من المسيحية واليهودية، وأنه حرَّف هاتين الديانتين[٢].

ثانيا : استطاع الاستعمارُ أنْ يستميلَ من أبناء المسلمين من يروِّج لأطروحاته، ويُمالئه على البقاء في ديار الإسلام، وكان هؤلاء المستمالين على ضربين : الضرب الأول : تمثله مذاهب وأفكار هدَّامة ظهرت في أقصى بلاد الإسلام في الهند

(١) د/ محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٦٥.

(٢) د/ محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٦٦ و٦٧.

كالقاديانية والأحمدية[١]، والضرب الثاني: طائفةٌ من الكُتَّاب والمفكِّرين الذين اصطنعهم الاستعمارُ من أجل تحسين صورة الحضارة الغربية، والتنفير من المكْتسبات الحضارية الإسلاميَّة بدعوى الإصلاح تارة، أو التجديد تارة أخرى، أو الاجتهاد تارة ثالثة[٢].

ثانيا: أسباب شخصية: الدراسة في الغرب والابتعاث، والتثقيف الذاتي على كتب وثقافة الغرب.

كان والابتعاث إلى الغرب أحدَ الأسباب التي جعلت كثيرا من أبناء العروبة والإسلام، يطَّلعون على علوم ومعارف الحضارة الغربية التي لم تكن معروفةً في العالم الإسلامي في مطالع القرن العشرين، ولم تقتصر استفادة المثقفين العرب من حركة والابتعاث إلى الخارج على العلوم التجريبية والحقة حسبُ، بل تعدتها إلى الاستفادة من علوم ومعارف تخص

---

(١) د/ محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٣٩ - ٥١.

(٢) د/ محمد محمد حسين الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ٢٥٤.

ميادين العلوم الإنسانية أفكارا ومناهج[١]، مما أثر في طرائق تفكير شريحة واسعة من هؤلاء المبتعثين، وجعل غالبيتهم تعتقد أنَّ «أوروبا هي عامل التحديث الأساسي»[٢].

وكان كثيرٌ من هؤلاء المبتعثين في معاهد وجامعات الغرب مؤطَّرين علميا في رسائلهم وبحوثهم الجامعية لنيل الدكتوراه، من قِبل مستشرقين أو متعصبين من أساتذة الفكر الغربي الذين كانوا لا يفوِّتون فرصة الإشراف على مثل هذه البحوث التي يكون موضوعها وصاحبها منتسبا إلى الثقافة الإسلامية، فيُوعزون إلى أصحابها بضرورة القدح في الثوابت الإسلامية، كما أنهم يوجِّهون فكر أصحابها إلى نقاط سوداء في تاريخنا العريق، فيضخمونها ويحيطونها بهالة من الأهمية والجدية في تاريخ الفكر الإسلامي، ويوجِّهون الطلبةَ إلى ضرورة بحثها وإثارتها ترويجا للباطل الذي فيها، ونشرا للشبهات التي بزعمهم تكتنفها[٣].

---

(١) د/ محمد محمد حسين الإسلام والحضارة الغربية ص١٧ و١٨.

(٢) هشام شرابي المثقفون العرب والغرب ص١٠٠ وألبرت الحوراني الفكر العربي في عصر النهضة ص ٧٥.

(٣) كان من بين المحتَوين فكريا في فرنسا محمد أركون الذي ارتبط =

ومن الكُتاَّب العرب المعاصرين من أهل الفكر والأدب، ممن لم تُتح لهم فرصة الذهاب إلى الغرب للدراسة فيه، طائفةٌ تتلمذت على الكتب الحضارة الغربية التي دخلت إلى العالم العربي حاملة معارف وثقافة العصر الحديث، وكان دافعَ هذه الطائفة من الكُتاَّب تثقيفُ الذات، وإشباعُ النَّهمة إلى العلم، والسَّعي إلى الإطلاع على كل جديد طارئ.

ولم تكن اللغة الأجنبية التي أُلِّفت بها هذه الكتب الجديدة التي تحمل علوم ومعارف العصر الحديث، حائلا دون إقبال هذه الطائفة من الكُتَّاب على تعلُّم ما فيها، لنشاط حركة الترجمة إلى العربية من جهة، ولإقبال هؤلاء الكُتاَّب على تعلم اللغات الأجنبية من جهة أخرى.

= في فرنسا لأول قدومه عليها بالمستشرق Robert le Tourneau ثم احتُضن من قبل لويس غارديه الذي كان يشتغل في مشروع Humanisme musulman d hier et d aujourd'hui حيث انخرط أركون في هذا المشروع فسجل في معهد الدراسات الشرقية بجامعة باريس الرابعة أطروحة الدكتوراه بعنوان: «إسهام لدراسة الإنسية العربية خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي: مسكويه فيلسوفا ومؤرخا» تحت إشراف مدير المعهد آنذاك شارل بيلا. انظر د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص٧٤.

ثالثا: ادعاء الاجتهاد والتَّصدر للإفتاء والتَّوجيه التربوي والإداري.

كانت دعوى الاجتهاد والتَّجديد من الأسباب الحاملة لكثير من مفكري العصر الحديث على سلوك نحوٍ شاذ وغريب لفهم الأصليْن العظيميْن فهما يخالف المعهود من الضوابط المنهجية التي ظلَّ الأصلان يُفهمان بها طيلة قرون متطاولة، إذ فَهم هؤلاء الاجتهاد على أنه «الدعوة إلى التجديد الذي يجيز ما حملته حضارة التغريب من نظم وأفكار وقيم وأخلاق ومناهج، فاتخذ التجديد عند بعض المثقفين مفهوم فصل الدين عن الدولة، أو مفهوم إباحة سفور النساء، أو الإقرار بالربا في معاملات المصارف، أو تسويغ موالاة الكفار، أو حتى التنازل عن سيادة الأمة على أرضها أو بعض أراضيها، بكلمة أخرى كان المطلوب من التجديد أن يسوِّغ الاستسلام الحضاري للغرب بفتاوى إسلامية تُطلق تحت شعار التجديد»[١].

---

(١) منير شفيق أولويات أمام الاجتهاد والتجديد في الاجتهاد والتجديد في الفكر المعاصر ص٥٧ و٥٨.

وصرنا في العصر الحديث في مواجهة أقسام ثلاثة من دعاة التجديد[1]:

- قسم من «الغُلاة في التجديد الذين يريدون أن ينسفوا كلَّ قديم وإن كان هو أساس هوية المجتمع ومبرر وجوده، وسر بقائه... وتجديد هؤلاء هو التغريبُ بعينه» وهذا القسم هو الذي نعنيه هنا.

- وقسم ثانٍ من «الذين يريدون أن يبقى كل قديم على قدمه، حكمتهم المأثورة ما ترك الأول للآخر شيئا... وليس في الإمكان أبدع مما كان، وهم بجمودهم يقفون في وجه أي تجديد في العلم والفكر والأدب والحياة... وفي مجال الدين فئتان ينتهي موقفهما إلى تجميد الإسلام... فئة مقلدي المذاهب المتعصبين لها الذين يرفضون أيَّ خروج عليها، ولا يعترفون بحق الاجتهاد لفرد ولا لجماعة في هذا العصر إلا في إطار ما قررته مذاهبهم وحدها، بل في حدود ما حرره المتأخرون من علماء المذهب وأفتوا به... وفئة أخرى

---

(١) انظر هذه الأقسام الثلاثة عند د/ يوسف القرضاوي من أجل صحوة راشدة تجدِّد الدينَ وتنهض بالدنيا ص٥٠ و٥١.

هي. . .الظاهرية الجدد. . .أي الحرفيين الذين يقفون جامدين عند ظواهر النصوص ولا يمعنون النظر إلى مقاصدها، ولا يفهمون الجزئيات في ضوء الكليات. . .».

- وقسم ثالث «بين هذين الصنفين . . . رفضَ جمود الأولين وجمود الآخرين يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت، ويقبل التجديد ويدعو إليه وينادي على أن يكون تجديدا في ظل الأصالة الإسلامية. . .».

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني:

نتائج الأسباب الحاملة على الفهم الحداثي للنصوص الشرعية

لقد ساهمتْ هذه الأسباب باجتماعها أوْ بوجود واحدٍ منها في المساعدة على انتشار ظاهرة الفهم الحداثي للنَّص الشرعي قرآنا كان أوْ سنة، وتمخَّضت عن ذلك جملة من النتائج نسوق القولَ فيها على هذا النحو:

١/ **توجيهُ النظر إلى إصلاح مناهج تدريس العلوم الشرعية، وذلك بتجديد مناهج فهْم الأصليْن: الكتاب والسنة على نحوٍ مخالفٍ للمعهود من ضوابط وقواعد**: ولقد عبَّر عن هذا الهدف الذي هو في الحقيقة نتيجةٌ طبيعيةٌ من نتائج ما سلَف من أسباب ممهِّدة لظاهرة الفهم الحداثي للنصوص الشرعية - د/ طه حسين قديما عندما قال: «وليس من شك في أنَّ طبيعة الحياة العصرية، تقتضي أن تُعنى -كلية الآداب- عنايةً خاصَّة بالدراسات الإسلاميَّة على نحوٍ علميٍّ صحيحٍ لأنَّ كلية الآداب متصلةٌ بالحياة العلمية الأوربية، وهي تعرف جهد المستشرقين في

الدراسات الإسلامية، ومن الحق عليها أن تأخذ بنصيبها من هذه الدراسات..»[١].

٢/ جرأة كثير من المفكرين الحداثيين على الكتاب والسنة تأويلا وتحريفا للكلم عن مواضعه بدعوى ممارسة «القراءة الجديدة»، أو «القراءة المعاصرة» أو «القراءة الحرة» للأصليْن، وسيأتي بسطُ معالم هذه النتيجة في موضع هو بها أملك.

٣/ تكوين جيل من الباحثين من خريجي الجامعات العربية، مقطوع الصِّلة بقواعد وضوابط الفهْم المنضبط للقرآن والسُّنة، ولقد سهر على تكوين هذا الجيل طائفة من المفكرين الحداثيين الرُّواد الذين آثروا «تحديث الفكر الإسلامي»، و«ممارسة الإصلاح»، و«توطين الحداثة»، و«إضفاء الشرعية على الفهم الجديد لما سموه تراثا لهذه الأمة، وهو بلاشك عندهم القرآن الكريم والسنة المشرفة.

وأفلحَ جمعٌ من هؤلاء المفكرين الحداثيين الرُّواد في تكوين فريق من الباحثين الدائرين في فلكهم، إشرافا على

(١) د/ طه حسين مستقبل الثقافة في مصر ص٣٧٢.

رسائلهم الجامعية، أو توجيها لهم للبحث في قضايا تهمُّ النصَّ القرآني أو الحديثي، (فريق محمد أركون في فرنسا وعبد المجيد الشرفي[١] في تونس وتلاميذه مثلا).

٤/ نشوء جيل من المفكرين الحداثيين قليل الاطلاع على الإسلام وثقافته وعلومه وتاريخه، في مقابل سعة اطلاعه على ثقافة وحضارة وعلوم الغرب ومعارفه، وكيف يكلف هذا الجيل نفسه بالإطلاع على علوم الإسلام وثقافته «وهم تربوا داخل ثقافات علمانية غربية، تبحث قضايا الوجود كلها بمعزل عن الدين وقيمه، وحتى ذكْر اسمه، لأن ذلك يعني من وجهة نظرها عودة الكنيسة ومأساتها التاريخية إلى المجتمع. . . .ولقد عبر الدكتور زكي نجيب محمود عن هذه الحقيقة بصراحة كاملة بعد أن جاوز الستين من عمره فقال: «لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد تمكنه من مطالعة صحائف

---

(١) عبد المجيد الشرفي تلميذ مخلص لأركون، ولذلك تراه يمدح محاولاته العميقة والجريئة التي يقوم بها للاستفادة من العلوم الإنسانية الحديثة في قراءة النصوص الدينية التأسيسية ؟!!انظر الإسلام والحداثة للشرفي ص٨٦.

تراثنا العربي على مهل، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم وجديد، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه...»[١].

على أن الذين مارسوا من هؤلاء الإسلامَ نوع ممارسة، واطلعوا منه على علومه وثقافته أعملوا في مرجعياته وأسسه تأويلا وتفسيرا، وفهموا ذلك كله على ضوء معارف وعلوم العصر منبهرين بما وصل إليه الإنسان، غير ملتفتين إلى أصول وضوابط هذا الشأن.

٥/ بروز طبقة من كُتاَّب الحداثة ومنظريها، ممن يسعى إلى تبييئها في التربة الإسلامية وتوطينها فيها - وقد تبنوا خطة الكشف عن تهافت التراث باستعمال التراث نفسه، سواء كان هذا التراث قرآنا أو سنة، وذلك من أجل ضرب التراث من الداخل كما قد زعمت، فجعلت هذه الطبقة من الحداثيين على عاتقها مهمة تفسير الدين ونصوصه تفسيرا جديدا عصريا

---

(١) د/ محسن عبد الحميد أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث ص٥٣ - ٥٦.

حداثيا، لأنها زعمت أن التيار الديني «لم يفهم روح الإسلام، ولم يفهم معنى التطور الإنساني، لذا وجب على التيار الحداثي أن يقدِّم الفهم الصحيح للدين»[(١)].

٦/ دعت أغلب كتابات الحداثيين المعاصرين إلى نبذ الاعتماد على الضوابط المنهجية لفهم الكتاب والسنة، إذ رأت أنه «لكل مسلم أن يفهم عن اللَّه من كتاب الله، وعن رسول اللَّه من رسوله... بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف»[(٢)]، وأنَّ أول ما يجب القيام به من أجل المراجعة المعمَّقة للقرآن الكريم والفهم له «هو إعادة قراءة للكتاب العزيز واستكشاف لأحكامه ولمحتواها التشريعي حتى نتبين بالتدقيق ما جاء به القرآن الكريم، ونميزه مما نسبه إليه المفسرون والفقهاء عبر العصور»[(٣)]، وعدَّت أغلبُ هذه الكتابات علاقتنا بهذه الضوابط المنهجية «علاقة تقديس

---

(١) د/ الجيلاني مفتاح الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم ص٦٧.

(٢) الطيب تيزيني النص القرآني أمام إشكاليات البنية والقراءة ص٢٨١.

(٣) الصادق بلعيد القرآن والتشريع ... قراءة جديدة في آيات الأحكام ص٢٨.

وارتهان لنصوص ثوانٍ، هي نصوص التأويلات التاريخية والبشرية النسبية للمعطى الموحَى به، سواء في ذلك التفاسير القرآنية، ومجاميع الحديث النبوي، وكتب السيرة والمغازي والمناقب، وقواعد الاستنباط التي سنَّها الأصوليون، والأحكام التي دُوِّنت عن أئمة المذاهب وتلامذتهم، والعقائد الملزمة التي حُفظت عن شيوخ أهل السنة والشيعة والخوارج[1]»، وتساءلت هذه الكتابات على لسان أصحابها قائلةً: «كيف يكون السبيلُ إلى التَّخلص من هذه الأسْيِجة التي تكبِّل المسلم؟ وكيف يمكن التحرر من وطأة الماضي وقيوده؟ وما الطريقُ إلى فكر إسلامي إبداعي يحقق الطموحات المشروعة إلى تسامٍ روحي وأخلاقي تفتقر إليه الحضارة الحديثة، المادية في جوهرها؟»[2].

***

(١) من تقديم د/ عبد المجيد الشرفي لكتاب جدل الأصول والواقع لحمادي ذؤيب ص٨.

(٢) من تقديم د/ عبد المجيد الشرفي لكتاب جدل الأصول والواقع لحمادي ذؤيب ص٨ و٩.

المبحث الثاني:

مناهج الحداثيين النابعة من معارف العصر وعلومه في فهم النصوص

لم يتورع الفكر الحداثي المعاصر من استعمال معارف وعلوم العصر في ممارسة ما يسميه «القراءة الجديدة للنصوص الدينية الإسلامية»، بدعوى «التجديد في الفكر الإسلامي» أو بدعوى «ممارسة حق التحديث»، أوْ «حق التجديد والاجتهاد».

ولم يتوانَ هذا الضربُ من الفكر العلماني لحظةً عن توظيف أيٍّ علمٍ من العلوم العصرية الطارئة، سواء أكانت هذه العلوم مما أثبت نتائجه التحقيقُ العلميُّ، أو ما زال خاضعا للأخذ والرد بين واضعيه.

وغدت النُّصوص الإسلاميَّة قرآنا وسُنَّةً من قِبل هؤلاء المفكِّرين الحداثيين - حقلَ تجارب لمختلف المناهج والنَّظريات التِّي أفرزتها العلومُ الإنسانيةُ المعاصرةُ على وجه الخصوص، إذ «بتتبع واستقراء مختلف كتابات المعاصرين

الداعية إلى فهم كتاب اللَّه في ضوء المناهج الحديثة لتحليل الخطاب، لا نكاد نجد قاسما مشتركا بين مختلف الكتابات سوى تلك الرغبة الجامحة لإسقاط أي نظرية على النص القرآني دون مراعاة مدى توافقها معه أو مجافاتها له، والدارسُ اليومَ يستطيع أن يقرِّر. . .أنَّه ما من منهجٍ أو نظرية معرفية ظهرت إلا انعكس صداها في الدرس القرآني»[1].

(١) د/ عبد الرزاق هرماس القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب جامعة قطر حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية العدد التاسع عشر ١٤٢٢هـ ص ٢٣.

المطلب الأول:

فهم القرآن الكريم على ضوء مناهج البحث في علوم العصر

تسابقَ الحداثيون العربُ إلى مناهج البحث في العلوم الإنسانية التي نشأت في الغرب، متأثرةً بفلسفاتِ أصحابها، وآرائِهم تجاه الكون والحياة والإنسان، فدرَسُوها ودرَّسوها في الجامعات العربية، وتبجَّحوا بعدُ بقراءة الأصليْن العظيميْن: القرآن والسنة بها، ذهابا منهم إلى ضرورة الاستفادة من علوم العصر ومعارفه، مدَّعين أنهم «مجددون» و«مجتهدون»، و«قارئون» للنص الديني الإسلامي وللفهم الصحيح له ممارسون.

١/ المنهج الألسني:

ومن مناهج العلوم التي طبَّقها الفكرُ الحداثيُّ المعاصرُ على القرآن الكريم فهما وشرحا، **المنهج اللساني**، الذي نشأ «في ظروف تمدُّد المنهجيَّة الوضعية الغربيَّة وبسط نفوذها على العلوم الإنسانية لإخضاعها لمنطق الحس، بالرغم من مفارقتها له»[1].

---

(١) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص٨٣.

وممن حاول تطبيق هذا المنهاج اللساني على القرآن الكريم من الحداثيين المعاصرين: محمد أركون

ومحمد أبو القاسم حاج حمد ومحمد شحرور وغيرهم[(١)].

وسنقف بالقارئ الكريم هنا على محاولة أشهر مفكر حداثي من بين هؤلاء الثلاثة، وهي محاولة محمد أركون، وذلك لتبجحه بكونه كما يقول «العالم المجتهد المتسلح **بالآلات العلمية الحديثة**»[(٢)]، أو كما يقول علي حرب عنه: «هو أبرز مفككي النص القرآني والعقل اللاهوتي الذي جسده أو انبنى عليه»[(٣)] لأنه «**يوظِّف ترسانة معرفية ومنهجية هائلة ضد تراث طويل من التفسير**، يقوم على التعامل مع القرآن بوعي ديني يتجاوز التاريخ ويعلو عليه»[(٤)].

---

(١) انظر د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص٨٤ و٨٥ و د/ الجيلاني مفتاح الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم ص١٢٦ وما بعدها من صفحات.

(٢) د/ محمد أركون الإسلام أصالة ومعاصرة ص٢٩.

(٣) علي حرب الممنوع والممتنع نقد الذات المفكرة ص ١٢٠.

(٤) المصدر السابق.

ولقد كنَّا نوهنا في غير هذه الدراسة[1] بأن محمد أركون «حاول الأخذ بعدة مناهج في قراءته للنص القرآني منها البنيوية فاللسانيات ثم السيميائيات، ثم انتقل إلى علم الأناسة والأنثروبولوجيا، ولعله يخلط أحيانا بين هذه المناهج كلها أثناء عملية القراءة[2]، ذلك لأن القراءة الإيمانية حسب أركون لا تخدم القرآن الكريم ولا الفكر الإسلامي، ويجب أن يُخدمَ هذا النوع من الفكر من قبل باحثين مستقلين، عوض خدامه المتحمسين، وهم المستشرقون واللادينيون[3].

لقد كان محمد أركون مسكونا بتوظيف مناهج العلوم المعاصرة، التي منها اللسانيات في فهم القرآن الكريم وقراءته، وذلك حدا به أن يقول: « ننتظر أن يتمَّ تناول القرآن من جميع

---

(١) د/ محمد بن زين العابدين رستم نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي منشور في عدة مواقع منها على موقع ملتقى التفسير www.tafsir.com

(٢) د/ عبد الرزاق هرماس القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب ص٣١.

(٣) أحمد بوعود محمد أركون والمنهج الألسني النقدي في دراسة الظاهرة القرآنية منشور على موقع الحزب الليبرالي الديمقراطي العراقي www.liberaldemocraticpartyofiraq.com

الوجوه، وأن يخضع للقراءة والتأويل من قِبل جميع الفاعلين الاجتماعيين، مهما كان مستواهم الثقافي وتوجهاتهم المذهبية، وذلك للإجابة على مختلف الأسئلة العلمية والاكتشافات الجديدة لأنظمة القرآن في اللسانيات والتاريخ والأنتروبولوجيا والعقيدة والفلسفة»[١].

والهدف الذي يرجو محمَّد أركون الوُصول إليه من خلال توظيف هذا الضرب من المنهاج في عملية فهم القرآن هو تحقيق «رؤية حركة فكرية عربية، تواكب مختلف الخطابات الإسلامية التي تسعى لشرح القرآن وبيان وظائفه ودلالاته، حتى يتسنى ضمان التحكم في فهم القرآن الذي تضاعف استهلاكه إيديولوجيا دون الأخذ بعين الاعتبار ما يطرحه التفكير الحر والنقدي من مشاكل معاصرة، ليس بالنسبة للمسلمين فقط، بل بالنسبة لكل فكر منشغل بتجديد فهمنا للظاهرة الدينية»[٢].

وليس يقدِّم محمد أركون منهجا واضحا لقراءة القرآن

---

(١) Arkoun Lecture du Coran PV.VI

(٢) المصدر السابق.

الكريم من خلال اللسانيات، وغايةُ ما اقترح في هذا المضمار أن يطرح «المنطقُ اللغوي في فهم النصوص، وترك علوم للسان العربي للبحث في بنية الكلام القرآني»[١]، ثم إنَّ محمد أركون دعا في سبيله لالتماس **منهج جديد لفهم القرآن الكريم** - إلى إعادة النظر في التراث التفسيري المتراكم، وعدم التعويل فقط على التفاسير التقليدية منوها بالتراث التفسيري الباطني، داعيا إلى الاستفادة منه[٢].

وعندما حاول محمد أركون تطبيق المنهج الألسني المقترح في تفسير بعض آي القرآن الكريم، لم يستقم له ذلك، إذ رام سنة ١٩٧٤م «قراءة سورة الفاتحة»، وأعاد الكرة سنة ١٩٨٠م في «قراءة سورة الكهف»، حيث حشر في قراءته لهذه السورة ركاما من أقوال لفيف من المستشرقين كبلاشير ووانسبروغ وكوريان وهيكل وماسنيون، مما لا تعلق له بفهم آياتها، وأدرج ضمن ذلك نصوصا من تفسير الطبري والفخر الرازي مقطوعة من سياقها[٣].

---

(١) د/ عبد الرزاق هرماس القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب ص٣٤.

(٢) Arkoun Lectures du Coran p 14-18-19

(٣) د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص١٠٨ هامش ٢٤٨.

٢/ **المنهاج العقلاني**: يتبنى هذا المنهاج مسارا فكريا تمثله مدرسةٌ تسعى «إلى التوفيق بين نصوص الشرع وبين الحضارة الغربية والفكر الغربي المعاصر، وذلك **بتطويع النصوص وتأويلها تأويلا جديدا** يتلاءم مع المفاهيم المستقرة لدى الغربيين، ومع **انفجار المعلومات والاكتشافات الصناعية الهائلة في هذا العصر**، وتتفاوت رموز تلك المدرسة تفاوتا كبيرا في موقفها من النص الشرعي، ولكنها تشترك في الإسراف في **تأويل النصوص**، سواء كانت نصوص العقيدة، أم نصوص الأحكام، أم الأخبار المحضة، وفي رد ما يستعصي من تلك النصوص على التأويل»(١).

ويهدف هذا المنهاج الأدواتي في القراءة الحديدة للقرآن الكريم إلى رفع عائق الغيبية أي زحزحة الوحي عن مكانته باعتباره مصدرا للمعرفة، ويتم ذلك عن طريق التعامل مع الآيات بكل ما توفره **النظريات والفلسفات الحديثة**، ويكون ذلك بواسطة نقد علوم القرآن، والتوسل **بالمناهج المقررة في**

---

(١) د/ محمد عبد الرزاق أسود الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية في مصر وبلاد الشام ص٤٦٤.

علوم الأديان بالغرب، وإعطاء العقل سلطة مطلقة في إخضاع الآيات للنقد[١].

ولقد تولى د/ **محمد عابد الجابري** في المغرب كِبْر هذا الاتجاه العقلاني في قراءة النص القرآني، وذلك منذ أن شرع يدعو في كتبه إلى استعمال «العقلانية» و«الروح النقدية» في التعامل مع التراث العربي[٢].

«ويبرز هذا المنحى العقلاني .. بقراءته النقدية لمختلف الروايات والمصادر التاريخية إضافة إلى تبني منهج علمي موضوعي يقارب النص بعيدا عن ظلال الانتماء العقدي»[٣].

ولقد عدَّ الجابريُّ عملية فهم القرآن الكريم أمرا ضروريا واردا في كلِّ زمان، وأن ذلك يستلزم اكتساب معرفة جديدة

---

(١) د/ طه عبد الرحمن روح الحداثة ص١٨٣.

(٢) انظر مثلا محمد عابد الجابري إشكاليات الفكر العربي المعاصر ص٣١ و٣٥.

(٣) فؤاد بوعلي الأسس المنهجية للقراءة الحداثية للنص القرآني محاولة في التفكيك والتأسيس منشور على موقع مجلة التسامح www.altasamoh.net التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في سلطنة عمان العدد ٢٤ خريف ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

لتجديد فهم النص القرآني، فقال مبينا ذلك: «... **فهْمُ القرآن** مهمة مطروحة في كل وقت ومطلوبة في كل زمان، وقد يكفي التذكير بأنَّ اقتناعنا بأن القرآن يخاطب أهل كل زمان ومكان، يفرض علينا **اكتساب فهْم متجدِّد للقرآن بتجدد الأحوال في كل عصر**»[١].

وبين الجابري كيف يجب أن يكون فهم القرآن الكريم قائلا: «... لقد كنَّا نطمح إلى أن نوضح كيف أنَّ **فهم القرآن ليس هو مجرد نظر في نصٍّ مُلئت هوامشه وحواشيه بما لا يحصى من التفسيرات والتأويلات، بل هو أيضا فصْل هذا النص عن تلك الهوامش والحواشي، ليس من أجل الإلقاء بها في سلة المهملات، بل من أجل ربطها بزمانها ومكانها، كي يتأتى لنا الوصل بيننا نحن في عصرنا**، وبين النص نفسه كما هو في أصالته الدائمة»[٢].

ولذلك سعى الجابريُّ في كتابه مدخل إلى القرآن الكريم - الذي هو تمهيد لتفسيره- إلى طرح نظرات عقلانية نقدية لقصة

(١) د/ محمد عابد الجابري مقدمة القسم الأول من فهم القرآن ص٦

(٢) د/ محمد عابد الجابري مقدمة القسم الأول من فهم القرآن ص٧

كتابة المصحف الشريف[١]، معتمدا منهج الشك في المسلَّمات التي أجمع عليها الأقدمون في علوم القرآن، رافضا كل خبر - كخبر انشقاق القمر وخبير الإسراء والمعراج الواردين في القرآن الكريم- له بُعدٌ غيبي ذي حمولة إعجازية[٢]، موظفا التأويل الذي ينسجم مع المنهاج العقلي الذي ارتضاه لفهم آي الذكر الحكيم، مخترعا ترتيبا جديدا لفهم السور وفق زمن نزولها[٣].

٣/ المنهاج المادي: أو التاريخي، أو ما يحلو لبعضهم أن ينعته بـ: التاريخانية وهو: «مذهب يقرر أنَّ القوانين الاجتماعية تتَّصف بالنِّسبة التاريخية، وأنَّ القانونَ من نتاج العقل الجمعي، وتعمم ذلك على الشرائع الإلهية أيضا»[٤]، وإذا أُخذ بهذا الأساس المرجعي منهاجا لتفسير النصوص الدينية،

---

(١) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص٢١٧.

(٢) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص١٨٨ ويقول الجابري هنا بخصوص هاتين المعجزتين: «إنها تراث لنا ومن حقنا، بل من واجبنا أن نختار منها ما لا يتعارض مع الفهم الذي ينسجم مع مبادئ العقل ومعطيات العلم في عصرنا».

(٣) د/ محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٤٥.

(٤) د/ أحمد محمد الفاضل الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد ص٢٣٧.

كان معنى ذلك أن تكون هذه النصوص رهينة تاريخها إذ «لا يمكن فصل أي نص عن تاريخه»[١]، ولقد طبق هذا المنهاج في قراءة القرآن الكريم محمد أركون[٢] وعبد اللَّه العروي الذي سنخُصُّه هنا بوقفة.

يهدف المشروعُ الفكري الذي يدعو إليه عبد اللَّه العروي - كما يقول الجابري- «إلى إمداد المجتمع العربي بمفاهيم النفعية والليبرالية التاريخانية وجعلها تتركز وتسود على غيرها من المفاهيم»[٣].

فعبد اللَّه العروي متشبع بالفكر الماركسي الذي يعُدُّه «أفضلَ مدرسة للفكر التاريخي يجدها العرب اليوم»[٤] لأنه

---

(١) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص٨٨.

(٢) د/ محمد زين العابدين رستم نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي منشور في عدة مواقع منها على موقع ملتقى التفسير www.tafsir.com

(٣) د/ محمد عابد الجابري مساهمة في النقد الإيديولوجي ضمن كتاب محاورة فكر عبد اللَّه العروي ص١٨٦ .

(٤) د/ عبد اللَّه العروي أزمة المثقفين العرب تقليدية أم تاريخانية ص١٥٣.

ينبغي على «إسلام ما بعد الغزو الاستعماري . . . أن يغير نظرته إلى نفسه»[١].

ولقد ظهرت أمارات هذا الفكر المادي التاريخاني في موقف العروي من عملية الفهم للقرآن الكريم، وذلك من خلال ما يأتي:

١/ **تعريف القرآن الكريم**: عرَّف العروي القرآن الكريم بتعريف يطابق منهجه الموظَّف من أجل فهمه، فقال: «. . . إذا انطلقنا من النص[٢] من مجموعة أوامر أسماء وحدود بقينا باستمرار في نطاقه»[٣].

٢/ **منهج فهم القرآن الكريم عند العروي**: يشرح النص السابق الذي نقلناه عن العروي، معنى فهم النص القرآني عند المنوه به هنا، إذ فيه: «. . . إذا انطلقنا من النص من مجموعة أوامر أسماء وحدود بقينا باستمرار في نطاقه، **عقلُ النص هو بيانه أو فقهه أو علمه أو عَقده، هذه مفاهيم مرتبطة بعضها**

(١) د / عبد اللَّه العروي الإيديولوجيا العربية المعاصرة ص١٠٧.
(٢) المقصود بالنص القرآن الكريم كما هو واضح.
(٣) د / عبد اللَّه العروي مفهوم العقل ص٣٦٠.

ببعض في الفهم وفي اللغة»[١] ففهْمُ القرآن الكريم عند العروي عقله، لكن لماذا نطالب بإعادة عقل القرآن في هذا العصر؟؟.

٣/ مبررات فهم القرآن الكريم عند العروي: يدلي عبد اللَّه العروي بمبررين اثنيْن حامليْن على ممارسة الفهم لكتاب اللَّه هما:

أولا: غموض الظاهرة القرآنية وتعقيدها: يقول العروي واصفا حال العرب اليومَ: «... وإن كان وضعُ العرب لا يزال غامضا، فظاهرةُ القرآن أكثر غموضا»[٢].

ويقول العروي أيضا في سياق آخر: «... تعاقبُ الأيام لا يزيد كلام اللَّه إلا تعقيدا وغموضا...»[٣].

---

(١) د/ عبد اللَّه العروي مفهوم العقل ص٣٦٠ و٣٦١.

(٢) د/ عبد اللَّه العروي السنة والإصلاح ص٨٩ وانظر نقضَ كون القرآن ظاهرةً عند عبد السلام محمد البكاري والصديق محمد بوعلام في رؤية نقدية لكتاب السنة والإصلاح للدكتور عبد اللَّه العروي ص١٤١.

(٣) د/ عبد اللَّه العروي السنة والإصلاح ص١٥٧ وانظر نقض هذه الفِرية عند عبد السلام محمد البكاري والصديق محمد بوعلام في رؤية نقدية لكتاب السنة والإصلاح للدكتور عبد اللَّه العروي ص ٣٢٦-٣٢٧.

ثانيا: ضرورة قراءة القرآن الكريم منفصلا عن التفاسير المسبقة والضوابط المنهجية المقررة عند أهل هذا الشأن:

يقول العروي في هذا السياق: « **لقد قرأنا الكتاب**[١] قراءة برئية غير متحفظة، متوقفين عند الأمارات الدَّالة، دون اعتبارٍ لما قد تسفر عنه الدراسات الجارية، أكانت تخص اللغة أو البلاغة أو المعاني أو الأحكام، وما فعلناه مع النص المؤسِّس، لماذا لا نفعل مثله مع ما نسميه السنة، أي الإسلام كما تجسد وتطور في التاريخ، بناءً على وضعنا الحالي وانطلاقا من معارفنا وحاجاتنا من معتقداتنا وتطلعاتنا . . . »[٢].

ولسنا نقف بعدُ في أعمال العروي على محاولة تفسيرية تتناول آي الذكر الحكيم، ليبقى ما قعَّده نظريةً مؤجَّلةً تنتظر قارئا قد يجود به الزمان أوْ لا يجود؟!!.

* * *

---

(١) المقصود القرآن الكريم.

(٢) د / عبد اللّه العروي السنة والإصلاح ص ١٢٩.

المبحث الثالث:

تقويم مناهج الحداثيين في فهم النص الديني

وبيان آثار تبني الطرح الحداثي في الفهم.

كان لتبني الحداثيين منهجا معينا في فهم النص الديني الإسلامي قرآنا وسنة على ضوء معارف العصر وعلومه الحديثة، آثارٌ في مجالات تقديم الفكر الإسلامي الحديث في الجامعات والمنتديات العلمية، وعلى صفحات كثير من الكتب التي تقذفها المطابع كل يوم.

ومن أجل بيان هذه الآثار، لابد من تقويم مناهج الطرح الحداثي في عملية الفهم لما يسميه تراثا وهو يقصد القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة.

فمن معالم النظرة التقويمية لهذا الطرح الحداثي:

١/ نزع القداسة عن الأصليْن العظيمين القرآن والسنة:
سعى التيار الحداثي المعاصر في فهمه الجديد للأصول الإسلامية المعتبرة إلى عدِّ القرآن والحديث كلاما من الكلام

يمكن دراسته ونقده، وبيان قيمته علوا وهبوطا من غير وجل ولا خوف، وهذا أمرٌ متفق عليه بين أصحاب هذا التيار فـ«النص القرآني مثلا -عند نصر حامد أبي زيد- نص لغوي لا تمنع طبيعته الإلهية أن يدرس ويحلل بمنهج بشري، وإلا تحول إلى نص مستغلق على فهم الإنسان العادي مقصد الوحي وغايته»[١]، والسنة «هذا الأصل -حسب عبد المجيد الشرفي- لم يعد يحتل نفس المنزلة التي كانت له عند الأجيال القريبة من عهد النبوة، وأنَّ الشعور السائد أنه يعسر مواجهة مشاكل التشريع في المجتمعات العصرية بالرجوع إليه»[٢].

٢/ تجاوز المناهج الأصيلة في فهم الكتاب والسنة: يكاد يجمع أصحاب التيار الحداثي في تناول ظاهرة فهم النص الديني الإسلامي على أنه ينبغي تجاوز المناهج القديمة الضابطة لعملية الفهم، ذلك لأن معارفنا - كما يقول محمد أركون -التقليدية غير دقيقة[٣]، ويجب على هذا الأساس- كما

---

(١) نصر حامد أبو زيد نقد الخطاب الديني ص ١٢.

(٢) د/ عبد المجيد الشرفي الإسلام والحداثة ص١٦٢.

(٣) محمد أركون تاريخية الفكر العربي الإسلامي ص٤٤.

يقول د/ عبد المجيد الشرفي - «التعامل المباشر مع النص القرآني»[(١)].

٣/ توظيف معارف العصر وعلومه في الفهم للنص الديني:

لقد آمن الفكر الحداثي المعاصر بوجوب توظيف العلوم الحديثة التي توصل إليها الإنسان المعاصر في مجالات مختلفة من المعرفة في فهم القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، واستقر رأيه على «أنَّ مِنْ أولى مهام المثقَّف والباحث الداعي إلى التنوير، التوفرُ على نقد الفكر الديني، بإخضاعه إلى الأساليب والمناهج العلمية في الدرس والتحليل»[(٢)].

ويغلو هذا التيار في توظيف ما أحدثته الثورة المعرفية في علوم الطبيعة وعلوم الإنسان في هذا العصر -في عملية الفهم، مخافةَ أن ينقلب الدين- كما يقول عبد المجيد الشرفي- إلى إيديولوجيا، فيصبح أداة للنضال السياسي والاجتماعي، ويفقد بذلك قدرته التفسيرية وبعده الروحي المميز»[(٣)].

---

(١) د/ عبد المجيد الشرفي الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص٦٤.

(٢) علي حرب نقد النص ص٢٠١.

(٣) د/ عبد المجيد الشرفي الإسلام والحداثة ص ٥٩ و٦٠.

ولا يكاد يعترف التيار الحداثي بجهد معاصرٍ في تفسير القرآن الكريم، ولا في شرح الحديث النبوي الشريف ما لم يكن فيه أجوبة عن «المشاغل المعرفية - كما يقول عبد المجيد الشرفي- التي تثيرها الفلسفات والعلوم الإنسانية الحديثة وتقتضيها عقلية العصر»[(١)].

٤/ ظهور تصور ومفهوم جديدين للقرآن والسنة: اخترع التيار الحداثي المتعامل مع النص الإسلامي قرآنا وسنة مفاهيم جديدة للأصلين الكريمين، فالقرآن كما يراه تيار الحداثة «نتاج تجربة فردية قام بها محمد في إطار زمن ومكان محددين، أدى فيه التاريخ دورا مهما في توجيه فكر الفرد -المقصود هنا النبي- واللغة المعبرة بها عن ذلك بالتاريخ»[(٢)]، وأما السنة فهي «اجتهاد النبي في تطبيق أحكام الكتاب من حدود وعبادات» أو هي كما يقول العروي «الإسلام كما تجسد وتطور في التاريخ»[(٣)].

---

(١) د/ عبد المجيد الشرفي الإسلام والحداثة ص٨٥.

(٢) د/ الجيلاني مفتاح الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم ص٧١.

(٣) د/ عبد اللَّه العروي السنة والإصلاح ص١٢٩، وانظر نقضَ هذا =

٥/ نسبية الأحكام التشريعية وعدم لزومها في العصر الحديث: أثمر استبدال التيار الحداثي مفهوم الأصليْن بمفهوم جديد- ظهورَ عدة تصورات لما يجب أن يكون عليه موقف المسلم المعاصر من الشريعة اليوم، فمن ذلك:

أ/ الدعوة إلى فهم الأحكام التشريعية في ضوء أسبابها التاريخية وظروف تقنينها وفرضها: إذ من الواضح كما يقول- الصادق بلعيد- «أن فهم الأحكام القرآنية مرتبط بمعرفة الظروف التي نزلت في شأنها، وبذلك فإن تحديد مدى تلك الأحكام مقيد بمقتضيات تلك الحوادث، فلا يجوز أن تؤخذ تلك الأحكام بمعزل عن الحادثة التي جاءت فيها... لايجوز أن تحمل الأحكام القرآنية بصفة آلية على الإطلاق وعلى التعميم كما كان يفعله الفقهاء القدامى، فالارتباط الوثيق بين الحكم وسببه يحمل بالعكس على نسبية ذلك الحكم»(١).

= القول عند عبد السلام محمد البكاري والصديق محمد بوعلام في رؤية نقدية لكتاب السنة والإصلاح للدكتور عبد الله العروي ص٢٥٣ و٢٥٤.

(١) الصادق بلعيد القرآن والتشريع... قراءة جديدة في آيات الأحكام ص٢٩٤.

ومن الأمثلة التوضيحية التي تحصر الحكم القرآني في ظرفيته التاريخية، ما قد ذكره عبد المجيد الشرفي عند التعرض لحد السرقة عندما قال: «لاجدال في أن قطع يد السارق هو من الممارسات التي كانت معروفة قبل الإسلام، ومن الطبيعي أن تكون عقوبة السرقة شديدة في ظروف المجتمع البدوي، وفي إطار اقتصاد الكفاف عموما، إذ إنها قد تؤدي إلى هلاك من يُسرق منه ماله، وربما كانت هذه العقوبة الشديدة الوسيلة الوحيدة للمحافظة على قدر أدنى من النظام في غياب سلطة سياسية يمتد نفوذها إلى سائر أفراد المجتمع.... فكان ما نصَّ عليه القرآن منسجما تمام الانسجام مع مقتضيات الظرف، ولكنه لا يعني غلق الباب في وجه أشكال أخرى من العقاب متى تطورت المجتمعات وبرزت فيها قيم أكثر تناغما مع هذا التطور...»[1].

ب/ ادعاء عدم اكتمال التشريع في القرآن الكريم: وعَدُّ ذلك من «المجازفة»[2] لأنَّ «التفحص في النص القرآني -حسب

---

(١) د/ عبد المجيد الشرفي الإسلام بين الرسالة والتاريخ ص٦٩ و٧٠.

(٢) المصدر السابق.

الصادق بلعيد- وفي أسباب نزول الآيات المذكورة[١] يدلُّ على أنَّ هذه المقولة إنما هي مغالاةٌ في الاستنتاج والاستخراج وإثقال غير مشروع للآيات المذكورة ولمقاصدها الحقيقية. . .وكيف يكون ذلك، وكيف يقبل العقل المقولة التقليدية باكتمال التشريع الإسلامي في القرآن الكريم، وفي الآيات الحُكمية منه بالذات، والحال أن هذه الآيات قليلة بصفة مرموقة؟؟»[٢].

٦/ الدعوة إلى التفريق بين نصوص الوحي المقروءة وبين نصوص الوحي المدونة أثناء ممارسة عملية الفهم: إذ رأى التيارُ الحداثي أنَّ ذلك مؤثِّر في عملية الفهم، فالقرآن يجب أنْ «ننظر إليه بكونه في البداية وفي الأساس خطابا شفهيا انتقل إلى نصٍّ مكتوب، **فتتغيرُ الآلياتُ للفهم والتفسير بتغير شكْل الخطاب نفسه**»[٣].

(١) يعني قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

(٢) الصادق بلعيد القرآن والتشريع. . . قراءة جديدة في آيات الأحكام ص٢٩٥ و٢٩٦.

(٣) الصادق بلعيد القرآن والتشريع. . . قراءة جديدة في آيات الأحكام ص٣٢١.

الخاتمة

أحْدثَ اطلاع الباحثين العرب المعاصرين على علوم ومعارف الغرب، شرْخا في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، إذ تميز فريقان إثر هذا الاطلاع: فريق رأى تحت وطأة الصدمة أنْ لا مفرَّ من توظيف مناهج هذه العلوم الغربية الحديثة في فهم النص الديني الإسلامي قرآنا وسنة، ولو كانت نتائج ذلك التوظيف على حساب الضوابط المنهجية التي أفنى القدامى أعمارهم في تقعيدها واستنباطها من أصول معتبرة صحيحة، وفريقٌ رأى أنْ لا مفرَّ من توظيف العلوم الحديثة في فهم الأصليْن النّيِّرين مع مراعاة خصوصية المنهج والطريقة، ومراعاة عدم التفريط في الثوابت الدينية.

لقد كانت هذه الدراسة بحثا أراد به صاحبُه الوقوف على الأسباب الحاملة لشرذمة من الحداثيين المعاصرين على الأخذ بمناهج علوم العصر ومعارفه أثناء ممارسة عملية الفهم للقرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

كما كانت هذه الدراسةُ في مبحثها الثاني تعريفا ببعض

مناهج العلوم العصرية التي سلك سبيلها، كثيرٌ من الحداثيين المعاصرين من دعاة الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث.

وكان المبحث الثالث من هذه الدراسة تقويما لمناهج علوم ومعارف العصر الموظَّفة من قِبل دُعاة الحداثة والتجديد من أجل قراءة النصين الكريمين: القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

ولقد أسفرت هذه الدراسة عن النتائج الآتية:

أولا: أصبح منهج فهم النص الديني الإسلامي لدى التيار الحداثي المعاصر منْفلتا من الضوابط المنهجية الإسلامية الخاصة بتفسير القرآن الكريم وشرح حديث النبي ﷺ التي أُلِّفت فيها كتبٌ، وذهبت فيها أنفس، واستُبدلت تلك الضوابط بمنهج للفهم دُعي: «**الهرمنوطيقيا**» وهو منهج غربي قديم، اخترع من أجل فهم وتقريب نصوص الكتاب المقدس التي واجهت مشكلات عويصة من أجل فهمها لدى المسيحي «أما التفسير الإسلامي فقد جاء للتعمق والتوضيح في النص القرآني، ولا يزال باستمرار يكتشف آفاقا من المعرفة»[١].

(١) د/ محمد محمود كالو القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير ص٦٢.

ثانيا: لقد حاول الحداثيون بمختلف مشاريعهم الفكرية المقترحة من أجل فهم النص الديني أن يضعوا رؤى وتصورات منهجية لفهم الأصليْن العظيميْن، بيْد أنَّ مشاريعهم للفهم لم تساندها أمثلة تطبيقية بالكثْرة التي تبْعثُ على القول بأنَّ مشاريعهم النظرية ناجحة.

ثالثا: كانت قراءات الحداثيين للنص الديني مجافية للضوابط العلمية المجردة، إذ «تتبنى موقفا نقديا أو هدميا من التراث التفسيري ومن مختلف مباحث علوم القرآن، ومن علوم اللسان العربي، لكنها في هذا النقد لا تلتزم بضوابط علمية مقررة، بل تؤسِّس هذا النقد على افتراضات مخططة يتمُّ الإلحاح والحرص عليها»[1]، وقل الأمر مثله بالنسبة لقراءة التيار الحداثي للسنة النبوية.

رابعا: أخطأت هذه المحاولات العربية الحداثية من أجل فهم النص الديني العصرَ والبيئةَ، «أما تخلفها عن العصر فيرجع إلى كون الدعوة إلى قراءة القرآن -مثلا- عند المنتمين إلى العالم العربي تبنت لحظةَ انطلاقها في السبعينيات المنهجَ

(١) د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص١٠٩.

البنيوي الذي أفل بفرنسا خلال عقد الستينيات، ولا زال كثيرٌ من دُعاة القراءة حتى اليومَ متوقفين عند هذه المرحلة رغم أن الغربيين والفرنسيين على الخصوص تجاوزوا مرحلة البنيوية وما بعد البنيوية[١]»، وأماً كون هذه المحاولات غريبة عن البيئة التي نُقلت إليها فيظهر في أمرين: الأول: جانب الأصول النظرية التي ترجع إلى فلسفة الأنوار بفرنسا خلال القرن الثامن عشر الميلادي، الأمر الثاني: جانب المصطلحات والأدوات التي تتوسل بها التي منها مصطلح الإنسية L humanisme المرتبط بالتراث الديني الغربي، وغيره من المصطلحات الغربية النشأة والبيئة، والمرتبطة بخلفيات مذهبية محددة[٢].

وبعدُ فإنه لابد من خطة علمية مدروسة لمواجهة الزحف الحداثي الذي نصبَ نفسه مجتهدا مجدِّدا لضوابط فهْم الأصليْن العظيميْن القرآن والسنة، ومن معالم ذلك:

---

(١) د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص١١٣.

(٢) د/ عبد الرزاق هرماس قضية قراءة النص القرآني ص١١٤.

١/ عرضُ مشاريع التيار الحداثي التي يدور موضوعها حول الفهم الحداثي للنص الديني، ومحاولة الوصول إلى الأسس المرجعية لهذه المشاريع، ومناقشتها بمنهج علمي، لبيان عُوارها واستحالة تنزيلها على الأصول الإسلامية لأمةٍ عندها من مناهج تفسير وشرح النصوص الدينية ما يكفيها ويغنيها ويبْلُغُ بها إلى المعنى الصحيح، والحكم السليم، والمراد المقصود للشارع الحكيم.

٢/ عرضُ هذه المشاريع الحداثية في مقرَّرات ومناهج التعليم الجامعي على الطلبة، وعدم التَّحفظ عن ذلك، لأنَّ عرضها بالمنهجية التيِّ سبق التنبيه عليها، يساعد الطالب على التجافي عنها، والبِدار إلى نقدها، واستهجانها منهجًا لفهم النصوص الإسلامية، وفي اليوم الذي نأى الدرسُ الشرعيُّ الجامعيُّ عن مثل هذه المشاريع، وتحاشى التعريج عليها، ولفْت النظر إليها، مكتفيا بما عنده من ضوابط وقواعد، فاجأنا الطلبةُ بمشاريع هؤلاء الحداثيين معروضةً في استشكالات يبرزونها أسئلةً موجهةً إلى الأستاذ المحاضر الذي لعله يكون لم يطلع على تلك المشاريع، ولا حام حول حماها.

٣/ لقد تسللت هذه المشاريع الحداثية لفهم الكتاب والسنة إلى منابر الإعلام من خلال صحافة ثقافية، أو برامج حوارية، أو مواقع إلكترونية، وعَرضتْ سلعتها، ترجو متأثرين، وتبغي حاملا للمِشعل، ومنفعلا بالنظرية والمنهج، فلامفرَّ إذن من سلوك الطريق نفسه، لمن رامَ محاربةَ فكرٍ بفكر، وهدمَ نظريةٍ بنظرية، واستبدالَ مشروعٍ بمشروع.

وأحمدُ اللهَ تعالى في خِتام هذه الدراسة على حُسن التوفيق، والهداية إلى الكتابة في هذا الموضوع الذي تكثُر فائدتُه، وتغزُر عائدُته، وصلَّى اللَّه وسلَّم على الهادي البشير، والنَّبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمدُ للَّه ربِّ العالمين.

❊ ❊ ❊

مراجع الدراسة

- **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول** الشوكاني دار الفكر بيروت بلا تاريخ.

- **أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث** د/ محسن عبد الحميد مكتبة أسامة بن زيد الرباط الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- **أزمة المثقفين العرب تقليدية أم تاريخانية** د / عبد اللّٰه العروي ترجمة ذوقان قرقوط المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

- **الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد** د/ أحمد محمد الفاضل ٢٠٠٨م الطبعة الأولى سوريا دمشق مركز الناقد الثقافي.

- **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر** د/ محمد محمد حسين مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

- **الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية في مصر وبلاد الشام** د/ محمد عبد الرزاق أسود دار الكلم الطيب الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- **الاجتهاد والتجديد في الفكر المعاصر وفيها: أولويات أمام الاجتهاد والتجديد** منير شفيق مركز دراسات العالم الإسلامي سلسلة الفكر الإسلامي المعاصر ٢ الطبعة الثانية ١٩٩١م.

- **الأسس المنهجية للقراءة الحداثية للنص القرآني محاولة في التفكيك والتأسيس** فؤاد بوعلي منشور على موقع مجلة التسامح www.altasamoh.net التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في سلطنة عمان العدد ٢٤ خريف ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

- **الإسلام والحضارة الغربية** د/ محمد محمد حسين مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثامنة ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

- **الإسلام أصالة ومعاصرة** د/ محمد أركون ترجمة خليل أحمد.

- **الإسلام والحداثة** د/ عبد المجيد الشرفي الدار التونسية للنشر الطبعة الثانية ١٩٩١م.

- الإسلام بين الرسالة والتاريخ د/ عبد المجيد الشرفي دار الطليعة بيروت ٢٠٠١م.

- **إشكاليات الفكر العربي المعاصر** محمد عابد الجابري بلا تاريخ طبع الدار البيضاء المركز الثقافي العربي.

- **الإيديولوجيا العربية المعاصرة** د/ عبد اللّٰه العروي المركز الثقافي العربي بيروت الدار البيضاء الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

- **تاريخية الفكر العربي الإسلامي** محمد أركون ترجمة هاشم صالح مركز الإنماء القومي بيروت١٩٨٦م وأيضا طبعة المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

- **جدل الأصول والواقع** لحمادي ذؤيب

- **جناية البخاري** زكريا أوزون رياض الريس بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

- **الحداثة عبر التاريخ مدخل إلى نظرية** حنا عبود منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٩م.

- **الحداثة من منظور إيماني** د/ عدنان علي رضا النحوي دار النحوي للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ -١٩٩٣م.

- **الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم** دراسة نقدية د/ الجيلاني مفتاح دار النهضة سوريا الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

- **روح الحداثة** د/ طه عبد الرحمن الطبعة الأولى ٢٠٠٥م المغرب الدار البيضاء المركز الثقافي العربي.

- **رؤية نقدية لكتاب السنة والإصلاح للدكتور عبد الله العروي** عبد السلام محمد البكاري والصديق محمد بوعلام دار الأمان الرباط الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

- **السنة والإصلاح** د / عبد اللَّه العروي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

- **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي** د/ محمد البهي دار المعارف المصرية الطبعة العاشرة ١٩٩١م.

- **الفكر الإسلامي نقد واجتهاد** محمد أركون ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي بيروت الطبعة الثانية.

- **الفكر العربي في عصر النهضة** ألبرت الحوراني ترجمة كريم عزقول دار النهار للنشر بيروت بلا تاريخ.

- **فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول** محمد عابد الجابري ٢٠٠٩م بيروت لبنان مركز دراسات الوحدة العربية.

- **في قضايا الدِّين والفكر** محمَّد عابد الجابري مجلة فكر ونقد المغرب، السنة الأولى، العدد ٩، ماي ١٩٩٨م.

- **في حاجة إلى الإصلاح** محمد عابد الجابري المنشور في مجلة مواقف العدد٣٢ ص٣٣.

- **القاموس المحيط** الفيروزبادي دار الفكر بيروت ١٩٩٥م.

- **القرآن والتشريع... قراءة جديدة في آيات الأحكام** الصادق بلعيد مركز النشر الجامعي تونس ١٩٩٩م.

- **القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب** د/ عبد الرزاق هرماس جامعة قطر حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية العدد التاسع عشر ١٤٢٢هـ.

- **القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير** د/ محمد محمود كالو دار اليمان سوريا الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

- **قضية قراءة النص القرآني** د/ عبد الرزاق هرماس بحث مرقونٌ لم يطبع بعدُ.

- **لسان العرب** ابن منظور دار صادر بيروت بلا تاريخ.

- **المثقفون العرب والغرب** هشام شرابي دار النهار للنشر بيروت ١٩٨١م.

- **العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب** محمد حامد الناصر مكتبة الكوثر الطبعة الأولى ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.

- **محمد أركون والمنهج الألسني النقدي في دراسة الظاهرة القرآنية** أحمد بوعود منشور على موقع الحزب الليبرالي الديمقراطي العراقي www.liberaldemocraticpartyofiraq.com

- **مدخل إلى القرآن الكريم** محمد عابد الجابري الطبعة الأولى ٢٠٠٦م لبنان بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.

- **مساهمة في النقد الإيديولوجي** د/ محمد عابد الجابري ضمن كتاب **محاورة فكر عبد اللّٰه العروي** جمع وترتيب بسام الكردي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء وبيروت.

- **مستقبل الثقافة في مصر** د/ طه حسين.

- **مفهوم العقل** د / عبد اللّٰه العروي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء بيروت الطبعة الثالثة ٢٠٠١م.

- **من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا** د/ يوسف القرضاوي الدار البيضاء المغرب دار المعرفة ١٩٩٦م.

- **الممنوع والممتنع نقد الذات المفكرة** علي حرب المركز الثقافي العربي بيروت الدار البيضاء الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

- **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي** د / محمد شحرور الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

- **النخبة والأيديولوجيا والحداثة** د/ سعيد شبار دار الهادي بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٥م.

- **النص الإسلامي في قراءات الفكر العربي المعاصر** د/ سعيد شبار منشورات الفرقان المغرب الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

- **النص القرآني أمام إشكاليات البنية والقراءة** الطيب تيزيني دار الينابيع دمشق ١٩٩٧م.

- **نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي** د/ محمد بن زين العابدين رستم، ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر العلمي الدولي الأول عن: «القراءات المعاصرة للقرآن الكريم» المنعقد في كلية الآداب جامعة شعيب الدكالي الجديدة المغرب ١٥-١٧ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ وهو منشور في عدَّة مواقع منها على موقع ملتقى أهل التفسير www.tafsir.com

- **نقد الخطاب الديني** د/ نصر حامد أبو زيد دار سينا القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.

- **نقد النص** علي حرب المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

Arkoun Lecture du Coran Maisonneuve et larose Paris 1982.

رَسْمُ المصْحفِ الشَّريفِ

بينْ شُبهاتِ الأقْدَمينَ وأرَاجيفِ المحْدَثِينَ(١)

مقدِّمة البحث

نزلَ القرآنُ الكريمُ على قلْبِ محمَّد بن عبْد اللَّه ﷺ مؤدى أداءً صوتيا، فأمر عليه الصلاة والسلام بكتابته لِيُسانِد المكتوبُ المحفوظَ، والمؤدَّى المبلَّغ صوتيا المزبورَ المخطوطَ، فاتَّخذ النبيُّ الكريم لذلك الكتبةَ الضابطين من الصَّحابة المتقنين للرَّسم والخط، فكتبوا القرآنَ الكريم بين يديه على وفق ما كان يمليه عليهم ﷺ، وعلى نحو ما كان يشير ويهدي، فقُبض ﷺ والقرآنُ الكريم مكتوبٌ كلُّه على هذا النحو مفرَّقا في صُحف ولخافٍ وعُسب، فلما جاء اللهُ بأبي بكر وقد استحرَّ القتلُ بقراء الصَّحابة في حروب الرِّدة، وخيف ذهابُ

(١) بحثٌ مقدَّمٌ إلى الملتقى الدولي الخامس للقرآن الكريم: «رسم القرآن الكريم وضبطه حِكم وأحكام» مدرسة الشيخ عبد الحميد بن باديس للقراءات قسنطينة الجزائر ١٤٣٥هـ.

القرآن، أمرَ ﷺ بجمع القرآن الكريمِ من تلك الصُّحف والعُسب واللِّخاف المتفرِّقة، ورسمِه على كان مرسومًا عليه في العهد النَّبوي في صحائف قد تابع بينها الصحابةُ الحفاظُ الضَّابطون الذِّين كلِّفوا بالجمع في ذلك الزَّمان، فلما كان عهدُ عثمان وقد أُخبر ﷺ بكثرة اختلاف المسلمين الأبْعدين عنه في القرآن المجيد، أمرَ الخليفةُ الشَّهيدُ بجمع الأمَّة على مُصحفِ إمامٍ مُشتملٍ على أوجُه القراءات التِّي اشتملتْ عليها العرضةُ الأخيرةُ، مزيَّنٍ بمرسوم الخطِّ الذِّي كان في زمن النَّبي الكريم، وعهدِ أبي بكر الصِّدِّيق ﷺ.

ولبِثَ المسلمونَ بعد عصر الصَّحابة على اتِّباع رسْم المصحفِ الإمام، حتى نَشأ بينهم الخلافُ في التزام اتباعِ خط المصحف في عُهود متأخرة، وأزمنة معاصرة.

وهذه الدراسةُ تُعنى - **في بيان لموضوعها** - بدراسة شُبهات الرافضين لاتِّباع رسْم المصحف الإمامِ من الأقدمين، كما أنها تُعنى بالبحث في موقف المعاصرين من المسلمين المحْدثين، والمستشرقين المبغضين من الرَّسم القرآني.

ولقد رأيتُ أن تكونَ هذه الدراسةُ وفق الخطَّة التالية:

المبحث الأول: شبهاتُ الأقدمين بخصوص رسْمِ المصحف الشريف وفيه:

المطلب الأوَّل: مواقف الأقْدمين في الالتزام بمرسوم خطِّ المصْحف الشَّريف.

المطلب الثاني: مُناقشة آراء الأقدمين في رسْم المصحف وردُّها.

المبحث الثاني: مواقف المحْدَثين من مستشرقين وعرب معاصرين من رسم المصحف الشريف وفيه:

المطلب الأول: آراء المستشرقين في رسم المصحف الشريف.

المطلب الثاني: آراء العرب المعاصرين في رسم المصحف الشريف.

المطلب الثالث: تعقُّبُ آراء المحْدثين من مستشرقين وعرب معاصرين في رسْم المصْحف وردُّها.

الخاتمة: في جملةٍ من الخلاصات والاستنتاجات والمقترحات التي تُثري الإضافة العلمية للموضوع المبحوث فيه.

ومن أهداف وغايات هذه الدراسة:

- إثباتُ أن رسْم المصحف الشَّريف سنَّة متَّبعة وهدي مقتفىً.

- إثباتُ أن للرسم القرآني حكما وأسرارا تحافظ على الكلمة القرآنية من التبديل والتَّغيير.

- إثبات أنَّ رسم المصحف مظهرٌ من مظاهر الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية في قراءتها لكتاب ربِّها.

ولعل **المنهج** المرضي في كتابة مثل هذا النوع من البحوث، هو المنهج **الاستقرائي** لمختلف الآراء والأقوال، ثم **تحليلها وردها**، وبيان الرأي الصواب المختار.

ولا بدَّ من لفْت النَّظر إلى أنَّ الدراسات والبحوث المفردة في هذا الموضوع خاصَّةً، تكاد تكون منعدمةً، إذ لا أعلمُ فيه بحثا مستقلا، وغايةُ الموجود شذرات متفرِّقة عنه، تأتي في غُضون مباحث رسْم المصْحف التِّي تُسلك عادةً في كُتب علُوم القرآن القديمة أو الحديثة، وقد تأتي في كُتب رسْم المصْحف -قديمها وحديثها- ودراسته من جهة اللغة والتاريخ على سبيل النُّدرة والقلَّة.

واللَّهُ من وراء القصد، وهو يهدي إلى أقومِ السبيل، وصلَّى اللَّه وسلَّم وبَارك على الهادي البشير، والسِّراج المنير محمَّد بن عبد اللَّه الأمين وعلى آله وصحْبه وسلَّم تسليما كثيرا إلى يوم الدِّين.

المبحث الأول:
شبهاتُ الأقدمين بخصوص رسْم المصحف الشريف

كانَ موقفُ الأقدمين من مرسوم الخطِّ[١] الذِّي كُتب به المصْحف الشَّريف بين يديْ رَسُول اللَّه ﷺ، وجُمع على ضوئِه القرآنُ الكريمُ الجمعَ الأوَّل في عهْد أبي بكر، والجمعَ الثَّاني في عهد عُثمان - مختلفا، فمنهم منْ رأى التزام الرسم في كتابة المصاحف خاصَّة وعدم الخروج عن ذلك لأنه يرى أنه

(١) يراد بالرسم اصطلاحا تصوير الكلمة بحروف هجائها، بتقدير الابتداء بها، والوقوف عليها، لتتحول اللغة المنطوقة إلى آثار مرئية، ويراد بالرسم العثماني الوضع الذي ارتضاه الصحابة في عهد عثمان رضي الله عنه في كتابة كلمات القرآن الكريم وحروفه، ولقد ارتبط استعمال الرسم بالقرآن الكريم للدلالة على خط المصحف، من حيث الإشارة إلى معنى الأثر القديم الذي يحرص المسلمون على المحافظة عليه ينظر:

د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي دراسات في علوم القرآن الكريم مكتبة التوبة الرياض الطبعة التاسعة ١٤٢١هـ ص٣١٥.

د/ غانم قدوري الحمد رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية العراق الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ص١٦٢.

توقيفٌ أو على الأقل أنه سنة متَّبعة أو هديٌ درج عليه منْ سلَف، ومنهم منْ رأى عدم الالتزام به، لأنه يرى أنه ليس توقيفا ولا أمرًا مُلزِما، ومنْهم منْ يرى - من جهةٍ ثانية - الاحتجاجَ بمرسُومِ خطِّ المصْحف في مسائل وقضايا النَّحوِ والقِراءات، ومنْهم منْ يسلكُ مسلكَ عدَمِ الاعتدادِ بمرسُوم خطِّ المصْحف في مِثل هذه القضايا والمسائل.

وهذا المبحثُ معقودٌ للكلامِ على مواقِفِ الأقْدمين تجاهَ رسْم المصْحفِ الشَّريفِ منْ حيثُ الالتزامُ به، ومن حيثُ شرحُ المعنى الذي من أجله نحا الصَّحابة هذا المنحى العجيب في رسْم الكلمات القرآنية.

المطلب الأوَّل:
مواقف الأقْدمين في الالتزام بمرسوم خطِّ المصْحف الشَّريف

سنعرض هنا لرأي علَميْن من علماء الأمة في عصريْن مختلفيْن[١]:

الرأي الأول: بخصوص التزام مرسوم خطِّ المصحف في كتابة المصاحف.

والرأي الثاني: بخصوص تفسير لمَ وقع للصَّحابة كتابة المصحف على نحوٍ خاصٍّ سمي فيما بعد برسم المصحف الشريف:

أولا: رأي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ت٤٠٣هـ:

يقول الباقلاني: «...لأجل أنَّ اللَّهَ إنما أوجبَ على القرَّاء والحفظة أنْ يقرؤوا القرآنَ، ويُؤدُّوه على منهاجٍ محدود، وسبيلٍ ما أنْزل عليه، وأن لا يتجاوزوا ذلك ولا يؤخِّروا منه مقدَّما ولا يقدِّموا مؤخَّرا...ولم يأخذ على كتبَة القرآنِ

---

(١) أعرضت عن كثير من آراء الأقدمين بخصوص الرسم العثماني كرأي ابن قتيبة والعز ابن عبد السلام، واقتصرت على ما اخترته اجتزاءً واختصارا.

وحفَّاظ المصاحفِ رسْما بعينه دون غيره أوجبه عليهم وحظر ماعداه، لأنَّ ذلك لا يجب لو كان واجبا إلا بالسَّمع والتَّوقيف، وليس في نصِّ الكتاب ولا في مضمونه ولحنه أنَّ رسمَ القرآن وخطَّه لا يجوز إلا على وجهٍ مخصوصٍ وحدٍّ محدود، لا يجوز تجاوزُه إلى غيره، ولا في نصِّ السُّنة أيضا ما يوجب ذلك ويدلُّ عليه، ولا هو مما أجمعتْ عليه الأمةُ ما يوجب ذلك، ولا دلَّت عليه المقاييس الشرعية، بل السنةُ قد دلَّت على جواز كتبِه بأيِّ وجه سَهُلَ وسَنحَ للكاتب، لأنَّ رسول اللَّه ﷺ كان يأمرُ برسمه وإثباته على ما بيناه سالفا، ولا يأخذ أحدًا بخطٍّ محدودٍ، ورسم محصورٍ، ولا يسألهم عن ذلك، ولا يحفظُ عنه فيه حرفٌ واحدٌ، ولأجْل ذلك اختلفتْ خطوط المصاحف، وكان منْهم من يكتبُ الكلمة على مطابقة مخرجِ اللفظ، ومنهم من يحذفُ أو يزيدُ مما يعلم أنه أولى في القياس بمطابقته وسياقه ومخرجه، غير أنه يستجيز ذلك لعلمه بأنه اصطلاحٌ، وأنَّ الناس لا يخفى عليهم، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية، والخطِّ الأول، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن يُعوِّج الألفات، وأن يكتب أيضا على غير هذه الوجوه، وساغ أن يكتب الكاتب

المصحفَ على الخط والهجاء القديميْن، وأن يكتب بالهجاء والخطوط المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك، وإذا عُلم وثبت أن خطوط المصاحف مختلفة متغايرة الصورة، وأنَّ الناس قد أجازوا ذلك أجمع ولم ينكر أحد منهم على غيره مخالفة رسمه وصورة خطه، بل أجازوا أن يكتب كل واحدٍ بما هو عادته، واشتهر عنده، وما هو أسهل وأولى من غير تأثيم ولا تناكر لذلك علمَ أنه لم يوجد على الناس في ذلك حدٌّ محدود محصور، كما أُخذ عليهم في القراءة والأداء، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورُسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، وكلِّ شيء يدلُّ على اللفظ وينبئ عنه، وإذا دلَّ الرسم على الكلمة وطريقها والوجه الذي يجب التكلم عليه بها، وجب صحته وصواب الكاتب له على أيِّ صورة كان وأيِّ سبيل كُتب، وفي الجملة فإنَّ كلَّ من ادَّعى أنه قد ألزم الناس وأخذ عليهم في كتْب المصحف رسما محصورا وصورةً محدودة، لا يجوز العدولُ عنها إلى غيرها لزِمه إقامة الحجَّة، وإيراد السمع الدَّالِّ على ذلك وأنَّى له به؟»[1].

---

(١) أبو بكر الباقلاني **الانتصار للقرآن** تحقيق د/ محمد عصام القضاة دار الفتح عمان الأردن دار ابن حزم بيروت **١٤٢٢هـ ٢/ ٥٤٧-٥٤٩** =

ثانيا: رأي العلامة عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ت٨٠٨هـ: «... فكان الخط العربي لأوَّل الإسلام غير بالغٍ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش، وبُعدهم عن الصنائع، وانظر ما وقع لأجل ذلك من رسمهم المصحف، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثيرُ من رُسومهم ما اقتضته رسومُ صناعة الخطِّ عند أهلها، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها، تبركا بما رسمه أصحاب رسول اللَّه ﷺ وخير الخلق من بعده، المتلقون لوحيه من كتاب اللهِ وكلامه، كما يُقتفى لهذا العهد خطُّ وليٍّ أو عالم تبركا، ويتبع رسمُه خطّأ أو صوابا، وأينَ نسبة ذلك من الصَّحابة فيما كتبوه، فاتُّبع ذلك وأُثبت رسما، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه»، ثم قال: «ولا تلتفتنَّ في ذلك إلى ما يزعم بعض المغفَّلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخطِّ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما

= وكثيرٌ من الدراسات الحديثة لرسم القرآن الكريم تنقل كلام الباقلاني بواسطة منْ تأخَّر عنه ملخَّصا، ولا ترجع إليه في مصدره الأصلي.

يتخيل بل لكلها وجهٌ، ويقولون في مثل زيادة الألف في «لأاذبحنه»، إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في «أييد»، إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحضُ، وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النَّقص في قلَّة إجادة الخطِّ، وحسبوا أن الخطَّ كمالٌ فنزَّهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمالَ بإجادته، وطلبوا تعليلِ ما خالف الإجادة من رسمه، وذلك ليس بصحيح»[1].

وهذه هي سياقةُ قوليْ أبي بكر الباقلاني وابنِ خلدون، ولقد تعمَّدتُ الإتيان بهما على طولهما، حتى يمكن مناقشتهما وتعقُّبهما، وبيانُ ما فيهما من خطلٍ وخطأ.

*****

(١) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون دار الكتاب اللبناني ١٩٥٧م ١/ ٧٥٧.

المطلب الثاني:

مُناقشة آراء الأقدمين في رسْم المصحف وردُّها

للناظر فيما نقلناه آنفا عن أبي بكر الباقلاني وابن خلدون أن يستنتج ما يلي:

١- أنه لا يوجد في نُصوص الشَّريعة كتابا وسنةً ما يوجب رسما محددا تكون عليه كتابة المصحف الشريف، إذ التوقيف والسمع فيه معدومٌ، ولو وُجد في ذلك شيءٌ فإنه لا يفيد لا بالمنطوق ولا بالمفهوم.

وفي الحقِّ فإنَّ دعوى عدم وِجدان نصٍّ في الشَّريعة يفيد في النزاع في هذه المسألة مردودةٌ من وجوه:

الأول: وُرود ما قد يُفهم منه أنَّ الرسمَ الذي كَتب الصحابةُ على ضوئه القرآنَ الكريم بين يدي رسولِ اللَّه ﷺ، كان بتوجيهٍ من النَّبي الكريم وإشرافٍ منه.

ومن النصوص التي يُفهم منها هذا:

- قول زيد بن ثابت: «كنتُ أكتبُ الوحيَ عند رسول اللَّه ﷺ

وهو يملي عليَّ، فإذا فرغْتُ، قال ﷺ: «اقرأْ، فأقرؤه، فإذا كان فيه سقَطٌ أقامه، ثم أخرجُ به إلى الناس»[١].

- قوله ﷺ لمعاوية: «ألْقِ الدواة، وأقم الباء، وفرق السين، ولا تغوِّر الميم، وحسِّن اللَّه، ومُد الرحمن، وجوِّد الرحيم»[٢].

قال القاضي عياض ت٥٤٤هـ تعليقا على هذا الحديث: «وهذا، وإنْ لم تصِحَّ الروايةُ أنه ﷺ كتبَ، فلا يبعدُ أن يُرزق علْمَ هذا ويُمنعَ القراءةَ والكتابةَ»[٣].

وإذا فرضنا جدلا أنَّه ليسَ يوجدُ نقلٌ صحيحٌ صريحٌ في هذه المسألة، فإنَّ فيه سنةً تقريرية من قِبل المصطفى ﷺ، إذْ معلومٌ أنَّ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير تحقيق حمدي السلفي مكتبة العلوم والحكم الموصل الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ برقم٤٨٨٩ ٥/ ١٤٢ وقال نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد دار الفكر بيروت ١٤١٢هـ ٨/ ٤٦٠: «رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات».

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٦هـ برقم٨٥٣٣ ٥/ ٣٩٤.

(٣) القاضي عياض الشفا بتعريف حقوق المصطفى تحقيق علي محمد البجاوي دار الكتاب العربي بيروت دون تاريخ ١/ ٥٠٧.

القرآنَ الكريمَ كُتب لأوَّل مرَّة في تاريخه بين يدي رسولِ اللَّه ﷺ من قِبل منْ كان اختارَهُ النبيُّ الكريمُ لهذه المهمَّة الجليلة من كتَبة الوحْيِ من الصَّحابةِ الأجِلاَّء النُّبلاء في الكِتابةِ والضَّبطِ والإتْقانِ، فكان ﷺ يملي على مِثل هؤلاء الجلَّة من الصَّحب، ثم يكتبون، ثم يقرِّهم ﷺ على المكتوب «فلو كان هناك خطأً في الكتابة، لما أقرَّهم ﷺ على ذلك، لأنه يُناقضُ صريحَ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1].

الثاني: ورودُ ما يفيد ثُبوتَ هذْيٍ منقولٍ عن الصحابة من الطبقة الأولى ممن اعتنى بكتابة القرآن الكريم، إذْ لما كان المكتوبُ من القرآنِ الكريم في الحضرة النَّبوية مفرَّقا في قِطَعٍ لم يُضمَّ بعضُها إلى بعضٍ في تتابعٍ مُسلْسلٍ، وترتيبٍ مُيسَّر- أقبلَ الخليفةُ الرَّاشد أبو بكر الصِّدِّيق في عهده على «جمع القرآنِ في صُحف منظَّمة يضمُّها لوحان أو دفَّتان على شكْل كتابٍ»[2]،

---

(١) د/ شعبان محمد إسماعيل رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة دار السلام القاهرة دون تاريخ ص٦٥.

(٢) د/ غانم قدوري الحمد أبحاث في علوم القرآن يُنظر منه بحث موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة دار عمار عمان الأردن الطبعة الأولى ص ١٦٦.

فكانت تلك حسنةَ أبي بكر الصِّديق العُظمى ومأثرته الكُبرى، ولقد نوَّه بها الإمامُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه حينما قال: «رحمةُ اللَّهِ على أبي بكر، كان أعظمَ الناس أجرًا في جمْعِ المصاحِف، وهو أوَّلُ منْ جمعَ بينَ اللَّوحيْن»[1].

ولمَّا كانَ زمنُ عثْمان بن عفَّان قامَ -بعد ظُهور الاختلاف في جماعةِ المسلمينَ- بانتِساخ المصاحِفِ من الصُّحف التِّي صارتْ إلى حفْصَة منْ أبِيها أبي بكر الصديق، وأرْسَلَ منْها عددًا إلى أهمِّ الآفاق الإسلاميَّة المعرُوفة في عهْده الزَّاهر الميمُون[2].

وتوحَّدت بهذا العمل الرائع الجليل «المصاحفُ التيِّ بأيدي المسلمينَ رسمًا وترتيبا، وهي ترجع إلى ما كُتب بيْن يديِ النَّبي صلى الله عليه وسلم، وصارَ رسمُ الكلماتِ في المصَاحفِ العثمانيَّة موضعَ

---

(١) ابن أبي داود عبد اللَّه بن أبي داود سليمان بن الأشعث كتاب المصاحف دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ص١١.

(٢) الداني عثمان بن سعيد المقنع في رسم مصاحف الأمصار تحقيق محمد الصادق قمحاوي مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة بلا تاريخ ص١٤-١٥ وابن أبي داود كتاب المصاحف ص٢٦.

عنايةِ العُلماء، وتعلَّقَ به علمُ رسْم المصحَف وضبْطه»[١].

الثالث: وُرُود ما يُفهم منه حصولُ الإجماعِ على أنَّ الهيئة التي كُتب بها القرآنُ الكريم بين يدي رسول اللَّه ﷺ، قد اتَّفق الصَّحابةُ على قَبولها، والمصيرِ إليها، وصار عُرفا -بعد زمانهم- بين جيل التَّابعين ومنْ تبعهم في عصورٍ إسلامية تالية، التزامُ كتابة المصاحف بالرَّسم العثماني الذِّي ورِثه الأخلافُ عن الأسلاف، لِماَ بَانَ من ظواهره[٢]من أسرار وحِكَم عرفها فُضلاء العلماء، وغابتْ عن كثير من الناس.

قال أشهبُ: «سُئلَ مالكٌ فقيل له: «أرأيتَ منِ استكتبَ مُصحفًا اليومَ، أترَى أنْ يكتبَ على ما أحدثَ الناسُ من الهجَاء اليومَ؟ قال: «لا أدري ذلك، ولكنَ يكتبُ على الكِتْبَة الأولى»[٣].

---

(١) د/ غانم قدوري الحمد **جهود الأمة في رسم القرآن الكريم** ص١٠ من بحوث المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه المنعقد في فاس المغرب سنة ٢٠١١م منشور على موقع مؤسسة البحوث والدراسات العلمية مبدع، وهي الجهة المنظمة للمؤتمر.

(٢) من ظواهر الرسم العثماني: الحذف والزيادة والهمز والبدل، والوصل والفصل وما فيه قراءتان فكُتب على إحداهما.

(٣) الداني عثمان بن سعيد **المقنع في رسم مصاحف الأمصار** ص١٩.

وعلقَّ الداني على هذه الرواية عن الإمامِ مالكٍ بقوله: «ولا مخالفَ لهُ في ذلك من عُلَماء الأُمَّة»[(١)].

وأسند الداني أيضا عن عبد اللَّه بن عبد الحكم قال: «سُئل مالكٌ عن الحروف تكون في القرآن مثل الواو والألف، أترى أن تغيَّر منَ المصْحف، إذا وُجدت فيه كذلك؟ قال: لا»[(٢)]، وعلَّق الدَّاني مفسِّرا بعدَ سياقه لهذه الرِّواية: «يعني الواو والألف الزأَئدتين في الرَّسْم المعدُومتيْن في اللَّفظِ»[(٣)].

ويُفهم إجماع الأئمة من الصَّدر الأوَّل على وُجوب اتِّباع خطِّ الرَّسم العُثماني منْ قول الإمام أحمد الذي يقول: «تَحرُم مخالفةُ خطِّ مُصحَفِ عُثمان في واوٍ أو ياءٍ، أو ألفٍ أو غير ذلك»[(٤)].

٢- يُفيدُ كلامُ ابنِ خلدون أنَّ الصحابةَ لم يكونوا على درايةٍ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص٣٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن **الإتقان في علوم القرآن** المكتبة الثقافية بيروت ١٩٧٣م ١/ ١٦٧.

تامَّةٍ بأصول الخطِّ العربي وقواعده، وأنَّ كتابتهم للمُصحف بيْنَ يدي رسولِ اللَّه ﷺ على نحو ما قدْ كتبوا وسطَّروا، إنما تجسد مرحلةً بدائية من مراحل تطوُّر الكتابة العربية وذلك لبُعدهم عن الحضارة والتَّمدن، وغلبة البداوة والتَّوحش عليهم، وفي هذا نظرٌ من عدَّة أنحاء منها:

الأول: أنَّ نسبةَ الصَّحابة إلى القُصور والضُّعف في معرفة أصول الهجاء، غيرُ مسلَّمة من حيثُ أنهم أعرفُ بما ينبغي في الخطِّ والرَّسم، ولقد كان هذا الأمر واضحا يكاد يكون متَّفقا عليه عند كثيرٍ من أهل العلم بهذا الشأن قديما، فهذا الدأَني يقول: « وليس شيءٌ من الرسم، ولا من النَّقط اصطلح عليه السَّلفِ رضوان اللَّه عليهم إلا وقد حاولوا به وجها من الصِّحة والصَّواب، وقصدوا به طريقا من اللغة والقياس، لموقعهم من العلم، ومكانهم من الفصاحة، عِلِم ذلك من علِمه، وجهِله من جهله، والفضلُ بيَد اللَّه يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضْل العظيم»[١].

---

(١) الداني المحكم في نقط المصاحف تحقيق عزة حسن مديرية إحياء التراث القديم وزارة الثقافة والإرشاد دمشق ١٩٦٠م ص١٩٦.

ويعْزو الإمامُ البيهقيُّ ت٤٥٨هـ وجوبَ اتباع خطِّ مصحفِ الإمام عُثمان إلى ما كان عليه الصحابةُ من حُسن النَّظر لكتاب الله، وحُسن رعايتهم له لما كانوا عليه من العلم الوافرِ، والأدب الجمِّ معه فيقول «منْ كتبَ مصحفًا فينبغي أنْ يحافظَ على الهجاء الذِّي كتبوا بهِ تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغيِّر مما كتبوه شيئا، فإنهم كانوا أكثرَ علمًا وأصدق قلبًا ولسانا، وأعظمَ أمانة منًّا، فلا ينبغي أن نظنَّ بأنفسِنا استدراكًا عليهم، ولا سَقَطًا لهم»[1].

الثاني: «يبدو أنه قد غاب عن ابن خلدون رحمه الله، وهو يتحدث عن الخط العربي أن رسوم صناعة الخط التي يتحدث عنها لم تكن قد وُضعت في عصر الصحابة، ولم يكن أهلُها من اللُّغويين قدْ ظهروا، وكان الدكتور صلاح المنجد محقًّا في نقده مقولة ابن خلدون تلك على الرَّغم من قسوة عبارته حين قال: «وهذا جهلٌ منه، لأنَّ الصحابة اتبعوا كما رأينا مُعظم الرَّسم الذي وصل إليهم من الكتابة النبطية المتطوِّرة، أما

---

(١) البيهقي شعب الإيمان تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ٢/ ٥٤٨.

رُسوم ما اقتضته صناعة الخطّ، فكانت وليدةَ مراحل جديدة من التَّطور والحضارة والعُمران، تحققَّت في ما بعد»[(١)].

الثالث: إنه لا ينبغي «التسليم بأن الكتابة العربية (كانت) عاجزة عن الاستجابة لمتطلبات اللغة، فإنه من الثابت أن الكتابة تولدت ونمت في شمال الجزيرة في بلاد الأنباط، ثم اتجهت تحت تأثير السياسة إلى الشرق، ووجدت في الحواضر العربية من العراق المتاح الملائم لأن تتطور وتتأصل وتنتشر في الحيرة وغيرها . . . مما أدى إلى انتشار الكتابة بين عرب العراق قبل الإسلام، واتصالُ أهل مكة بأهل الحيرة وغيرها أمر مسلَّمٌ به، فلا يُستبعد أن يكون أهل مكة والمدينة قد تعلَّموا من أهل الحيرة، وأنَّ هؤلاء قد علَّموا غيرهم من قريش وغيرهم»[(٢)].

---

(١) د/ غانم قدوري الحمد مراجعة عددٍ من النَّظريات المتعلِّقة برسم المصحف في ضوء علم الخطوط القديمة بحث منشور في السجل العلمي للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية الذي نظمه كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود بالرياض في٦/ ٤/ ١٤٣٤هـ ٢/ ١٤٢.

(٢) د/ شعبان محمد إسماعيل رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة ص٥٢.

المبحث الثاني:
مواقف المحْدَثين من مستشرقين وعرب معاصرين من رسْم المصْحف الشَّريف

كان رسمُ المصحف الشَّريف من بين المسائل والقَضايا العلميَّة التي أدارَ عليها الاستِشراقُ والتَّغْريب بحوثه ودراساتِه حول ما سمَّاه «الظاهرة الإسلامية ومرجعيتها العليا»، ولذلك وُجدت حوْل خطِّ المصحَفِ الإمام آراءُ استشراقية، ونظريَّاتٌ تغريبية تحاول النَّيْلَ من ثقة المسلمينَ من كتابِ ربِّهم، وزعْزعةَ الإيمانِ في قلُوب مَنْ آمن بمعجزةِ محمَّد ﷺ الخالدةِ: القرآنِ الكريم.

وهذا المبحثُ معقودٌ لبيان بعضِ آراءِ المستشرقين الذِّين طمسَتْ ظلمةُ التَّعصُّبِ أعينَهُم عن رؤية نُور الحق، فكانت منهمْ مواقفُ عدائيةٌ تجاه القرآن الكريم من جهة رسمه وضبطه، كما أنَّه معقودٌ لعرض جملةٍ من آراء العرب المعاصِرين ممن ساءت نيَّاتُهم في القرآن الكريم، وعَظُمَ

جُرْمُهُم تجاه رسْمه وخطّه، فوقعتْ لهم نظرياتٌ وأقوالٌ كَشفتْ عمَّا بدِخْلتهم من كيدٍ ومكرٍ لهذا الكتاب العظيمِ، والحبل المتينِ.

المطلب الأول:

آراء المستشرقين في رسْم المصحف الشريف

والمتأمِّل في بحوث الاستشراق التي اعتنت بالدِّراسات القرآنية من جهة الرَّسم والخطِّ، يجد أنَّ معظمها يردِّد رأيا واحدا لمستشرق مشهور هو جولد تسهير، لما له من تأثير كبير في الدراسات الاستشراقية المتعلِّقة بكتاب اللَّه من جهة، والدِّراسات التغريبية التي دبَّجها المستلَبون من أبناء جلدتنا ممن كتب في هذا المجال من عرب معاصرين من جهة ثانية.

ومن أجل ذلك سنسوق هنا رأي جولد تسهير في رسم المصحف وخطه، مع الحرص على ذكر آراء غيره.

يبادر المستشرقُ جولد تسهير إلى الحكم على القرآن الكريم بأنه كتابٌ مضطرب، فيقول مهوِّلا في هذا الوصف، مسرفا في هذا النَّعْت -: «فلا يوجد كتابُ تشريعٍ اعترفت به طائفةٌ دينية اعترافا عقديا على أنه نصٌّ منزل موحىً به، يقدِّم نصه في أقدم عصورِ تداولِه مثلَ هذه الصُّورة منَ الاضطراب

وعدم الثبات كما نجد في نصِّ القرآن»[١].

وبعد هذا التمهيد ينتقل جولد تسهير إلى بيان رأيه في سبب حصول الاختلاف في القراءات التي قُرئ بها القرآن الكريم، ليُبدي بعد ذلك رأيَهُ في رسْم المصْحف وخطِّه فيقول: «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدِّم هيكلُه المرسومُ مقادير صوتية مختلفة تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق الهيكل، أو تحته وعدد تلك النقاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة وبهذا إلى اختلاف دلالتها، وإذًا فاختلافُ تحلية هيكل الرَّسم بالنقط واختلاف الحركات في المحصول الموحد الغالب من الحروف الصامتة كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطا أصلا، ولم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه..»[٢].

---

(١) جولد تسهير مذاهب التفسير الإسلامي ترجمة د/ عبد الحليم النجار طبعة الخانجي القاهرة ١٩٥٥م ص٤.

(٢) المصدر السابق.

ولقد شرع جولد تسهير لمن بعده من المستشرقين البابَ واسعا، للقول بأنَّ أصل القراءات القرآنية إنما مرده إلى رداءة خط المصحف، فهذا بروكلمان يقول: « فتحت الكتابة التي لم تكن قد وصلت بعدُ إلى درجة الكمال مجالا لبعض الاختلاف في القراءة»(١).

وهذا برتزل يقول عن رسم المصحف القديم إنه «هو الذي أدَّى إلى اختلاف طائفة من القراء، لأن الكلمة المكتوبة ربما احتملت قراءتين أو أكثر»(٢).

وهذا آرثر جفري يرى أنَّ المصاحف التي كُتبت في عهد عثمان بن عفان ﵁ كانت «كلها خالية من النقط والشكل، فكان على القارئ بنفسه أن ينقط ويشكل هذا النَّص على مقتضى معاني الآيات»(٣).

---

(١) بروكلمان **تاريخ الأدب العربي** ترجمة عبد الحليم النجار دار المعارف مصر ١٩٥٩م١/ ١٤٠.

(٢) مقدمة أوتو برتزل تحقيق كتاب **التيسير** في القراءات السبع للداني استانبول ١٩٣٠م ص ي.

(٣) مقدمة تحقيق آرثر جفري كتاب **المصاحف** الطبعة الأولى المطبعة الحمانية مصر ١٣٥٥هـ ص٧.

هذا مجمل مواقف المستشرقين من رسم المصحف الشريف، وسنعلِّق عليها متعقبين بعد الإتيان بمواقف العرب المعاصرين.

* * *

المطلب الثاني:

آراء العرب المعاصرين في رسم المصحف الشريف

لسنا نقصد هنا الإتيان بآراء المعاصرين من المتخصِّصين في الدراسات القرآنية بخصوص رسم المصحف، بل إن المقصود ذكر الآراء الشاذة للباحثين العرب المعاصرين، التي اغترفت من الدراسات الإستشراقية للظاهرة الإسلامية، فتأثَّرت بها، فكانت نموذجا من نماذج الاستلاب والتَّبعية الفكريَّة للغرب الحاقد، أوْ صدَرَتْ عن آراء شخصيَّة لم يُنضجها البحثُ المستوعِبُ، ولا التجربةُ العلميةُ الرصينةُ.

ومن بين هذه الآراء الشَّاذة التي جاءت من قِبل بعضِ المعاصرين من العَرب، رأي د/ صلاح الدين المنجد الذي كنا نودُّ أنْ لو صان نفْسَه عن التصريح به -لما عُلم للرَّجل من أيادي بيضاء على العلم-، فإنه قال في معرض حديثه عن الخطِّ الذِّي كُتبت به المصاحفُ في العهد الأوَّل: «وقد أدَّى خلوُّ المصاحفِ الأئمةِ من النُّقط أنَّ بعض الألفاظ كان يُقرأ على أكثرَ من وجه»[١].

---

(١) د/ صلاح الدين المنجد دراسات في **الخطِّ العربي منذ بدايته إلى** =

ومن بين هذه الآراء الشاذة ما كان قد ألقاه إبراهيم حمروش من بيانٍ من منبر مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي جاء فيه: «الأصل في هذا الخطّ أن يكون تصويرا للملفوظ بحروف هجائه بحيث يطابق المكتوب، ولكن هذا الأصل مزَّقه علماء الرَّسم، فقد كثرت استثناءاتهم في الحروف ولا سيَّما في الهمزة، أمَّا رسم المصحف فالنظرُ فيه يوضِّح لنا أنه مخالفٌ لذلك الأصلِ في كثيرٍ من مواضعه، ومخالفٌ لما قرَّره علماءُ الرَّسم أحيانا . . »[1].

ومن بين هذه الآراء الشَّاذة الغريبة التي تُنادي على استلاب عقل منشِئها، ونزَقِه الفكري، رأيُ عبد العزيز فهمي باشا الذي نادى باستعمال الحروف اللاتينية في كتابة العربية، وألَّف في ذلك كتابا، وكان مما ذكره فيه أنَّ المصاحف: «بدائية سقيمة

= نهاية العصر الأموي دار الكتاب الجديد بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩م ص٤٢.

(١) مجلة المجمع سنة ١٩٥٥م ٨/ ٥٧ بواسطة د/ غانم قدوري الحمد رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ص٢٠٤.

قاصرة»[١]، ونعَتَ الرَّسم القرآني بأنه سخيف[٢].

ونختم هذه الآراء الشاذة برأي محمد بن محمد عبد اللطيف ابن الخطيب الذي عبَّر عنه بقوله واصفا ما كان عليه الصحابة الذين كتبوا القرآن الكريم من البُعد عن فنِّ الكتابة وأصول الإملاء: «لما كان أهل العصر قاصرين في فن الكتابة عاجزين في الإملاء لأمِّيتهم وبداوتهم، وبُعدهم عن العلوم والفنون، كانت كتابتهم للمصحف الشريف سقيمةَ الوضع غير محكمة الصُّنع، فجاءت الكِتْبَة الأولى مزيجا من أخطاء فاحشة، ومناقضات متباينة في الهجاء»[٣].

وقال أيضا واصفا الرسم القرآني بأشنع النعوت: «الرسم القديم يقْلب معاني الألفاظ، ويشوِّهها تشويها شنيعا، ويعْكس معناها بدرجة تكِّفر قارئه، وتحرِّف معانيه وفضلا عن

---

(١) الحروف اللاتينية لكتابة العربية دار العرب مصر ١٩٤٤م ص٢١ و٢٣ بواسطة د/ غانم قدوري الحمد رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ص٢١٢ هامش ١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن الخطيب الفرقان دار الكتب العلمية بيروت بلا تاريخ ص٥٧.

هذا فإن فيه تناقضا غريبا وتنافرا لا يمكن تعليلُه، ولا يُستطاع تأويلُه»[١].

❊ ❊ ❊

المطلب الثالث:

تعقُّبُ آراء المحْدثين من مستشرقين وعرب معاصرين في رسْم المصْحف وردُّها

لم تكن آراءُ المستشرقين وبعض العرب المعاصرين في رسم المصحف الشريف موافقةً للصواب، ولقد حمل عليها التعصبُ المقيت ضدَّ فكر وحضارة الإسلام، أو الجهلُ بتاريخ القرآن الكريم والعلوم الناشئة حوله لحفظ حِياضه، والذَّود عن حماه، ونحن إذا قلَّبنا النظر فيما نفثه جولد تسهير من سمٍّ، بخصوص نشأة القراءات وبيان الأصل فيها، نجد الرجل قد عزا ذلك إلى بدائية الرَّسم الذي خُطَّ به القرآنُ الكريم بين يدي النبي ﷺ، وكُتبت على ضوئه المصاحفُ المكتوبةُ في عهد عثمان بن عفان ﷺ، وهذا الإفكُ مدفوعٌ بجملة أمورٍ منها:

- إنَّ الذي يؤيِّده تاريخ نقل القرآن الكريم، هو أنه قد تمَّ هذا النقل المبارك الموثوق به بواسطة المشافهة والتلقي، إذ أخذ الصحابةُ عن رسول اللَّه ﷺ القرآنَ الكريمَ غضًّا طريا كما

نزل به جبريلُ عن ربِّ العالمين سماعا، فكان التعويلُ في أول الأمر على الحفظ والوعي، وذلك أمرٌ سابقٌ على الكتابة والتدوين، والرسم والتخطيط، إذ كان إقبالُ الصحابة الكرامِ على الحفظ والتَّحمل عن رسول اللَّه ﷺ أكثرَ من إقبالهم على كتابة الموحَى به، إذ لم تكنِ الكتابةُ فيهم فاشيةً، ولا الرسمُ بينهم ظاهرا منتشرا، فسبق المحفوظُ في الصدور، على المخطوط المرسوم في الطُّروس، وهذه حقيقة تاريخية لا ينكرها إلا جاحدٌ، أو جاهلٌ بتاريخ العلوم النقلية في الإسلام، فكيف يقال إنَّ الرسم قد تسبَّب في ظهور هذه القراءات التي استوعبتْها صدورُ الصحابة قبل أن تستوعبها الصحف والمصاحف؟ «وظلَّ هذا المنهج هو القاعدةُ التي سار عليها القراءُ في كل الأعصار، فكانت صحةُ نقل القراءة شرطا أساسيا لقبول القراءة»[١].

- ومما يدلُّ على أنَّ القراءات سابقة على الرسم، وأنه لا دخل له فيها، إلا من حيث تأييدُها والاحتجاجُ على ثبوتها من وجهٍ، أنَّ «في القرآن الكريم كلمات تكررت في مواضع كثيرة،

---

(١) د/ غانم قدوري الحمد رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ص٧٢١.

ورُسمت برسم واحد في جميع المواضع، ولكنها في بعض المواضع وردت فيها القراءات التي يحتملها رسمها، فاختلف فيها القراء وتنوعت فيها قراءاتهم، وفي بعض المواضع اتفق القراء على قراءاتها بوجه واحد، لأن غيره لم يصح به النقل، وتثبتْ به الروايةُ مع أنَّ الرسم يحتمله»[1].

- مناطُ ثبوت القراءات هو الرواية والتلقي، فإذا لم تثبت الرواية ولم يصح السماع، فإن القراءة لا تقبل وإن احتملها الرسم «فالأصل أن الرسم تابعٌ للرواية والنقل، وأن القراءة منقولةٌ من أفواه الرجال الحفظة . . . فإذا احتمل الرسم قراءة غير مروية ولا ثابتة ولا مسندة إسنادا صحيحا، رُدَّت وكُذِّبت وكُفِّر متعمِّدها، وما وافق الرسمَ من القراءات الصحيحة تُعبِّد به، وكان تنزيلا من حكيم حميد»[2].

(١) الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي القراءات في نظر المستشرقين والملحدين ص٥٢ بواسطة د/ شعبان محمد إسماعيل رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة ص٥٨.

(٢) د/ عبد الفتاح شلبي رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم دوافعها ودفعها مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١٩هـ ص٣٦.

وبعدُ فإذا اندفع رأي جولد تسهير في الرسم، اندفع بالتبعية كل رأي مستشرقٍ صدر عنه أو اقتبس منه.

وإذا انتقلنا إلى الآراء الشاذة لبعض المعاصرين من العرب الباحثين في رسم المصحف الشريف، ألفينا أنَّ أهمَّ ما قد رُمي به الرسم القرآني من باطل هو ضعفه وبُعد القائمين به عن الصواب، وهذا مردود متعقَّب من عدة جهات:

أولا: الروايات التي يَستدل بها هؤلاء في تأييد رأيهم، والتي تفيد وجود اللحن والخطأ في رسم المصحف الشريف، ضعيفٌ بعضُها ومتأوَّل بعضُها[١]، ولا تنفع في الاستدلال على المسألة المتنازع فيها، قال السيوطي تعليقا على مثل هذه الروايات: «وهذه الآثار مشكلة جدا، وكيف يُظن بالصحابة أولا أنهم يلحنون في الكلام فضلا عن القرآن وهو الفصحاء اللدُّ؟ ثم كيف يظن بهم ثانيا في القرآن الذي تلقوه من النبي ﷺ

---

(١) من هذه الروايات: قول عثمان بن عفان كما في كتاب المصاحف لابن أبي داود ص٤١: «في القرآن لحن ستيقمه العرب بألسنتها»، ومنها قول عائشة رضي الله عنها كما في كتاب المصاحف لابن أبي داود أيضا ص٤٣ وقد سألها عروة بن الزبير عن شيء من القرآن قالت: «يا ابنَ أختي هذا عملُ الكُتَّاب أخطأوا في الكِتاب».

كما أنزل وحفظوه وضبطوه وأتقنونه؟ ثم كيف يُظنُّ بهم ثالثا اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته؟ ثم كيف يُظنُّ بهم رابعا عدمُ تنبيههم ورجوعهم عنه؟ ثم كيف يُظنُّ بعثمان أنه ينهى عن تغييره ثم كيف يُظنُّ أنَّ القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مرويٌّ بالتواتر خلَفا عن سلف، هذا مما يستحيل عقلا وشرعًا وعادةً»[١].

ثانيا: إن القولَ بأنَّ رسم الصحابة للقرآن الكريم فيه أخطاءٌ فاحشة، وأغلاطٌ فاضحة، هو قولٌ «أنتجه النظرُ غير المتمهّل إلى هجاء الكلمات مع فقدان الحس بالجانب التاريخي للكتابة والتَّعلق بأن الأصل في الكتابة موافقةُ الخطِّ للفظ، فلا ينبغي للناظر في الرَّسم العثماني إلا أن يستبعد فكرة الخطأ، وهو يحاول أن يجد التفسير الصحيح لظواهر الهجاء الواردة فيه، وأنْ يتوقف عن القول في ما لم يتوفَّر لديه فيه ما يرجِّح به رأيا أو يقدِّم تفسيرا، لأن جانبا كبيرا من تاريخ الكتابة العربية في تلك الفترة المتقدمة لايزال غير معروف، ويظل الرسم العثماني بكل ما يقدم من أمثلة وصور لرسم الكلمات، خير ممثل لواقع الكتابة

---

(١) السيوطي الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٨٣.

العربية في تلك الحقبة، ولا شك في أنَّ أيَّ كشْفٍ جديد في مجال النصوص القديمة المكتوبة سيزيد الحقائق الكتابية التي يقدِّمها الرسم تأكيدا ووضوحا بعيدا عن فكرة الخطأ التي يجب أن تكون آخر احتمال في هذا المجال، بل على الباحثين استبعاد فكرة الخطأ في هذه المرحلة من البحث حيث تشير كل الدلائل إلى أن ما جاء في رسْم المصْحف هو واقعٌ كتابي تميَّزت به الكتابةُ العربيَّة في تلك الفترة»[١].

ثالثا: إن دعوى عدم قَبول ظواهر رسم المصحف الشريف للتأويل ولا للتعليل دعوى عاريةٌ عن الدليل، إذ أن من أهل العلم قديما من جرى على تعليل الرسم من جهة اللغة والنحو، على نحو ما أنت واجدٌ عند المهدوي في كتابه «هجاء مصاحف الأمصار»، والداني في «المقنع في رسم مصاحف الأمصار»، وهذا الاتجاه الذي يُعنى بتعليل ظواهر الرسم القرآني بعلل لغوية ونحوية، وإنْ كان قد أهمل الجانب التاريخي للكتابة العربية، بيْد أنه أقربُ إلى الحقِّ والواقع[٢].

---

(١) د/ غانم قدوري الحمد رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٥.

خاتمة الدراسة

لم يكن رسم المصحف الشريف إلا تعبيرا عن مظهر من مظاهر حفظ وبقاء هذا التنزيل الرباني خالدا كما أُنزل من السماء، فلقد توفَّرتِ الهممُ على حفظه في الصدور متْلُوًّا مقروءا، كما توفَّرت الدَّواعي على حِفظه في السُّطور مرسوما مسطورًا، فكان في هذا إعجاز وحِكم وأسرارٌ، كما كان في هذا إعجازٌ وحِكم وأسرار.

ولقد كُتب هذا القرآن الكريم لأول مرة في تاريخه بين يدي من أُنزل عليه ﷺ، فكان الصَّحابةُ من الكَتبة أمناءَ على أداء ما قد استأمنَهُم عليه الرسول الكريم، فبالغوا في تجويد الخط، وتزيين المرسوم بحسَب ما وسعهم جهدُهم البشري، وووصلت إليه معارفُهم الكتابية، وبلغته الكتابةُ العربيةُ في تلك المرحلة التاريخية في المدينة المنورَّة في البيئة الحجازية، فأدَّوا ما قد بُلِّغوا كما أُدِّي إليهم، فكان ذلك وجه إتقانهم، وسبب ضبطهم وتحرِّيهم، فجزاهم اللَّه خيرا، ورضي عنهم أنْ قاموا بالمهمَّة خير قيام، وأبلَوْا فيها بلاءً حسنا.

ولقد تفاوتتْ مداركُ علماء الإسلام في القديم في إرجاع الرسم القرآني إلى أصله، ومعرفة مصدره والسَّبب فيه، فمنهم من قال إنه توقيف، ومنهم من قال إنه اصطلاحي، كما أن منهم من أوجب الالتزام به في كتابة المصاحف، ومنهم من رأى الأمر في ذلك واسعا، بيْد أنَّ منهم منْ وقف عند ظواهره باحثا عن أسباب وقوعها، ليخلُص بعدُ إلى أنَّ ذلك إنما كان من أجل خطأ الكاتب، والبُعد عن الحضارة، والإيغال في البداوة، وهو رأيٌ قد ذكرناه وتعقَّبناه في غُضون هذه الدِّراسة.

وإذا كان الأقدمون قد بدرَ منهم ما قد يُعاب عليهم بخصوص رسْم المصحف الشريف، فإنه مغتفرٌ لهم إزاء جلائل الأعمال التي قدَّموها للإسلام وأهله، كما أنَّه مما قد يُتجاوز فيه لأدبهم في الطَّرح، وجميلِ اعتقادِهم في الصَّحابة الذين كتبوا الوحي، وحسْن ظنِّهم فيهم - فإن ذلك لماَّ وقع من المحْدثين مستشرقين وعرب معاصرين، أنبأَ عمَّا في دِخلتهم من سُوء الطَّوية، والكيدِ للإسلام وثوابته، والحطِّ منْ أقدار الصَّحابة الذين شرُفوا بحمل هذا القرآن الكريم وتبليغه الناسَ.

ومن أجل ذلك اعتنى الباحثُ في المبحث الثاني من هذه

الدراسة بذِكْر وتعقُّب طرَفٍ من آراء بعضِ المستشرقين الذين قدَحُوا في القراءات التي قرِئ بها القرآنُ الكريمُ من جهة ربانيتها، وعَزَوْها إلى هذا الرسم الشريف الذي كُتب على ضوئه الكتاب المنزَّل، فجعلوا الرسم أصلا في القراءة، وهي تابعةٌ له لا على المعنى الإسلامي المتداول عند أرباب هذا الشأن، بل على المعنى الذي شرحناه آنفا في غُضون هذه الدِّراسة.

وإذا كان الخطبُ يَهُونُ بالنسبة للمستشرقين الذِّين أظهروا لأهل الإسلام نيَّاتهم في الكيد للقرآن الكريم وإن تدَّثروا بالعِلْمية والموضوعية - فإنه لَيَعْظمُ مع زُمرة من الباحثين العرب المعاصرين الذين قلَّدوا المستشرقين في بحوثهم بخُصوص رسم المصحف الشريف، فحكَموا على ما قامَ به الصَّحابةُ الكرامُ من تقييدٍ جليلٍ، ورسْمٍ نبيلٍ لكتاب ربِّنا الكريم، بالضعف والسَّخافة، والخطأ الفاحش، والغلط البيِّن، وحكَموا على الرسم بالقاعدة اللغوية والنحوية التي ظهرتْ فيما بعدُ مقعَّدة محرَّرة في أزمنة متأخرة، ولم يتنبَّهُوا إلى أنَّ الرَّسمَ له الأوَّلية والأسبقيَّة.

وبعدُ فإنَّ لرسم المصحف أسرارا وحِكما هي التِّي دعتْ إلى بسْط شُبهات طائفةٍ من الأقدمين، وعرْض أراجيف زُمرة من اللاحقين من مُستشرقين وعرب مُعاصرين وتعقُّبها ومناقشتها، ومن تلك الأسرار والحِكم:

- بقاءُ سلسلة الإسناد بالقرآن الكريم متصلةً بسيِّد الأنبياء والمرسلين، المبلِّغ للقرآن الكريم عن جبريل عليه السلام عن ربِّ العالمين «ولاشكَّ أنَّ اتصال السند برسول اللَّه ﷺ في القرآن كله سوره وآياته، وكلماته، وحروفه، بهيئاتها وحركاتها، وكيفية نطقها بطريق التواتر خاصٌّ بهذا القرآن»[١].

- اشتمال الرسم القرآني على القراءات الصحيحة «وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر، كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر»[٢].

- تلقي القرآن الكريم من صدور الرجال، وحمله عن شيوخه ونقَلَته من القرَّاء والحفَّاظ المهَرَة فيه، والحاذقين له،

---

(١) د/ فهد الرومي دراسات في علوم القرآن الكريم ص٣٤٤.

(٢) عبد العظيم الزرقاني مناهل العرفان في علوم القرآن دار الفكر بيروت بلا تاريخ ١/ ٣٧٣.

إذ الاتكال على الرسم العثماني لا ينفع في تربية ملَكة الضبط، ولا يُنَمِّي في النَّفس مهارةَ الإتقان، لأنَّ الرسم يكون في الغالب الأعم غير مطابق للنطق الصحيح، فلاجرمَ أنْ سيكونُ التَّلقي عن الرجال، والسَّماعُ منهم، والأخذُ مباشرةً عنهم، هو السبيلُ الأوحدُ للإتقانِ والضبطِ، والإجادةِ والحِذْقِ.

ولم نعدم في هذا العصر من دعواتٍ ترتفع من حينٍ لآخر مناديةً بعدم وجوب الالتزام بالرسم العثماني، لأنَّ قواعد الإملاء -زعمتْ- قد تطوَّرت على نحوٍ انغلقَ معه فهمُ نصِّ المصْحف الشَّريفِ المكتوبِ بالرَّسمِ القديمِ بالنسبة للعقلية المعاصِرة، ولقد استمدَّت هذه الدَّعواتُ أدلَّتها من شُبهاتِ الأقْدمين، وأراجيفِ المعَاصرينَ التي اهتَبلتْ هذه الدراسةُ بالتَّنويه بها، والكتابةِ عنها، والتعقب لمحتواها، والمناقشة لمضمونها.

وفي الحقِّ فإنَّ المسلمينَ في هذا العصْر في حاجةٍ ماسَّة إلى اتِّباع رسْم المصحَف الشَّريف، لأنَّ ذلك أحفظُ للقرآنِ الكريمِ من التغيير والتبديل، وأدْعى لاجتماع الأمَّة كلِّها على كتابِ ربها، وأحوطُ لها من الوُقوع في فتنة الاختلاف والتنازع في القِراءة.

ومن المقترحات والتَّوصيات التي تخلُص إليها هذه الدراسةُ :

- التوصيةُ بالتزام الرسم العثماني في الكتب المدرسية، والمقرَّرات الجامعية للبلاد العربية والإسلامية .

- تدريبُ النشْء المعاصر على القراءة من المصاحف التي التزمت الرسم القرآني، لأنَّ ذلك يكونُ لهم أعونَ في معرفة مرسوم الخط، والاطلاع على ظواهره ومسائله .

- عرضُ الشُّبه والأراجيف - قديمِها وحديثِها - المتعلِّقة برسْم المصحف، في مقرَّرات الكلِّيات الشَّرعية، وبيان ما فيها من خطلٍ وخطأ، والانفصال عنها بأجوبة تُزيل الغِشاوة، وتُوصلُ إلى برْد اليقين .

والحمدُ للَّه ربِّ العالمينَ وصلَّى اللَّه وسلَّم على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحْبِهِ وسلَّم تسْليمًا كَثيرًا .

***

المصادر والمراجع[1]

- د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي **دراسات في علوم القرآن الكريم** مكتبة التوبة الرياض الطبعة التاسعة ١٤٢١هـ.

- د/ غانم قدوري الحمد **رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية** العراق الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

- أبو بكر الباقلاني **الانتصار للقرآن** تحقيق د/ محمد عصام القضاة دار الفتح عمان الأردن دار ابن حزم بيروت ١٤٢٢هـ.

- ابن خلدون **تاريخ ابن خلدون** دار الكتاب اللبناني ١٩٥٧م.

- الطبراني **المعجم الكبير** تحقيق حمدي السلفي مكتبة العلوم والحكم الموصل الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

- نور الدين الهيثمي **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** دار الفكر بيروت ١٤١٢هـ.

- الديلمي **مسند الفردوس** تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٦هـ.

---

(١) لم يُراعَ في ترتيب المصادر حروف المعجم بل رُوعي ترتيبها حسبَ ورودها في البحث.

- القاضي عياض **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** تحقيق علي محمد البجاوي دار الكتاب العربي بيروت دون تاريخ.

- د/ شعبان محمد إسماعيل **رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة** دار السلام القاهرة دون تاريخ.

- د/ غانم قدوري الحمد **أبحاث في علوم القرآن** يُنظر منه بحث **موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة** دار عمار عمان الأردن الطبعة الأولى.

- ابن أبي داود عبد اللَّه بن أبي داود سليمان بن الأشعث **كتاب المصاحف** دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

- الداني عثمان بن سعيد **المقنع في رسم مصاحف الأمصار** تحقيق محمد الصادق قمحاوي مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة بلا تاريخ.

- د/ غانم قدوري الحمد **جهود الأمة في رسم القرآن الكريم** من بحوث المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه المنعقد في فاس المغرب سنة ٢٠١١م منشور على موقع مؤسسة البحوث والدراسات العلمية مبدع، وهي الجهة المنظمة للمؤتمر.

- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن **الإتقان في علوم القرآن** المكتبة الثقافية بيروت ١٩٧٣م.

- الداني **المحكم في نقط المصاحف** تحقيق عزة حسن مديرية إحياء التراث القديم وزارة الثقافة والإرشاد دمشق ١٩٦٠م.

- البيهقي **شعب الإيمان** تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

- د/ غانم قدوري الحمد **مراجعة عددٍ من النَّظريات المتعلِّقة برسم المصحف في ضوء علم الخطوط القديمة** بحث منشور في **السجل العلمي للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية** الذي نظمه كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود بالرياض في٦/ ٤/ ١٤٣٤هـ.

- جولد تسهير **مذاهب التفسير الإسلامي** ترجمة د/ عبد الحليم النجار طبعة الخانجي القاهرة ١٩٥٥م.

- بروكلمان **تاريخ الأدب العربي** ترجمة عبد الحليم النجار دار المعارف مصر ١٩٥٩م.

- مقدمة أوتو برتزل تحقيق كتاب **التيسير في القراءات السبع** للداني استانبول ١٩٣٠م.

- مقدمة تحقيق آرثر جفري كتاب **المصاحف** الطبعة الأولى المطبعة الحمانية مصر ١٣٥٥هـ.

- د/ صلاح الدين المنجد **دراسات في الخطّ العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي** دار الكتاب الجديد بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

- ابن الخطيب **الفرقان** دار الكتب العلمية بيروت بلا تاريخ.

- د/ عبد الفتاح شلبي **رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم دوافعها ودفعها** مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١٩هـ.

- عبد العظيم الزرقاني **مناهل العرفان في علوم القرآن** دار الفكر بيروت بلا تاريخ.

فهرس الموضوعات

نُبْذةٌ عن الكتاب

إن الكتابة في موضوع علم الانتصار للقرآن الكريم في العصر الحديث تنظيراً وتقعيداً، لا يكاد يوجد منها إلا النزر القليل، والشذرة بعد الشذرة، وأما التصدي لموضوعاته ومجالاته فكثيرةٌ الدراسات والبحوث فيه قديما وحديثا.

ولقد افتتح الكاتبُ هذه الدراسات ببحثٍ في بيان موضوع علم الانتصار للقرآن الكريم، وبيان أهمية الاطلاع عليه من قِبل المتخصِّص في الدرس القرآني المعاصر، وذكر العلوم التي يجب معرفتها بالنسبة للمنتصر للقرآن الكريم، مع التعريج على مجالات التطوير في الدراسات القرآنية الخاصة بعلم الانتصار للقرآن الكريم، وكأنَّ هذا البحث مدخلٌ تعريفيٌّ لهذا الذي يُقال له علم انتصار للقرآن الكريم، وتمهيدٌ لما يأتي بعده من بحوث ودراسات تدور في معناه، وتنوه بمبناه.

وكان البحثُ الثاني في كيفية توظيف الاتجاه العلماني الحداثي لمصطلح " التأويل"، ذلك المصطلح القرآني الذي أُريد تحريفه عن معناه الأصيل إلى معنى حادثٍ طارئٍ دخيل.

ودار موضوعُ البحث الثالث على دراسة مواقف المستشرقين والحداثيين من جمع القرآن الكريم بسطا لآراء الفريقيْن في هذه القضية، ووقوفا عند تقويم منهج الطائفتيْن في تناول القول في هذه المسألة.

وكان موضوع البحث الرابع والخامس دراسة ظاهرة جديدة في فهم القرآن الكريم ومحاولة تفسيره، وذلك الذي اصطُلح عليه عند كثير من الحداثيين بالقراءة الجديدة للنص الديني.

وكان مدارُ البحث السادس على دراسة بعض مواقف الأقدمين من رسم المصحف، مع التعريج على دراسة آراء بعض المعاصرين من مستشرقين وعرب في هذا الموضوع.

دار الخزانة الأزهرية
للدراسات والنشر

Daralkhezana@gmail.com
Daralkhezana@hotmail.com
dar al-khezana al-azhareya.com
00201146118471
00201227348024
00201014616909